

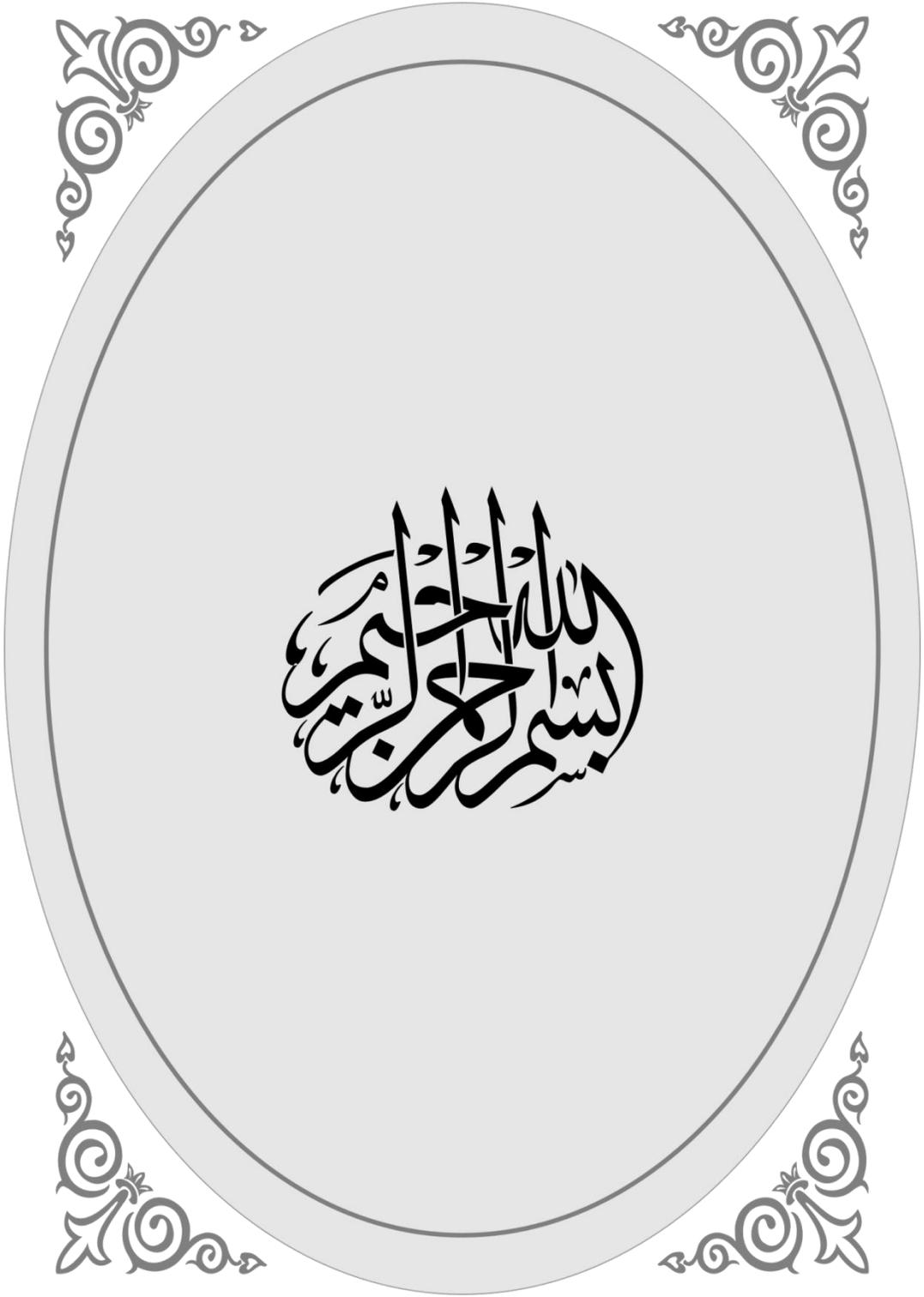
نَبِيُّ اللَّهِ مُحَمَّدٌ ﷺ عَلَيْهِ السَّلَامُ
خَطِيبُ الْأَنْبِيَاءِ

تَأَلَّفَ
د. عَلِيٌّ مُحَمَّدٌ مُحَمَّدٌ الصَّلَّابِيُّ

دارُ البُرُكَّةِ كَثِيرٌ

نبي الله شعيب عليه السلام
"خطيب الأنبياء"

تَأَلَّفُ
د. علي محمد محمد الصَّالَّابِي





- إلى الراغبين والمهتمين، والمتشوقين لمعرفة سير وقصص الأنبياء والمرسلين عليهم السلام.

- إلى السائرين في مدارج السالكين لتحقيق توحيد الله عز وجل وإفراده بالعبادة، وملازمة الصبر على الطاعات، وعن المعاصي، وفي النكبات.

- إلى من يريد معرفة سيرة نبي الله شعيب عليه السلام كما جاءت في القرآن الكريم.

أهدي هذا الكتاب سائلاً المولى عز وجل بأسمائه الحسنی وصفاته العلی أن يكون خالصاً لوجهه الكريم، قال تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: 110].



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مُقَدِّمَةُ الْكِتَابِ

إن الحمد لله، نحمده ونستغفره ونستعينه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: 102].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: 1].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾ [سورة الأحزاب: 70-71].

اللهم لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك، ولك الحمد حتى ترضى، ولك الحمد إذا رضيت، ولك الحمد بعد الرضا.

أما بعد:

فإن هذا الكتاب: "نبي الله شعيب عليه السلام.. خطيب الأنبياء"، يأتي ضمن سلسلة الأنبياء والمرسلين كحلقة مهمة في تاريخ علم من أعلام التاريخ البشري، وشخصية عظيمة أكرمها الله بالنبوة والرسالة، وخلدها في الذكر الحكيم قدوةً للعابدين وأسوةً لأولي الألباب. وقد صدرت من سلسلة الأنبياء إصداراتٌ عديدة، وبهذا الكتاب تمت بفضل الله ومنته ورحمته وفتحته وتوفيقه وتسديده، الموسوعة التي قضيتُ في تأليفها وكتابتها وبحث مادتها عشر سنواتٍ متتاليات، فعشتُ مع أبينا آدم، ونوح، وإبراهيم، وموسى، وهارون، وإسماعيل، وإسحاق، ويعقوب، ويوسف، وصالح، وهود، وشعيب، وأيوب، ويونس، وإدريس، واليسع، وإلياس، وذو الكفل، وداود، وسليمان عليهم الصلاة والسلام. وطُبعت معظمها، وبعضها الآن في المطابع، وبفضل الله وتوفيقه تُرجم العديد منها إلى لغاتٍ متعددة. ونسأل الله العزيز الرحيم العليم الحكيم الوهاب الرزاق أن يجعلها لوجهه خالصة، ولعباده نافعة، وأن يكرمنا مع القارئ العزيز برفقة النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقًا.

وهذا الكتاب يتحدث عن قصة شعيب عليه السلام، وقد جاءت في القرآن الكريم مليئةً بالدروس والعبر والفوائد والعظات والسُّنن والقوانين، وتقدّم للناس المنهج الصحيح في التعامل مع أسس الاقتصاد الرباني، وخطورة الانحراف عن شرع الله في العقود والمعاملات والأخلاق والعبادات، وتحذّر من خطورة الظلم وبخس الناس أشياءهم. وهذه القصة العظيمة لخطيب الأنبياء شعيب عليه السلام جزءٌ أصيل من الذاكرة الإنسانية والتاريخ

الحضاري البشري، ومن أهم محطاته الكبرى في تاريخ البشر الطويل، حفظها الله لربي الإنسان في كتابه العزيز ليتدبروها ويتأملوها ويتفكروا فيها، مما يعين المسلم على الالتزام بالسير على الصراط المستقيم، متواصلًا مع هذا الركب الميمون عقائديًا وأخلاقيًا وروحيًا. كما أن في هذه القصة العلاج الشافي من أمراض الشهوات والشبهات والانحرافات، خصوصًا في مجال المال والاقتصاد، ومعرفة أسباب النجاح وعوامل الانهيار والهلاك. فهذا الكتاب يجمع ما قاله المفسرون والمؤرخون وعلماء الاقتصاد عن شعيب عليه السلام، للوصول إلى كنوز هذه القصة العظيمة من دروسٍ وعبرٍ وفوائدٍ وسننٍ وقوانينٍ في حركة الحياة والمجتمعات والشعوب والأمم، مستفيدًا من آراء العلماء في الماضي والحاضر، مع الوقوف بحزمٍ وعزمٍ ضد الروايات الموضوعية والخزعبلات والأكاذيب والأباطيل التي لا تليق بمقام النبوة. وقد اعتمدت الدراسة على العلم والإنصاف، وقصد معرفة الحقيقة ابتغاء مرضاة الله عز وجل، ورسم المحطات المهمة في قصة هذا النبي الكريم.

وقد قمتُ بتقسيم هذا الكتاب إلى مباحث، فكان:

• **المبحث الأول:** اسمه ونسبه ولقبه، وهل مدين قبيلة أم مدينة؟ وأين مكانها؟ وهل تزوج موسى ابنة شعيب؟ ومن هم أصحاب الأيكة؟ ومواضع قصة شعيب في القرآن الكريم.

• **المبحث الثاني:** قصة شعيب عليه السلام في سورة الأعراف، وتفسير الآيات الكريمة المتعلقة بقصته:

﴿وَالِى مَدِينٍ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾

﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾

﴿قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾

﴿فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ﴾

﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾

﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾

﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُوهَا عِوَجًا﴾

﴿وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَرْتُمْ﴾

﴿وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾

﴿وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلَتْ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا﴾

﴿فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾

﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا﴾

﴿أَوْ لَتَعُودَنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾

﴿قَالَ أَوْلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ﴾

﴿قَدْ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا﴾

﴿وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا﴾

﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾

﴿عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾

﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾

وقد قمتُ بتفسير جميع الآيات التي وردت في القرآن الكريم والمتعلقة بشعيب عليه السلام،
بمنهجية التفسير الموضوعي والتحليلي، جامعًا بين المنهجين المعروفين عند علماء التفسير
وعلم القرآن.

- **المبحث الثالث:** قصة شعيب عليه السلام في سورة هود، وتُعد قصته في سورتي
الأعراف وهود من أطول المواضع التي ذكرت فيها القصة.
- **المبحث الرابع:** قصة شعيب عليه السلام في سور الشعراء والحجر والعنكبوت.
- **المبحث الخامس:** قصة شعيب عليه السلام في سورتي الحجر والعنكبوت، وذكر
قومه مع الأمم الهالكة.
- **المبحث السادس:** أسباب هلاك قوم شعيب عليه السلام، وأهم صفاته
وخصائصه ووفاته.

أسباب هلاك قوم شعيب عليه السلام

1. الكفر بالله.
2. الشرك بالله.
3. التكذيب بشعيب عليه السلام.
4. الظلم.
5. استعجال العذاب.
6. الإسراف والترف.

7. الاستكبار.
8. الإجرام.
9. المكر الإلهي بأهل مدين ومن سبقهم من أممٍ تمردت على توحيد الله وإفراده بالعبادة والسير على شرعه.
10. الفساد.
11. إيذاء شعيب عليه السلام:
 - التهديد بالرجم.
 - التهديد بالنفي.
12. الخطايا والذنوب.
13. سنة الله في الإملاء والاستدراج.
14. الاشتغال بالدنيا عن الآخرة.
15. نقص المكيال والميزان، وكان من أبرز الأسباب التي أدت إلى هلاك قوم شعيب عليه السلام.
16. سنة الاستبدال الحضاري.
17. سنة الأجل الجماعي.
18. سنة الله في هلاك الأمم.
19. سنة الخسران.
20. الغفلة عن أسباب الهلاك.

21. أهم صفات وخصائص شعيب عليه السلام.

وختمتُ الكتاب ببيان عقيدة الإسلام في الأنبياء والمرسلين، ووجوب الإيمان بهم، وأهم صفاتهم، وحكمة الله في إرسالهم، ووظائفهم، والأمور التي اختصهم الله بها. هذا وقد انتهيت من هذا الكتاب في يوم الأربعاء الموافق 2025/9/17م، 25 ربيع الأول 1447هـ، وذلك في تمام الساعة الواحدة والثانية والثلاثين دقيقة بعد صلاة الظهر في مدينة الدوحة عاصمة قطر، حفظها الله وسائر بلاد المسلمين.

والحمد لله على فضله ومنه، ونسأله سبحانه وتعالى أن يتقبل هذا العمل قبولاً حسناً، وأن يضع له القبول بين بني آدم، وينفعهم بما جاء فيه عن قصص الأنبياء والمرسلين. وبهذا الكتاب تمت موسوعة "الأنبياء والمرسلون"، سادة البشرية وقادة الإنسانية في أهم المحطات الحضارية التي مرت بها الحياة الإنسانية. ونسأل الله أن يكرمنا برفقة النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، مع إخواني الذين ساعدوني على إتمام هذه الموسوعة المباركة التي ترجمت وكتبت عن موكب الأنبياء والمرسلين.

وهذا من بركات دعاء والدي رحمه الله تعالى، الذي حرص على الوقوف معي في محنتي في السجون السياسية في ليبيا، والتي قضيت فيها بضع سنين ما بين 1981-1988م، وعند خروجي من السجن زوّدني بكل ما أحتهج في مسيرتي لطلب العلم، وقال لي: اذهب يا بني في طلب العلم، لعل الله أن يوفقك فتكتب كتباً نافعة يستفيد منها المسلمون، تكون لك ولي صدقة جارية، وما دمتُ حيّاً - أنا أبوك - لا أبخل عليك ما استطعت إلى ذلك سبيلاً، وإن متُّ فالله يتولاني ويتولاك. فعليه مغفرة الله ورحمته ورضوانه.

ومن فضل الله عليّ أن مدّ في عمري وبارك فيه، حتى كان من ثمار هذا العمر موسوعات متعددة:

- موسوعة أركان الإيمان.
 - موسوعة التاريخ الإسلامي في شمال أفريقيا.
 - موسوعة كفاح الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي والحركة السنوسية في أفريقيا.
 - موسوعة الفكر السياسي في الإسلام.
 - موسوعة تاريخ صدر الإسلام: عهد النبوة والخلافة الراشدة والدولة الأموية.
 - موسوعة الحروب الصليبية في عهد السلاجقة والزنكيين والأيوبيين والمماليك والعثمانيين.
 - موسوعة أعلام التصوف السني.
 - رسالة الماجستير: الوسطية في القرآن الكريم.
 - رسالة الدكتوراه: فقه النصر والتمكين في القرآن الكريم: أنواعه وأسبابه وأهدافه ومراحله.
 - موسوعة قادة الحضارة الإنسانية: الأنبياء والمرسلون.
- وقد منّ الله عليّ وأكرمني بقبول الناس لها، وسهّل بفضله وكرمه طباعتها وترجمتها وانتشارها. فله الحمد حتى يرضى وبعد الرضا، فقد ساق سبحانه لي من الأسباب والإخوة الكرام من أصحاب الهمم العالية والحرص على نشر رسالة الإسلام - نحسبهم من أهل الإخلاص والصدق - ولا نزكي على الله أحدًا من طلاب العلم والناشرين والمترجمين والمخلصين، فجعلهم الله سببًا في ترتيب هذه الموسوعات وإبرازها للناس وتعريفهم بها.

فالحمد لله أولاً وآخراً، وظاهراً وباطناً، حمداً كثيراً طيباً مباركاً، حمداً يوافي نعمه ويكافئ
مزیده، حمداً دائماً بدوامه، باقياً ببقائه كما يجب ربنا ويرضى. أحمدك ربي مصبحاً وممسيّاً،
وأحمدك في حضري وفي سفري، وأحمدك صبيّاً وشابّاً وشيخاً، أحمدك طالبَ علمٍ، وأحمدك
معلّماً للناس ما علّمتني، أحمدك فقيراً وأحمدك غنياً، وأحمدك ضعيفاً وأحمدك قوياً. أحمدك
وقد أخرجتني من بطن أمي لا أعلم شيئاً، وأحمدك بعد أن أتيتني من العلم، ورزقتني من
الفهم لما قرأت وسمعت، وما حاولت أن أعلمه غيري كما علمتني، وأن أهدي به الناس
كما هديتني، مسلمين وغير مسلمين. فتقبّل ذلك مني، ولا تؤاخذني إن نسيت أو أخطأت،
فكل بني آدم خطاء، وما سُمّي الإنسان إلا لنسيانه.

اللهم اجعل كل ما قلته وما سجلته أو سجّله لي غيري نافعا للناس، ونافعاً لي عندك:
﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً ۗ إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾
[آل عمران: 8].

أحمدك يا ربي أنك جعلت كتيّ تبلغ أنحاء المعمورة في مختلف القارات والأقطار، يقرأ فيها
الناس عن تاريخ الإسلام وقصص الأنبياء، وكلمة الإسلام واضحة نيّرة صريحة. فلك الحمد
على ما فتحت به عليّ في حياتي، وأرجو من فضلك وجودك وكرمك أن تبارك في جهودي
لخدمة دينك بعد وفاتي، وتكتبها لي صدقة جارية إلى يوم الدين، وتنفع بها أجيالاً قادمة
وأماً وشعوباً في المستقبل، وأن تهبّي لهذه الموسوعات من يطبعها ويدرسها وينشرها ويترجمها
إلى لغات الأرض حتى ينتفع بها خلقك، إنك على كل شيء قدير.

يا ربي يا كريم، يا رحيم، يا ودود، يا عليم، يا وهّاب، يا فتّاح، أكرمني بقبول هذا العمل
مني وممن أعانني من إخواني، وبارك فيه، ووصّله إلى عبادك في كل أرض، وأدخله القلوب

ليؤثر في العقول، ويهدي الضالين، ويزيد الذين آمنوا إيماناً، والذين اهتدوا هدايةً، والذين أطاعوا طاعةً على طاعتهم لك يا رب العالمين.

وقبل ختام هذه المقدمة فإنه "لا يشكر الله من لا يشكر الناس"، وبعد حمد الله تعالى وشكره كثيراً على نعمه عليّ التي لا تعد ولا تحصى، أشكر الخلق الذين أحسنوا إليّ من فضل الله وإحسانه، من الوالدين والأقارب، وإخواني في الله، والشيخ في المملكة العربية السعودية، الذين درسوني في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، وحلقات المسجد النبوي الشريف، كالشيخ أبوبكر الجزائري وعطية سالم وعمر فلاته رحمهم الله، وعبد المحسن العباد وابنه الشيخ عبد الرزاق، والشيخ ياسين الخطيب، وفتحي الرفاعي وفتحي الخولي، وسلمان العودة، ويحيى إبراهيم البجي، وكل من درسني في كلية أصول الدين، وكذلك زملائي في مسيرة طلب العلم، كالشيخ سالم الشبخي ويوسف المقصي، وكمال بلاعوا وعبد الرحمن بلاعوا ومحمود بن موسى، وغيرهم كثير، فرحم الله الأموات وبارك في الأحياء.

وأقدم الشكر والتقدير والاحترام لعلماء السودان الذين استفدت من علمهم وعشت بينهم، وأخص بالذكر الدكتور مبارك محمد أحمد رحمة، الذي أشرف على رسالة الماجستير الوسطية في القرآن، والدكتور أحمد محمد جلي الذي أشرف على رسالة الدكتوراه فقه النصر والتمكين في القرآن الكريم. ومن بين المشايخ الأجلاء الذين استفدت من علمه في السودان هو الشيخ الدكتور عصام البشير، فقد كان لديه حلقات مسائية في فتح الباري في شرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني، وكانت لديه شروط في الدعوة والفكر الإسلامي أفادتني، كما استفدت من كتاباته مثل كتاب أصول منهج النقد عند أهل الحديث، وهو يُعدّ من أبرز مؤلفاته في علوم الحديث والمنهجية النقدية. وهناك كتاب الشورى في سياق التأصيل

والمعاصرة، وكتابه الحوار بين أتباع المذاهب الإسلامية، والوسطية الإسلامية بين الأصل والعصر (معالم المشروع الفكري)، والخطب المنبرية وغيرها. هذا بالإضافة إلى الشيخ أحمد نور عميد كلية الشريعة في جامعة إفريقيا، والدكتور عبد الرحمن علي، والدكتور أحمد علي الإمام، وغيرهم الكثير من الفقهاء والعلماء والأكاديميين الكبار.

كما أشكر علماء اليمن الذين عشت بينهم سنوات عديدة، كالشيخ ياسين عبد العزيز، والدكتور عبد الكريم زيدان من علماء العراق - لكنه عاش هناك ودفن في اليمن رحمه الله - وقد تتلمذت على يديه. وكذلك الشيخ محمد بحيري من أهل التربية والسلوك من أصول مصرية، الذي استفدت من هديه وتعلمت منه، وهو من شيوخه في التربية والتزكية ومعالجة أمراض النفوس، والشيخ عبد المجيد الزناداني، ومفتي الديار وعالم اليمن الكبير محمد إسماعيل العمراني، رحمهم الله جميعاً.

وإن لي صحبةً خاصة ومودةً صافية ومدارسةً كبيرة مع إخواني من العلماء الذين أعدّهم من شيوخه في تخصصاتهم، ومنهم العلامة الدكتور فضل عبد الله مراد من فقهاء العصر وفقه النوازل، أقرأ في كتبه وأراجعها فيما استشكل عليّ من بعض القضايا العلمية والفقهية، وقد راجع بعض كتبي وأهدى إليّ ملاحظات عميقة وجديرة بالأخذ بها، وهو مهتم بالنهوض الحضاري للأمة. وكذلك أخي العلامة الدكتور عبد السلام المجيدي، صاحب مشروع بصائر المعرفة القرآنية، ويجد القارئ الكريم حضوره في تفسير بعض الآيات المتعلقة بقصة شعيب عليه السلام، وقد جمع أسلوبه بين الأدب الرفيع والفيض الروحي والعمق الفكري. قرأت له بعض كتبه التي أصدرها واستفدت منها، ولا تزال المذاكرة والدراسة لما يكتب محل احترام وتقدير واستفادة مني. فهؤلاء علماء اليمن من الشباب أعتبرهم من شيوخه.

أما الفترة التي قضيتها في قطر - وهي الأطول في حياتي مقارنة بليبيا والسعودية والسودان واليمن - فقد تميزت بالاحتكاك بالمتقنين والمفكرين والنخب العربية والعلماء. وأخص بالشكر الشيخ فيصل بن جاسم بن محمد بن أحمد آل ثاني، الذي استضافني في قطر، وفتح الله لي على يديه معارف كثيرة ساهمت في أبحاثي وكتبي وموسوعاتي. ومن أبرز الشخصيات التي استفدت منها وتعلمت على يديها في قطر، الشيخ الدكتور العلامة يوسف عبد الله القرضاوي، الذي نهلت من كتبه في فنون متعددة، وصاحبته من خلال الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين، فهو المؤسس لهذا الصرح العالمي الكبير الذي جمع شخصيات من خيار علماء الأمة، مما ساعدني على الاستفادة منهم في المؤتمرات والندوات. فرحمه الله رحمة واسعة.

وكذلك شيخنا الدكتور علي محيي الدين القره داغي، الرئيس الحالي للاتحاد، الذي قدّم الكثير من كتبي في القصص القرآني، واستفدت من علمه وصحبته وكتبه ومناقشاته. ويُعد من أكبر علماء الأمة في الاقتصاد الإسلامي والقضايا المالية، وله وقفات مميزة في تفسير القرآن ينفرد بها. تعلمت منه ومن مصاحبته، وتعلمت على محاضراته وكتبه والرجوع إليه. وهو من العلماء الذين جمعوا بين الطريقتين في جمع العلم: الطريقة القديمة في الجلوس مع العلماء، والطريقة الأكاديمية الحديثة. وقد جمع بين علم علماء العراق وعلم علماء مصر وغيرهم؛ فقد درس في العراق على علمائها وفي جامعاتها، كما درس في الأزهر الشريف، وله احتكاك واسع بعلماء الأمة وفقهائها، واطلاع كبير على كتابها ومفكرها. فنفعني الله برفقته وصحبته والتعلم على يديه، فهو من شيوخ الكبار، المهتمين بالتفسير، وله أحوال خاصة في التدبر والتأمل.

وشيخنا العَلامة الزاهد المرَبِّي المخلص - نحسبه كذلك ولا نزكي على الله أحدًا - الذي جمع بين علوم المشاركة والمغاربة، ووضع الله له قبولًا عظيمًا، وانتفع بعلمه خلق كثير، شيخنا الكبير الولي الصالح - نحسبه كذلك ولا نزكي على الله أحدًا - الشيخ محمد الحسن ولد الددو. فقد لازمته في دروسه في الدوحة، واستفدت من نصائحه العظيمة وإفادته في تدبر القصص القرآني، فكنت قبل أن أكتب عن أي نبي أو رسول عليهم الصلاة والسلام أجلس معه أو أتصل به عبر وسائل الاتصال الحديثة، وأعدّ مجموعة من الأسئلة حول مشروع الكتابة عن ذلك النبي، ثم أسجّل كل ما يقوله وأضمنه في كتاباتي، كما حدث معي في كتاب نوح عليه السلام والطوفان العظيم، وكتاب إبراهيم عليه السلام، وكتاب موسى عليه السلام.

ولا أنسى أبدًا رحلتنا إلى أفغانستان مع الوفد العلمي الذي كان يرأسه الشيخ القره داغي؛ فقد كنت أتحبّ أوقات فراغه رغم ضيق الوقت وكثرة البرامج، حتى أكرمني الله بجلسة معه حول نبي الله هود عليه السلام. فأفاض الشيخ وأجاد، وجال بنا في المعرفة التاريخية وأصول قبائل قوم هود وتفرعاتها، وما فتح الله عليه في النظر إلى الآيات الكريمة، حتى لم يملك نفسه من البكاء، فأبكانا معه. وكانت جلسة مباركة شهدت تجليات علمية وفكرية وثقافية وتفسيرية أجراها الله على لسان الشيخ.

وقد نصحني نصيحةً أحسب أن الله جعلها من أسباب ظهور هذه الموسوعات. فبعد تخرجي من الجامعة الإسلامية بالمدينة، التقيت به في مكة المكرمة قبل ذهابي إلى السودان، أي قبل أكثر من ثلاثين عامًا، وعرضت عليه مشروعني الذي سيطر على فكري ووجداني في كتابة التاريخ الإسلامي. وبعد أن اطلع عليه - وكان مكتوبًا على أوراق - استشعر

الشيخ أهميته وقال لي :إذا أردت أن تتم هذا المشروع، فإياك والتقدم في خطب الجمعة أو الفتوى أو الفضائيات؛ فهذا المشروع يحتاج إلى عزلة وتفرغ مع المراجع والمصادر والعلماء، وانقطاع عن عامة الناس. أما إذا انفتحت على الناس فسيصبح وقتك ملكاً للناس. وكانت هذه النصيحة حاضرة في مسيرتي العلمية، فنفعتني الله بها، فابتعدت عن التدريس الأكاديمي والخطب في المساجد والتصدي للفتوى، ولم أنفتح على الناس إلا في السنوات الأخيرة، ولا تزال تلك النصيحة بوصلةً لي في مشاريعي العلمية.

كما سافرت مع الشيخ ولازمته في المؤتمرات والندوات وأعمال الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين، وهو أحد نواب الرئيس في هذه المرحلة. فتعرفت عليه في المحن التي مرّت بها الأمة، وعلى مواقفه في الشأن العام، وعلى غيرته على قضايا المسلمين، واهتمامه الكبير بحركات الشعوب، وفي مقدمتها القضية الفلسطينية وقضايا المستضعفين في كل مكان. فجزاه الله خيراً عن الإسلام والمسلمين، وعن طلاب العلم وعامة الأمة التي انتفعت بعلمه، وأعدّه من شيوخي الكبار، أطال الله في عمره وختم لنا وله بالسعادة في الدارين.

ومن شيوخي وإخواني الذين استفدت منهم في الدوحة وفي البرنامج السنوي في رمضان: الدكتور عبد المجيد النجار، والدكتور أحمد الريسوني، والدكتور نور الدين الخادمي، والدكتور محمد يسري، والدكتور عبد الحي يوسف، والدكتور محمد الصغير، والدكتور جمال عبد الستار، الذي كانت بيني وبينه مدارس حول القرآن الكريم. وقد اطلعت على كتبه المتميزة فوجدت فيها فائدة كبيرة، وهو من أهل القرآن والتفسير، وله نظرات متعلقة بالمشروع الحضاري للأمة على ركائز قرآنية متينة. وهو الآن عاكف على تقديم دراسة نوعية متعلقة بأركان الإيمان من خلال القرآن الكريم، وربط الأمة بكتاب ربها وسنة نبيها.

ومن الإخوة الأفاضل الذين عاشوا معي رحلة الأنبياء والمرسلين، وساهم في ترجمة الكثير منها من خلال معارفه وعيشه في أوروبا، الدكتور ونيس المبروك، فقد كانت بيني وبينه حوارات ومناقشات و مذاكرات في أمور الدعوة، والعلم والقصاص القرآني، وقد تميز بقدرته النقدية العلمية الهادفة، فقد استفدت من صحبته وأخوته في مجال البحث العلمي وكتابة القصاص القرآني، ولم يألوا جهداً في نشرها والعمل على ترجمتها، وكان يقول لي: أنت تكتب ونحن نساهم في الترجمة، ونشاركك الأجر، وأقول له: فضل الله كبير وعطاؤه جميل، نرجو من هذه الكتابات أن يحشرنا الله مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، فكان من الفتوحات التي أجزاها الله على يديه ترجمة سلسلة "أولي العزم" باللغة الإنجليزية والفرنسية، وترجمة السيرة النبوية والمرسلين من أولي العزم، باللغات الإيطالية والألمانية، وترجمة الكتب باللغة الإسبانية، فجزاه الله خير الجزاء على ما قدّم ونصح وأفاد وأجاد.

وأشكر كل من ساعدني في رحلتي ومسيرتي في أولها وأوسطها وحتى يومي هذا، وهناك أسماء من العلماء والشيوخ، وأهل الفضل والعطاء، ساهموا في هذه المسيرة العلمية، لم أذكرهم لأسباب يعلمها القارئ الكريم، والله يعلمهم، وأجرهم على الله، وجمعنا الله بهم في مقعد صدقٍ عند مليك مقتدر.

كما أتوجّه بالشكر والتقدير إلى مساعدي وأخي الدكتور طالب عبد الجبار الدّغيم، وهو المشرف على إدارة منصات التواصل الاجتماعي الخاصة بعملية التاريخي والدعوي، والمكلف بتحرير ما أكتبه ومراجعته. فلقد كان جهده المتميّز ونشاطه المتواصل عوناً كبيراً خلال سنوات هذه المسيرة، ونسأل الله أن يتقبّل منه عمله، ويجزيه خير الجزاء، فهو نعم الأخ، ونعم الناصح، ونعم العون على طريق العلم والدعوة.

وأشكر لكل من كان له فضلٌ عليّ، كبيراً كان أو صغيراً في توفير هذا العلم، وإعانة صاحبه على أن يتابع مسيرته، وهي مسيرة طويلة وشاقة، ولكنها كانت بفضل الله تعالى سهلة وماتعة، حببها الله إلى كاتب هذه السطور.

ولا أجد ما أختم به لإخواني وأخواتي ومشايخي إلا أن أوصي نفسي وإياكم بالسير على درب النبي صلى الله عليه وسلم، خيرِ قدوة وأحسن أسوة. وأقول: اللهم ما كان بيني وبينك من قول أو عمل أو ترك أو نية، مما لا تحبه ولا ترضاه، غلبتني فيه نفسي، وأغراني به الشيطان، وأعانني عليه غيري، فأسألك بمنك وكرمك أن تغفره لي، وترحم فيه ضعفي؛ فأنت العفو الغفور الرحيم، الذي وسعت رحمته كل شيء، وسبقت رحمته غضبه.

خلقتني مهياً للمعصية إلا أن تمدني بعونك وتأيدك، وتكلاًني بحفظك وتثبيتك. اللهم اغفر لي جدي وهزلي، وخطئي وعمدي، وكل ذلك عندي. وإن كان هذا الأمر من حقوق عبادك عليّ، في دينهم وأنفسهم وعقولهم وأعراضهم وأموالهم وحرماهم، فاغفر لي يا رب؛ فأنا الفقير وأنت الغني، وأنا الضعيف وأنت القوي، وأنا العاجز وأنت المقتدر، وأنت أعلم بفقرتي وضعفي وعجزتي، وحاجتي إليك وإلى عفوك ومغفرتك. فاغفر لي ما قدّمت وما أخرت، وما أسرت وما أعلنت، وتب عليّ إنك أنت التواب الرحيم.

اللهم يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك وطاعتك، وأعوذ بك من سوء الأخلاق والأعمال والأهواء وطرق الغواية. اللهم بصّرني بما يرضيك واشرح صدري، وجنبني ما لا يرضيك واصرفه عن قلبي وتفكيري. وأسألك يا ربنا بأسمائك الحسنى وصفاتك العلا أن تثبتني وإخواني وأخواتي الذين أعانوني على إتمام هذا الجهد. اللهم اجعل هذا العمل لوجهك خالصاً، ولعبادك نافعاً، واطرح فيه البركة والنفع العظيم.

يا كريم، يا إلهي العظيم، أنت الموفق والمسدد والمعين، أنا العبد الذليل بين يديك، معترف
بفضلك وجودك وكرمك، متبرئ من حولي وقوتي، متجه إليك في كل حركاتي وسكناتي
وحياتي ومماتي. فأنت خالقي العظيم، لو تخلّيت عني ووكلتني إلى نفسي وعقلي لتلبّد العقل،
وغابت الذاكرة، وبيست الأصابع، وجفّت العواطف، وتحجّرت المشاعر، وعجز القلم عن
البيان.

سبحانك وبحمدك، عدد خلقك، ورضا نفسك، وزنة عرشك، ومداد كلماتك.
نرجو ممن يطلع على هذه المقدمة، ألا ينسى العبد الفقير إلى عفو ربه ومغفرته من دعائه،
قال تعالى: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ
صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ [النمل: 19].

الحمد لله رب العالمين.

الفقير إلى عفو ربه ومغفرته ورحمته ورضوانه:

الدكتور علي محمد محمد الصلابي.

الدوحة، يوم الأربعاء، 25 ربيع الأول 1447هـ، الموافق 17 سبتمبر 2025م.

المبحث الأول: نبي الله شعيب (عليه السلام) اسمه ونسبه ولقبه، وهل مدین قبیلة أم مدینة، وأین مکانها، وهل تزوج موسی ابنة شعيب، ومن هم أصحاب الأيكة؟

يُعدّ نبي الله شعيب عليه السلام من الأنبياء الذين ارتبط ذكرهم في القرآن الكريم بالدعوة إلى العدل في الميزان ومحاربة الفساد الاقتصادي والاجتماعي. ووردت قصته في سور عدة مثل: الأعراف وهود والشعراء والقصص، مما يبرز مكانته وعظم رسالته. وقد اختلف العلماء في اسمه ونسبه ولقبه، كما تنوعت الأقوال في طبيعة "مدین": أهي قبیلة أم مدینة، وأین كان موضعها الجغرافي بين الحجاز والشام؟

وتثار تساؤلات أخرى حول زواج موسی عليه السلام من ابنة شعيب، وعن هوية "أصحاب الأيكة" وهل هم قوم غير أهل مدین أو هم أنفسهم باسم آخر.

إن دراسة هذه القضايا لا تقتصر على السرد التاريخي فحسب، بل تكشف عن أبعاد حضارية وأخلاقية عميقة في دعوة شعيب. فهو الذي لُقّب بـ"خطيب الأنبياء" لفصاحته، وقد شكّلت رسالته أنموذجاً قرآنيًا في مقاومة الظلم والفساد. ومن هنا يأتي هذا المبحث ليعرض شخصية شعيب عليه السلام عرضًا يجمع بين الرواية التفسيرية والتحليل التاريخي والجغرافي.

أولاً: اسمه ونسبه ولقبه:

1. اسمه:

اختلف المفسرون والمؤرخون في نسب النبي الكريم شعيب عليه السلام. فقد قال بعضهم¹: هو ابن ميكيل بن يشجن، ذكره ابن إسحاق. ويقال: شعيب بن يشجم بن لاوي بن يعقوب. ويقال: شعيب بن شويب بن عبقا بن مدين بن إبراهيم². ويقال: شعيب بن سيفور بن عبقا بن ثابت بن مدين بن إبراهيم³. وقيل غير ذلك في نسبه، قال ابن عساکر: ويقال جدته، ويقال أمه بنت لوط⁴، وكان ممن آمن بإبراهيم وهاجر معه ودخل معه دمشق. وذكر غير ذلك، وفي هذا كله نظر، والله تعالى أعلم. وإن الغريب في الأمر أنّ واحداً منهم لم يقدم لنا دليلاً على أن رأيه هو الصحيح، وأنّ من خالفه كان على غير ذلك⁵.

وقد وصل الخلاف كذلك إلى اسم النبي ذاته عند الإخباريين، وليس نسبه فقط. ومن ثم فقد رأيناها - فيما يزعم أصحابنا الإخباريون - شعيباً مرة، ولكنه مرة أخرى (يثرون) أو (يثروب) أو حتى (يثرو)، ومرة الثالثة (يزون) أو (بنزون)⁶، وهو من أبناء إبراهيم مرة، وممن آمن به يوم أُلقي في النار

¹ قصص الأنبياء، ابن كثير، ص180.

² قصص الأنبياء، المصدر السابق، ص180.

³ قصص الأنبياء، المصدر السابق، ص180، تفسير الطبري، (8/237).

⁴ تاريخ دمشق، (70/23).

⁵ قصص الأنبياء، ابن كثير، ص180.

⁶ دراسات تاريخية من القرآن الكريم، المصدر السابق، (1/296).

ثم هاجر معه إلى الشام مرة أخرى، ثم هو من أبناء بعض من آمن به مرة ثالثة، وهو حفيد لوط من جهة أمه مرة رابعة¹.

ولكن أغرب ما في الأمر أن يصل ادعاء العلم عند البعض إلى أن يحوّل النبي العربي إلى يهودي، فيزعم أن شعيب بن يشخر ملاوي بن يعقوب، أو خبرى ابن يشجر بن لاوي بن يعقوب. ومن العجيب، أن (لاوي بن يعقوب) هذا ليس له ابن يحمل اسم يشجر أو يشخر، وإنما أسماء أولاده – كما جاء في التوراة – (جرشون، وقهات، ومراري)².

لقد اعتمد الإخباريون على مدّعي العلم ممن أسلم من يهود، فنقلوا عنهم كل ما جاءت به قراءتهم من غثّ وسمين³. وهكذا وُضعت له سلسلة من نسب ليس لها نصيب من صواب. وإن ذلك كله لم يكن معروفًا – فيما يرى البعض – في صدر الإسلام، وإنما حدث بعد فترة لا ندري مداها على وجه التحقيق⁴.

2. معنى (شعيب):

هو لفظٌ عربي قديم، وهو اسم لني الله، ويعني: صاحب الطريق الجديد، أو الطريقة الجديدة، أو الذي خرج على الباطل وثار عليه وانشقَّ عنه، وأعلى التزامه بالحق، وقد واجه أعداء الحق.

¹ دراسات تاريخية من القرآن الكريم، المصدر السابق، (1/ 296).

² دراسات تاريخية من القرآن الكريم، المصدر السابق، (1/ 296).

³ المرجع السابق، (1/ 297).

⁴ دراسات تاريخية من القرآن الكريم، المصدر السابق، (1/ 296).

و(شُعَيْب) لفظ عربي قديم على وزن فُعَايِل، وهو الركن المنفصل عن الباطل والناهض مع الحق، صاحب الرأي الفريد أو المنفرد يريد الحق. وهو (الشُّعْب) يخرج منفردًا من الشَّجَرَة، وذلك بعد إزالة (الياء) التي تعني الاستمرار والدَّيمومة والبقاء، أو الإصرار على الموقف حتى النهاية.

و(شعيب) هو الذي انشعب بشُعبَة، أو انشق بشِقِّ، أو انفصل بفصيلة، أي الذي يفصل الناس ويفرِّقهم، أو يفرِّق لهم بين الحق والباطل، وهو الذي يجمع الناس على الخير، يضع المجموعة المنفردة والكعب المنفرد أو الركن الأساس أو الناهض في طريق منفصل يريد الحق. إنه إعلان عن الخروج عن الباطل والالتزام بالحق¹.

3. لقب نبي الله شعيب (عليه السلام) بـ خطيب الأنبياء:

كان بعض السلف يسمِّي شعيبًا "خطيب الأنبياء"، يعني لفصاحته وعلو عبارته وبلاغته في دعوته قومه إلى الإيمان برسالته². وقد تميَّز كلامه بالحكمة والإقناع، وقوَّة الدليل، ورُقِّي الألفاظ، والحوار الحسن، وهو ما يظهر في محاورته³. وقد أوتي من سحر البيان، وقوَّة الحجَّة، وسرعة البديهة، والقول الحسن، والبلاغة الواضحة، ومحاجَّته لقومه، ولطف حديثه معهم⁴. وكان بارعًا في إقامة الحجَّة على قومه، ونسف اعتراضهم، ودحض شبهاتهم⁵.

¹ أسماء الأنبياء دلالاتها ومعانيها، خالد محمد حمد، ص 121.

² قصص الأنبياء، ابن كثير، ص 180.

³ نماذج من بلاغة القرآن، د. علي محمد البهجي، ص 197.

⁴ في رحاب قصص الأنبياء، والرسول، عبود الراضي، (1/ 529).

⁵ قصص الأنبياء، عبد الوهاب النجار، ص 207.

وقد تحدّث عن سخريتهم وتفاهتهم، وبيّن جهلهم وعجزهم بعلو همّته وحسن بيانه¹. وروى إسحاق بن بشر، وجويبر، ومقاتل عن الضحاك، عن ابن عباس، قال: كان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) إذا ذكر شعبيًا قال: "ذاك خطيب الأنبياء"². وكان كلامه متناسقًا مع الظروف والمناسبات³.

4. أحد الأنبياء العرب الأربعة:

في صحيح ابن حبان، عن أبي ذرّ في حديثه الطويل في ذكر الأنبياء والمرسلين، قال فيه: منهم أربعة من العرب: هود، وصالح، وشعيب، ونيك يا أبا ذرّ⁴.

وإسناد هذا الحديث ضعيف جدًّا، فيه إبراهيم بن هشام بن يحيى العسّاني كذاب. وقال الذهبي: أحد المتروكين⁵.

ثانيًا: هل مدين قبيلة أم مدينة؟

وأما (مدين) فهو اسم علم أُطلق على هؤلاء القوم الذين بعث الله لهم شعبيًا نبيًا. و(مدين) مشتق من (مدن)، تقول: مدن بالمكان إذا أقام فيه. وتُسمّى المدينة بذلك لأن يكثر سكانها الذين يقيمون فيها، ومعنى الإقامة في المدينة ملحوظ واضح⁶. إذن ف(مدين) تُطلق على القبيلة وعلى المدينة⁷.

¹ الهمة في ضوء القرآن الكريم، عبد العزيز سالم، ص 565.

² البداية والنهاية، (1/ 270)، إسناد ضعيف.

³ قصص الأنبياء في رحاب الكون، الدكتور عبد الحليم محمود، ص 159.

⁴ البداية والنهاية، (1/ 183).

⁵ الطبراني في الكبير، (2/ 1651)، صحيح ابن حبان، رقم 94.

⁶ القصص القرآني، (2/ 10).

⁷ التاريخ ورسالته في القرآن، د. سعدي أبو حبيب، ص 96.

ذكر كثير من المؤرخين أنّ قبيلة مدين تنتسب إلى مدين بن إبراهيم (عليه السلام). وقال العلامة سليمان الندوي - رحمه الله -: كانت لإبراهيم (عليه السلام) ثلاث نسوة: سارة، وهاجر، وقطورا. وُلد له من سارة إسحاق، وكان لإسحاق ابنان: يعقوب، وهو أبو بني إسرائيل، وعيسو الذي كان يُلقب بأدوم. واعتزل أدوم أخاه، وانضم إلى عمّه إسماعيل في بلاد العرب وسكن بها، وأمّا إسرائيل وبنوه فسكنوا في بلاد مصر والشام.

وأسكن إبراهيم (عليه السلام) جميع بنيه من قطورا، وكان أحدهم مدين في بلاد العرب، ولا يُعرف من بينهم إلا مدين ودّان. ووُلد له من هاجر ابن واحد، وهو إسماعيل (عليه السلام) الذي سكن في بلاد العرب بأمر أبيه¹.

ثالثًا: مكان مدين:

قام مدين بمسكنه إلى جانب أخيه إسماعيل، وكانت بلاد مدين تقع على طول سواحل خليج العقبة (أيلانة)، من فم الخليج إلى ساحل البحر الأحمر، وأرض ثمود والحجاز حيث كانت مساكن ثمود وجرهم والعرب من بني إسماعيل².

1. تاريخ مدين:

قال العلامة سليمان الندوي - رحمه الله -: نفترض بداية عهد مدين 2000 قبل الميلاد، فإن عهد والد مدين إبراهيم (عليه السلام) 2100 أو 2200 قبل الميلاد. وتحتاج الأسرة لتكون قبيلة أو قومًا إلى مئة أو مئتي سنة على الأقل. ومن ثم نرى مدين أول مرة يظهر في التوراة في عهد يعقوب (عليه السلام) سنة (2000 قبل الميلاد) تجارًا.

¹ تاريخ أرض العرب، ص 322.

² تاريخ أرض القرآن، ص 333.

إن قافلة التجارة التي حملت يوسف (عليه السلام) من كنعان إلى مصر كانت مكوّنة من عرب مدين وبني إسماعيل¹.

فيراد بالسيارة في الآية القرآنية:

قال تعالى: ﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ وَأَسْرُوهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرُّهُ بِثَمَنِ بَحْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [يوسف: 19-20].

أي: أهل مدين، وهذا ما فهمه البغوي في تفسيره². وهذا يدل على التواصل التجاري بين بني إسماعيل ومدين مع أهل مصر قديماً. وكانت بضائع هذه القافلة من العطور والبخور والصنوبر واللبان³.

2. حدود مدين:

كانت حدود أرض مدين متغيرة ومتبدلة تبعاً لقوتها، لذا لا نجد تحديداً قاطعاً لامتدادها. يقول الأستاذ تركي بن إبراهيم: يمكننا القول إن أرضها تمتد من الجهة الجنوبية الشرقية من صحراء سيناء إلى الجهة الشمالية الغربية من جزيرة العرب، وتحديداً بين العُلا والشام على امتداد بحر القلزم⁴. أي تقع بين المويلح جنوباً إلى العقبة شمالاً، وتمتد شرقاً حتى تبوك. وتشير الدراسات الحديثة إلى أنّ

¹ تاريخ أرض القرآن، المصدر السابق، ص334.

² تفسير البغوي (معالم التنزيل)، ص639.

³ تاريخ أرض القرآن، ص334.

⁴ مدين يلد نبي الله شعيب، تركي إبراهيم، ص9.

حدود مدين شملت تيماء في مرحلة من تاريخها¹، حيث يؤكد الباحث جرومان أنّ تيماء كانت إحدى مدن مدين².

ويدل لجوء موسى (عليه السلام) إلى مدين على أنّها لم تكن خاضعة لسيطرة فرعون مصر. وجاء في المواعظ والاعتبار للمقريزي: خرج موسى متوجّهاً إلى مصر، والملك يومئذ على مدين "أبجد". قال: وقوي أمر أبجد فطغى حتى ملك الحجاز واليمن، وكان له خمسة أولاد: هوز، وحطي، وكلمن، وسعفص، وقرشت³.

ويقال إن ملوك مدين حكموا مصر خمسمائة عام بعد غرق فرعون وهلاك جنوده، حتى أخرجهم منها نبي الله سليمان بن داوود، فعاد الملك بعدهم إلى القبط⁴. كما بيّن لنا العلامة أبو العباس المقريزي في كتابه المواعظ والاعتبار، المعروف باسم خطط المقريزي. وإن مدين بين الحجاز وفلسطين ومصر⁵.

وقال الأستاذ حمد الجاسر - رحمه الله - : يُطلق هذا الاسم (مدين) على الأرض الممتدة من طرف خليج العقبة شمالاً إلى قرب ميناء الوجه جنوباً. هذا في العهد القريب، وقديماً كانت تشمل قسمًا من فلسطين وسيناء على ما يُفهم مما ذكره المقريزي⁶.

¹ مدين بلد نبي الله شعيب، المصدر السابق، ص 9.

² مدين بلد نبي الله شعيب، المصدر السابق، ص 9.

³ المواعظ والاعتبار، (1/ 236).

⁴ المواعظ والاعتبار، المصدر السابق، (1/ 179).

⁵ مدين بلد نبي الله شعيب، ص 11.

⁶ مدين بلد نبي الله شعيب، ص 11.

3. الموقع الاستراتيجي لمدين:

تكتسب بلاد مدين أهمية كبرى لموقعها الاستراتيجي، فهي تربط بين جنوب الجزيرة وشمالها الغربي من جهة، وبين مراكز حضارية في العالم القديم - مثل بلاد مصر والشام - من جهة ثانية، لذا كانت مركزًا تجاريًا مهمًا في العصور الماضية. وكانت لهم تجارة معروفة مع اليمن ومصر والشام والعراق.

وكانت "البَدْع" (مغائر شعيب) من أهم المحطات في بلاد مدين على الطريق التجاري القديم، وتعد أيضًا إحدى المحطات الرئيسة على دربي الحج: الشامي والمصري؛ إذ يفترق عندها الطريق إلى مسارين: أحدهما يتجه إلى المدينة المنورة مرورًا بمحطات شعيب وبدا ووادي القرى، والآخر يتجه إلى مكة المكرمة مرورًا بقبا والوجه¹.

وفي العصر الإسلامي المبكر أصبحت مدين من أهم المحطات على طريق الحج الشامي والمصري. ذكر ذلك اليعقوبي حيث قال: ومن أراد أن يخرج منها (أي: مدين) إلى مكة أخذ على ساحل البحر المالح إلى موضع يُقال له "عينونا"، فيه عمارة ونخل ومطالب يطلب الناس فيها الذهب². وقال المقرئبي: ومنها - على ما يقابل الجحفة - حيث يُسمى اليوم رابع، إلى الحوراء ومدين وأيلة والطور وفاران ومدينة القلزم³.

كما قال ياقوت الحموي: ولأهل مصر وفلسطين إذا جاوزوا مدين طريقان إلى المدينة؛ أحدهما على شُعب وبدا، وهما قريتان بالبداية، كان بهما بنو مروان الزهري المحدث وبها قبره، حتى ينتهي

¹ مدين بلد نبي الله شعيب، ص13.

² مدين بلد نبي الله شعيب، المصدر السابق، ص13

³ المواعظ والاعتبار، (1/19).

إلى المدينة على المروة. وطريق يمضي على ساحل البحر حتى يخرج بالجحفة، فيجتمع بهما طريق أهل العراق وفلسطين ومصر¹.

يتبين لنا مما سبق أنّ هناك عدة طرق تمر ببلاد مدين، منها الطرق التجارية ومنها طرق الحج التي تربط بلاد الشام ومصر بالأماكن المقدسة².

4. مدين في عيون الشعراء:

قال الشاعر الأموي جرير:

يا أمّ طلحة ما لقينا مثلكم
رُهبانُ مدين لو رأوكِ تنزلوا
لِمَنِ الحُمُولُ من الأيادي حَمَلَتْ
في المنجدين ولا بغورِ الغائرِ
والعُصمُ من شَعَفِ العقولِ الغادرِ
كالدُّومِ أو ظُلِّلِ السفينِ العابرِ³.

وقال أحدهم:

لو دعا هوذُ النبيّ وصالحُ
وبه أتى لوطُ وصاحبُ مدينِ
وهو دينُ إبراهيمِ وابنيه معاً
وهما لدينِ اللهِ معتقدانِ
فكلاهما في الدينِ مجتهدانِ
وبه نجا من نفحةِ النيرانِ

وقال شاعر آخر:

يا وقعة التلِّ ما أبقيتِ من عجبِ
ويا ضُحى السبتِ ما للقومِ قد سُبتوا
جحافلٌ لم يُفتمتْ من جمعِها بشرُ
تهودوا أم بكأسِ الطواقي سَكروا؟

¹ معجم البلدان، (88/5).

² مدين بلد نبي الله شعيب، ص14.

³ مدين بلد نبي الله شعيب، ص15، 16.

ويا ضريح شعيبٍ ما لهم جثموا
كمدین أم لقوا رجفًا بما كفروا؟¹.

رابعًا: موسى (عليه السلام) وهجرته إلى مدين ولقاء الشيخ الصالح الذي زوجه إحدى ابنتيه
لقد ورد ذكر مدين في القرآن الكريم لسببين:

1. لعلاقتها بشعيب (عليه السلام).
2. لاتصالها بقصة موسى (عليه السلام) بها، وذلك في قوله تعالى: ﴿فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَيَّ قَدَرٍ يَا مُوسَى ﴿٤٤﴾﴾ [طه: 40]. وقول الله تعالى: ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿٢٢﴾﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ ﴿[القصص: 22-23]﴾. وقوله: ﴿وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًّا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [القصص: 45].

ولقد تساءل العلماء: هل عاصر شعيب موسى (عليهما السلام)؟ واعتقد كثير من المفسرين أن موسى (عليه السلام) قد تزوج ابنة شعيب (عليه السلام)، استنادًا إلى قصة خروجه من مصر قاصدًا مدين كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿٢٢﴾﴾ [القصص: 22]. وهذا ما رسخ في أذهان الكثيرين، غير أن القرآن الكريم لم يُصرِّح بذلك، بل لم ترد فيه إشارة إلى أن موسى (عليه السلام) قد التقى شعيبًا (عليه السلام).

لقد ذكر الله عز وجل هجرة نبيه موسى إلى مدين، وتحدّث عن هذه المنطقة، وأشارت الآيات الكريمة إلى الوضع السياسي والاقتصادي والاجتماعي والديني، ووصفت المرأتين بأوصاف جميلة،

¹ مدين بلد نبي الله شعيب، ص 15، 16.

من أهمها الحياء ومساعدة والدهما الشيخ الكبير. ولذلك رأيتُ من المناسب أن أسلّط الأضواء على طبيعة الحياة في مدين وأعراف الناس وتقاليدهم وأخلاقهم في الأجرة والعمل والزواج.

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تَلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصَدِرَ الرِّعَاءَ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقِصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَىٰ أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِي حِجَجٍ فَإِنْ أُمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجْلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾ [القصص: 22-28].

تفسير الآيات الكريمة المتعلقة بهجرة موسى (عليه السلام) إلى مدين:

1. قال تعالى: ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تَلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿٢٢﴾﴾

[القصص: 22].

نلمح شخصية موسى (عليه السلام) فريداً وحيداً مطارداً في الطرق الصحراوية في اتجاه مدين جنوبي الشام وشمالى الحجاز، مسافات شاسعة وأبعاد مترامية، لا زاد ولا استعداد، فقد خرج من المدينة خائفاً يترقب، وخرج منزعجاً بنذارة الرجل الناصح، لم يتلبث، ولم يتزوّد، ولم يتخذ دليلاً. ونلمح إلى جانب هذا أن نفسه متوجّهة إلى ربّه، ومستسلمة له، متطلّعة إلى هداة:

﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تَلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾: مرة أخرى نجد موسى (عليه السلام) في قلب المخافة بعد فترة من الأمن، ونجده وحيداً مجرداً من قوى الأرض الظاهرة جميعاً، يطارده فرعون وجنده، ويبحثون عنه في كل مكان، لينالوا منه اليوم ما لم ينالوه منه طفلاً. ولكن الله عز وجل رعاه وحماه وهداه، فهذا هو يقطع الطريق الطويل ويصل إلى حيث لا تمتد إليه اليد الباطشة بالسوء¹.

وفي قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تَلْقَاءَ مَدْيَنَ﴾: هذا المقطع من الآية الكريمة يُشعرنا بأن موسى (عليه السلام) خرج من مصر إلى مدين ولا يلوي على شيء سوى الفرار والنجاة بنفسه من بطش فرعون وقومه. لذا لم يكن عنده فرصة أن يصطحب معه شخصاً في رحلته يكون أنيساً له، فهو قد خرج سريعاً قبل وجهه، وحيداً فريداً على قدميه، ليس معه شيء. وفي نظري أنه لا زاد معه ولا راحلة، بل ولا حتى ماء، بل وليس معه سوى ثيابه التي على جسده.

وقال أبو عبيدة: عسى من الله إيجاب. وفي كتاب اللباب في علوم الكتاب لعمر بن علي الدمشقي الحنبلي: اتفق المفسرون على أن كلمة "عسى" من الله واجبة؛ لأنه لفظ يفيد الأطماع، ومن أطمع إنساناً شيئاً ثم حرمه كان عاراً، والله تعالى أكرم من أن يُطمع واحداً في شيء ثم لا يعطيه².

وقال الدكتور أحمد نوفل في الآية: ويبدو أن موسى (عليه السلام) يعرف وجهته قبل أن يخرج، ويبدو أنه كان يتوقع مثل هذا اليوم، فكان قد درس وأعد الاحتمالات، وحدد وجهة الخروج، تماماً كما صنع الأصحاب في هجرة الحبشة.

¹ في ظلال القرآن، (5/ 2685).

² وقفة تأمل مع موسى عليه السلام في مدين، ص ٧.

ومدين: نظنها شمال الجزيرة في جنوب الأردن، وهي قريبة نسبياً من مصر. وفي دعاء موسى (عليه السلام): ﴿عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾، فما أحوجنا إلى الهدى في دروب الحياة، سواء دروبها المادية الموصلة إلى الأمكنة، أو دروبها المعنوية الموصلة إلى الجنة¹.

2. قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي إِلَّا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ [القصص: 23]:

لقد انتهى به السفر الشاق الطويل إلى ماءٍ لمدين، وصل إليه وهو مجهود مكدود. وإذا هو يطَّلَع على مشهد لا تستريح إليه النفس ذات المروءة والفترة السليمة: أن تسقي المرأتان وتصدرا بأغنامهما أولاً، وأن يفسح لهما الرجال ويعينوهما. ولم يقعد موسى الهارب المطارد، المسافر الكدود ليستريح وهو يشهد هذا المنظر المنكر المخالف للمعروف، بل تقدّم للمرأتين يسألهما عن أمرهما الغريب².

﴿قَالَ مَا خَطْبُكُمَا﴾: أي ما شأنكما، ما خبركما، لا تردان مع هؤلاء؟

﴿قَالَتَا لَا نَسْقِي إِلَّا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾: فأطلعتها على سبب انزوائهما وتأخرهما وذودهما لغنمهما عن الورود، إنه الضعف؛ فهما امرأتان، وهؤلاء الرعاة رجال، وأبونا شيخ كبير لا يقدر على الرعي ومجالدة الرجال³.

¹ تفسير سورة القصص، ص ٢٥٦.

² في ظلال القرآن، (٢٦٨٦/٥).

³ في ظلال القرآن، (٢٦٨٦/٥).

ولفت هذا المنظر موسى (عليه السلام)، كما أعجبه حرص المرأتين على الابتعاد عن الرجال وعدم الاختلاط بهم، وتحملهما المشقة الكبيرة في ذود غنمهما عن الماء لحين انتهاء الرجال من سقي مواشيهم. وشعر نحوهما بالشفقة والرأفة¹.

وأراد أن يعرف سبب موقفهما المباغت لهم، وكان جواب المرأتين لموسى في قسمين:

القسم الأول: سبب ابتعادهما عن الماء أثناء سقي الرجال: ﴿قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ﴾، أي: لا نسقي ماشيتنا إلا بعد ما يسقي الرعاة مواشيهم، ويصدرون عن العين ويغادرون الماء. ونرى في هذا الجواب حرص المرأتين على عدم الاختلاط بالرجال، وعدم مزاحمتهم، وعدم التغلغل بينهم؛ فهما تنتظران بماشيتهما بمشقة ومجاهدة، وتسقيان بعد مغادرة الرجال الماء. وهذا التصرف من المرأتين تصرف فطري طبيعي يتفق مع طبيعة المرأة وفطرتها التي فطرها الله عليها. فالله قد فطر المرأة السوية الحية على عدم الرغبة في مخالطة الرجال الأجانب ومزاحمتهم.

قد تضطر بعض النساء للعمل، ولكن المرأة السوية لا تقبل أي عمل، وإنما تختاره بعيداً عن مزاحمة ومخالطة الرجال، كما لاحظنا في عمل المرأتين المؤمنتين؛ حيث كانتا تأخذان أغنامهما إلى أماكن غير التي يأخذ إليها الرجال أغنامهم. وإذا ما اشتركتا مع الرجال في الورد إلى ماء واحد، حرصتا على عدم مزاحمة الرجال، وأبعدتا أغنامهما إلى أن يصدر الرجال: ﴿قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ﴾.

القسم الثاني: سبب قيامهما بالمهمة الشاقة في رعي الغنم: ﴿أَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾. وكأهما بهذا الجواب تعذران عن رعيهما الغنم، فما قامتا بذلك إلا من باب الاضطرار، ولو كان في بيتهما رجال لكفوها هذه المهمة، وإن أباهما المؤمن شيخ كبير، طاعن في السن، ليست عنده قدرة على

¹ القصص القرآني، (٣٢٧/٢).

رعي الغنم ومتابعتها في الجبال والوديان، ومعلوم أنه لا بد أن يكون جسم راعي الغنم قويًا ليحسن رعايتها، وهذا لا يتحقق في جسم أبيهما الشيخ الكبير. ويفهم من جوابهما أنه ليس لهما إخوان، وليس في البيت خدم يقومون بالرعي¹.

1. يقول الشيخ الدكتور سلمان العودة في تفسيره لهذه الآية:

وهذا يُثيرُ التساؤلَ حول عملِ المرأة والحديثِ عن طبيعة العملِ الذي تعملُ فيه المرأة. أمّا عن حُكم عملِ المرأة فالمرأةُ تعملُ ويجبُ أن تعمل، وجزءٌ من مهمّة المرأة أن تعمل، ولا أعتقدُ أنه يمكن الجدُلُ حول عملِ المرأة؛ فالمرأةُ تعملُ لنفسِها من أجل أن تحافظ على شخصيّتها وكيونتها وجوانبها النفسيّة، تعملُ من أجل الحاجة وتوفير المال لنفسها أو ولدها أو لأبيها كحال هاتين الفتاتين: ﴿وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ [القصص: 23]، فحقُّ العملِ مفروغٌ منه، إمّا الكلامُ عن طبيعة العملِ الذي تعملُ فيه المرأة، حيث يجب أن تعملَ في عملٍ يُناسبها، وهذا واضحٌ في هذه القصة. ويجب أن تُراعى بيئةُ العمل التي تناسبها من سِتْرِ عن الرجال؛ فالفتاتان كانتا قريبتين من الرجال دون حواجز بينهما، ولذلك قال تعالى: ﴿تَدُودَانِ﴾ [القصص: 23]، أي: تُحْبَسَانِ وتُمنَعَانِ أغنامهما عن الماء حتى يفرغ الناسُ وتخلُو لهم البئر. قال الحسن: تُكفَّان الغنمَ عن أن تختلط بأغنام الناء². وتريان الرعاة، ولكن لم تشأ هاتان الفتاتان أن تدخلا في غِمار الرعاة، رغم أنه لم يكن هناك قانونٌ خارجيٌّ وقت هذه القصة يمنع البنات من هذا، ولكن القانون كان داخلهما؛ لقد تربّتا تربيةً ممتازةً وأبوهما رجلٌ صالح، فربّاهما تربيةً جميلةً بحيث تُمنعان أنفسهما باختيارهما من الاختلاط بالرجال منعا للمضايقة، وربما لتبادل النظرات وما أشبه ذلك. فقد كانت الفتياتُ في عملٍ ولكن بروحٍ جادّةٍ وتربيةٍ ممتازة³.

¹ القصص القرآني، المصدر نفسه، (٣٢٩/٢).

² وثقة تأمل مع موسى عليه السلام في مدين، ص ٩.

³ علمني موسى، المصدر السابق، ص ٥٠.

2. العِقةُ أساس الحوار بين الرجل والمرأة:

من مظاهر العِقة في الحوار بين الفتاتين وموسى عليه السلام:

اختصارُهُما الكلامَ، وعدمُ تطويله مع الرجل الأجنبي، وهو موسى عليه السلام، حيث قالتا: ﴿لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ [القصص: 23]، بدون أخذٍ وعطاءٍ وزيادةٍ وردٍّ. ومن عَقَّتْهُمَا عدمُ فتحِهما الحوارَ مع موسى عليه السلام لأنه أجنبيٌّ عنهما؛ حيث جمعنا في كلامِهما الجوابَ على جميع الأسئلة المحتملة، ولأجل ذلك لو فُصِّل لَطال الكلامُ بين المرأتين والرجل الأجنبي. فجمعنا في كلامِهما الإجابةَ على جميع الأسئلة المحتملة بجملةٍ واحدةٍ مختصرةٍ عفيفة.

من عِقة المرأتين تقديمُهما النفي في كلامهما، فقالتا: ﴿لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ﴾ [القصص: 23]، ولم تُقدِّما الإثبات، فلم تقولوا: سنسقي بعد قليل؛ وتقديمُ النفي أبلغ في الجزم وأنَّ الأمر لا يقبل النقاش.

من عِقة المرأتين أنَّهما جعلتا غايةً وقوفهما وعدمَ اختلاطهما بالرجال صدورَ الرعاء، أي: انصرفهم، وليس أن تخفَّ الرِّحمةُ فحسب أو يقلَّ الرعاء¹.

وأما عِقة موسى عليه السلام فأكملُ من عِقتَهما؛ فإذا كانت عِقةُ المرأتين تمثلت في كلمةٍ واحدة، فإن عِقة موسى تمثلت في كلمةٍ واحدةٍ إلى أن تمَّ لقاءهُم بأبيهما ففتَّح الكلامَ على مصراعَيْهِ: ﴿وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقِصَصَ﴾ [القصص: 25].

¹ دروس في الحوار وأدبه من قصة موسى، طاهر الريامي، ص ٤٥٤.

وعِقَّةُ موسى عليه السلام كذلك ظهرت في قيامه بالسَّقْيِ لهما بدون سؤال: هل تريدان ذلك أم لا؟ فالوضعُ وظاهرُ الحال لا يحتاجان إلى سؤال، ثم السؤالُ يحتاج إلى كلامٍ وجواب، وهذا ما لا يريدُه موسى عليه السلام، فقام وسقى لهما.

كذلك أنه لما سقى لهما توجه مباشرةً إلى الظِّلِّ ولم ينتظر شكرًا منهما؛ وهذه فرصةٌ لمرضى القلوب أن يزدادوا مرضًا ويتبادلوا أطرافَ الحديث وكلماتِ الشكر والعرفان؛ فقد صنعَ لهما معروفًا بدون طلبٍ منهما، ووقفَ معهما وسقى لهما¹.

3. قال تعالى: ﴿فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾

[القصص: 24]:

أ. ﴿فَسَقَى لَهُمَا﴾:

مَّا يشهد نُبْلَ هذه النفس التي صُنِعَتْ على عينِ الله، كما يَشِي بِقُوَّتِهِ التي تُرهب حتى وهو في إعياءِ السفر الطويل. ولعلَّها قوَّةٌ في نفسه التي أوقعت في قلوبِ الرعاةِ رهبتَه أكثر من قوَّةِ جسمه؛ فإِنَّمَا يتأثرُ الناسُ أكثر بقوَّةِ الأرواحِ والقلوبِ².

لقد شقَّ طريقَه نحو البئرِ في وسطِ الرعاةِ بقوَّةِ وثباتٍ ومهابةٍ كان يتمتَّع بها عليه السلام، وهو الغريبُ الوحيدُ المسافرُ من مكانٍ بعيد، ولم يجرؤْ أحدٌ على الاعتراض³. وهنا يخرجُ خُلُقُ إغاثَةِ الملهوفِ في شخصيَّةِ موسى عليه السلام وسرعةُ الاستجابةِ لنجدةِ المرأتين؛ فهو ما إن سألهما عن مطلوبِهما وسببِ تواجدهما بقربِ بئرِ الماءِ وانزوائيهما عن الرجال، وما إن انتهتا من الإجابة حتى

¹ دروس في الحوار وأدبه من قصة موسى، المصدر السابق، ص ٤٥٥.

² في ظلال القرآن، (٢٦٨٦/٥).

³ تفسير سورة القصص، ص ٢٥٩.

بادر بسرعة السقي لهما، وهو ما تقتضيه الفاء في قوله بعد سؤالهما: ﴿فَسَقَىٰهُمَا﴾ [القصص: 24]، رغم ما هو عليه من الإعياء والجوع بعد قطعه المسافات، هرباً من فرعون، ووجلاً من أن يتمكن منه؛ فقد زاحم على الماء حتى سقى لهما، كل ذلك رغبةً في الثواب على ما كان به من نصّب السفر¹، وهموم المطاردة الفرعونية.

ب. ﴿ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾:

﴿ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ﴾: مما يُشير إلى أنّ الأوان كان أوانَ قَيْظٍ وَحَرٍّ، وأنّ السفارة كانت في ذلك القَيْظِ وَالحَرِّ.

﴿فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾: ربّ، إنّني في الهاجرة، ربّ، إنّني فقير، ربّ، إنّني وحيد، ربّ، إنّني ضعيف، ربّ، إنّني من فضلك ومثلك وكرمك فقيرٌ محتاجٌ. ونسمع من خلال التعبير وفَرَقَةَ هذا القلب والتجائه إلى الحِمَى الآمن والرُّكن الركين والظِّلِّ الظليل، نسمع المناجاة القريبة والهمس الموحى والانعطاف الرَفِيق والاتصال العميق. إنّهُ يَأْوِي إلى الظِّلِّ المادّي بجسمه، ويَأْوِي إلى الظِّلِّ العريض الممدود، وهو ظلُّ الله الكريم المتان بروحه وقلبه: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: 24]².

وفي هذا الدعاء تجلّى حُلُقُ التواضع وصورته في شخصيّة موسى عليه السلام، وذلك باعتباره بفقره وحاجته إلى ربّه. وهذا فيه من كسر النفس وتواضع لصاحب الفضل والمنّة لله عزّ وجل، رغم ما أنعم عليه من قوّة جسديّة ونفسيّة، فإنّه لم تُطعِهِ أو تجعله يتجبرّ أو يتكبرّ. وهذا الفعل من موسى أعلى درجات التواضع والاعترافِ بِنِعَمِ الله وفضائله عليه؛ فهو لا يرى في نفسه لنفسه ما يفتح عليها أبواب الاغترار والتكبر، بل يردعها ويقمعها؛ فلا تختال ولا تميل، وذلك باعتباره بالحاجة

¹ الجانب الخلفي في قصة موسى والمرأتين، نورة بنت عبد الله، ص ٢٣٣.

² في ظلال القرآن، (٢٦٨٦/٥).

والعَوَزُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى رَغْمَ مَا مَنَحَهُ اللَّهُ مِنَ الْقُوَّةِ وَالْعُدَّةِ؛ فَقَدْ رُوي عَنْ بَعْضِ الْمَفْسِّرِينَ فِي بَيَانِ قُوَّةِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ الْجَسَدِيَّةِ أَنَّ الْبَيْرَ الَّذِي سَقَى مِنْهُ لِلْمَرَأَتَيْنِ قَدْ عُطِيَ بِحَجَرٍ لَا يَرْفَعُهُ إِلَّا عَشْرُونَ أَوْ أَرْبَعُونَ مِنَ الرِّجَالِ، وَقَدْ رَفَعَهُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ¹.

وَأَمَّا قُوَّتُهُ النَّفْسِيَّةُ، فَمَثَلَتْ فِي إِقْدَامِهِ لِلسَّقْيِ مَتَخَطِّيًا بِذَلِكَ خَوْفَهُ الْمَحِيظَ بِهِ مِنْ كَوْنِهِ غَرِيبًا وَحِيدًا مُطَارِدًا؛ فَظُهُورُهُ لِسَقْيِ الضَّعِيفَتَيْنِ فِيهِ مِنْ جَسَارَةِ الْقَلْبِ وَقُوَّتِهِ الَّتِي تَخَطَّتْ خَوْفَهُ مِنْ أَنْ يَعْرِفَهُ أَحَدٌ فَيُدْلِي بِمَكَانِهِ. وَهَاتَانِ الصُّورَتَانِ مِنَ الْقُوَّةِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ لَمْ تَجْعَلَاهُ مَتَعَالِيًا مُسْتَكْبِرًا، وَإِنَّمَا نَادَى اللَّهَ بِفَقْرِهِ وَحَاجَتِهِ إِلَيْهِ سَبْحَانَهُ حَيْثُ قَالَ: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: 24]².

وَهَذَا دَعَاءٌ بِجَوَامِعِ الْكَلِمِ: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: 24]، جَامِعَةٌ لِلشُّكْرِ وَالثَّنَاءِ وَالدُّعَاءِ. فِيهِ ثَنَاءٌ عَلَى اللَّهِ بِأَنَّهُ مُعْطِي الْخَيْرِ، ثُمَّ الشُّرُوعُ فِي الطَّلَبِ؛ لِأَنَّهُ أَقْرَبُ إِلَى الإِجَابَةِ مِنَ الدُّعَاءِ الْمَجْرَدِ. فَإِنَّ أُضِيفَ إِلَى ذَلِكَ إِخْبَارُ الْعَبْدِ بِحَالِهِ وَمَسْكَنَتِهِ وَافْتِقَارِهِ وَاعْتِرَافِهِ، كَانَ أَبْلَغَ فِي الإِجَابَةِ وَأَفْضَلَ. فَإِنَّهُ يَكُونُ قَدْ تَوَسَّلَ بِالْمَدْعُوِّ بِصِفَاتِ كَمَالِهِ وَإِحْسَانِهِ وَفَضْلِهِ، وَصَرَّحَ بِشِدَّةِ حَاجَتِهِ وَضُرُورَتِهِ وَفَقْرِهِ وَمَسْكَنَتِهِ. وَهَذَا تَضَرُّعٌ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى بِطَلْبِ جَمِيعِ الْحَوَائِجِ، فَهُوَ فَقِيرٌ لَهُ وَإِلَيْهِ، فَقَالَ عَلَى سَبِيلِ التَّضَرُّعِ: إِنِّي فَقِيرٌ وَمَحْتَاجٌ إِلَى أَيِّ خَيْرٍ يَنْزِلُ مِنْكَ، قَلَّ أَوْ كَثُرَ³.

وَيُظْهِرُ فِي الآيَةِ الْكَرِيمَةِ أَهْمِيَّةَ الدُّعَاءِ، وَلَا يُشْتَرَطُ فِي الدُّعَاءِ أَنْ يَكُونَ طَوِيلًا؛ فَلَوْ تَأَمَّلْتَ فِي هَذَا الدُّعَاءِ لَوَجَدْتَهُ مُخْتَصِرًا، يَتَكَوَّنُ مِنْ ثَمَانِي كَلِمَاتٍ، وَلَمْ يَسْتَغْنِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ عَنِ الدُّعَاءِ فِي حَيَاتِهِ، فَمِنْ ذَلِكَ:

¹ الجامع لأحكام القرآن، (٢٦٩/١٣).

² الجانب الخلفي في قصة موسى والمرأتين، ص ٢٤٣.

³ دعاء موسى في القرآن الكريم، ص ٣٣٦.

﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي﴾ [القصص: 16].

﴿رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ﴾ [القصص: 17].

﴿عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ [القصص: 22].

﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: 24].

وإن ألفاظ الدعاء السابقة بدأت كلها بـ «رَبِّ»، لما فيه من معنى الربوبية، وهو إفراد الله بأفعاله كالحلّق والمملك والتدبير ونحو ذلك. والناس فقراء إلى الله سبحانه وتعالى، وفقر الإنسان إلى ربه صفة ذاتية لا ينفك عنها، كما أنّ الغنى صفة لله تعالى. يقول سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [فاطر: 15]، وعلى المؤمن أن يتذكّر ذلك دائماً.

ولقد تبدّل الحال بموسى عليه السلام؛ حيث كان في سعة ورغد عيش بيت فرعون، ومن ثمّ أصبح فقيراً معدّماً من قوله: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: 24]. وفي قوله: ﴿مِنْ خَيْرٍ﴾؛ فهي نكرة تُفيد عموم الخير كلّ صغيره وكبيره، قليله وكثيره؛ فأيّ خيرٍ من الله، أيّاً كان نوعه، فأنا محتاج إليه¹.

ولقد توسّل موسى عليه السلام إلى الله تعالى بنوعٍ من أنواع التوسّل؛ بذكر الحاجة والفقير والتذلّل لله تعالى. فقد يكتفي الداعي بذكر حاله وشكاية حاله إلى الله تعالى عن التصريح بذكر الحاجة، والله عالم الخفيات².

¹ وقفة تأمل مع موسى عليه السلام في مدين، ص ١٣.

² المصدر نفسه، ص ١٤.

وما نكأ نستغرق مع موسى عليه السلام في مشهد المناجاة حتى يُعجّل السياق بمشهد الفرج، مُعقِّبًا في التعبير بالفاء؛ فالله عزّ وجلّ استجاب للقلبِ الضارعِ الغريب¹.

4. قال تعالى: ﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقِصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾
[الفصص: 25].

أجيب دعوة موسى عليه السلام؛ فبينما هو لا يزال جالسًا تحت الشجرة التي دعا في ظلّها، إذ بإحدى البنتين تعودُ إليه. ولم يُفتِ النصّ القرآنيّ - وهو الذي يطوي التفصيلات - أن يذكر أنّها جاءت تمشي على استحياء؛ وإتّما ذكره القرآنُ لما لهذا الخلق من أهميّة، وخاصّةً إذا اتّصفت به من فُطِرَت عليه، أعني النساء.

أ. ﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ﴾:

وفي هذه الآية دلائلٌ على أهميّة هذه الفضيلة وعلوّ مكانتها؛ منها: التصريح بالصفة في قوله: ﴿عَلَى اسْتِحْيَاءٍ﴾، وأيضًا صيغة المبالغة؛ إذ إنّ «الاستحياء» مبالغةٌ في «الحياء». كما أنّ لفظَ ﴿فَجَاءَتْهُ﴾ يُعني عن قول «تمشي»، ولكن جاء به ليُبنى عليه قوله: ﴿عَلَى اسْتِحْيَاءٍ﴾ ليصفَ هيئةً الجيئة وما عندها من الاستحياء التام، بالإضافة إلى ما يدلُّ عليه حرفُ ﴿عَلَى﴾ من الاستعلاء لتمكُّنها من الوصف².

وقد ذكر المفسّرون في معنى قوله: ﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ﴾ أنّها إحدى المرأتين اللتين سقى لهما موسى عليه السلام؛ جاءت تمشي على استحياء منه، وقد سترت وجهها بثوبها

¹ في ظلال القرآن، (٥/٢٦٨٦).

² الجامع الصحيح للبخاري، ك الأدب، رقم ٦١١٧.

- قال بذلك عمرُ بن الخطاب - والحياءُ مشتقٌّ من الحياة، ومرتبٌ بها ارتباطاً وثيقاً؛ فكَلَّمَا اتَّصَفَ الإنسانُ بالحياة الطيبة تعمَّق فيه حُلُقُ الحياء، وإذا ضعف اتَّصافُه بالحياة الطيبة ضعف عنده الحياء. فالحياءُ حُلُقٌ حميدٌ مطلوب، وهو شعبةٌ أصيلةٌ من شُعب الإيمان، ويُمدَّحُ الإنسانُ المسلمُ المتَّصِفُ به. قال النبي ﷺ: «الحياءُ لا يأتي إلا بخير»¹. وهو يدعو صاحبه إلى ترك الرذائل والتحلي بالمكارم والفضائل. ومَن فَقَدَ التَحَرُّجَ والتجُمُّلَ وصار عبداً لهواه وشهوته، وصار يفعل ما يحلو له دون حياءٍ أو تحرُّج: إذا لم تستحِ فاصنع ما شئت.

والهمزة والسين والتاء في الآية: ﴿تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ﴾ للتأكيد؛ أي إنَّ الحياءَ تعمَّق في مشاعرها وأحاسيسها وكيانها ووجدانها، وملاً عليها وجودها وهي في طريقها إلى موسى، وتؤكد العبارة تمكُّن الحياء منها وتُصوِّرُ هذا تصويراً حياً: ﴿تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ﴾، وكأنَّ هذا الحياءَ ليس حالةً نفسيةً شعوريةً، وإنما هو طريقٌ مادِّيٌّ معبَّدٌ ملموسٌ محسوس، طريقٌ تمشي عليه هذه الفتاة الحبيبة مشياً، وتطوِّه بقدميها الحبيبتين وطناً.

ولنتصوِّرُ درجةً ومستوى حياؤها وتحرُّجها وارتباكها وارتفاع نبضها وتسارع دقات قلبها واضطراب مشاعرها وخفوت صوتها وهي قادمة إلى موسى؛ تمشي له استحياءً².

ولقد أجمَعَ القرآنُ المرأةَ التي جاءت موسى فقال: ﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا...﴾، لكنَّ الرسولَ ﷺ حدَّدها بأخت الصغرى؛ عن أبي ذرِّ الغفاري رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إِذَا سُئِلَتْ: أَيُّ الْأَجْلِينَ قَضَى مُوسَى؟ فَقُلْ: خَيْرُهُمَا وَأَتْمَهُمَا وَأَبْرَهُمَا. وَإِذَا سُئِلَتْ: أَيُّ الْمَرَاتِينِ تَزَوَّجَ؟ فَقُلْ: الصَّغْرَى مِنْهُمَا، وَهِيَ الَّتِي جَاءَتْ فَقَالَتْ: يَا أَبْتَ اسْتَأْجِرْهُ، إِنَّ خَيْرَ مَنْ اسْتَأْجَرَ الْقَوِيَّ الْأَمِينُ.

¹ الجامع الصحيح للبخاري، ك الأدب، رقم ٦١١٧.

² القصص القرآني، (٣٣٣/٢).

قيل: وما رأيت من قوته؟ قالت: أخذ حجراً ثقيلاً فألقاه في البئر. قيل: وما الذي رأيت من أمانته؟ قالت: قال: امشي خلفي ولا تمشي أمامي»¹. وكانت الأخت الصغرى إذن، أمّا اسمها فهو من المبهمات التي لم يُبينها رسولُ الله ﷺ².

ب. ﴿قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾:

كانت حذرةً ذكيةً في انتقاء كلامها وهي تُبلِّغ رسالتها لموسى عليه السلام؛ فالذي يدعوه إلى البيت هو أبوها وليس هي، منعاً للشبهة أو الريبة. فلم تقل له: «تعال معي إلى البيت»، وإنما قالت: إنَّ أبي يدعوك. ثم بيّنت له سبب دعوة أبيها ليعرف ذلك؛ وهو أنَّ أباه يريد أن يُجزّيه ويكافئه مقابل إحسانه إليهما لما سقى لهما الغنم؛ ليُجزّيه أجر ما سقى لهما.

ولما بلّغته الرسالة، وخاطبته بهذه الجملة المختصرة المفيدة، شعرت بالراحة؛ إذ استراحت من الحمل الثقيل، وهو مخاطبة الرجل الغريب. والملاحظ أنَّه لم يجر حديثاً مطوّلاً بينهما، ولم يزد على كلامها بكلام؛ وإنما قام وذهب معها. ويبدو أنَّها سارت أمامه لتدله على الطريق إلى البيت، ولكن موسى لم يرتض ذلك؛ فقال لها: «امشي خلفي ولا تمشي أمامي». وهذا تصرف أخلاقي حكيم من موسى عليه السلام؛ فلو سارت أمامه فقد ينكشف بعض أجزاء بدنّها بسبب الريح أو المشي، وقد تتجسّم بعض أجزاء جسمها وهي تسير، وقد يرى موسى ذلك منها، وهو لا يحب أن يرى ذلك لعظم أخلاقه وصفاء روحه وطهارة نفسه ومشاعره؛ ولهذا طلب منها أن تمشي خلفه، وسار هو أمامها، وكانت تُرشده إلى الطريق وتوجّهه وهي خلفه³.

¹ أخرجه الطبراني في الصغير والكبير، اسناده حسن، الأحاديث الصحيحة، رقم ١١٨.

² القصص القرآني، (٣٣٥/٢).

³ القصص القرآني، (٣٣٦/٢).

ج. ﴿فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقِصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾:

وصلا البيت، واستقبل الشيخ الكبير الكريم موسى الشهم القوي الأمين، وأنس موسى إليه، وشعر بالأمن والاطمئنان، وعرفه على نفسه وعلى قصته، فطمأنه الرجل وهنأه بالنجاة. وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقِصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: 25]: قص موسى عليه السلام على الرجل قصته منذ ولادته إلى نشأته في قصر فرعون، وقتله للقبطي، وأمر فرعون بالقبض عليه وقتله، وخروجه من مصر وتوجهه إلى مدين، ووصوله إليها. وأعجب الشيخ الكبير المؤمن بقصة موسى المثيرة، ولاحظ فيها رعاية الله وحفظه له، وأحب موسى لإيمانه وأمانته وشهامته، ودعا إلى الشعور بالأمان وعدم الخوف، وقال له: ﴿لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: 25].

والقوم الظالمون هم فرعون وآله وجنوده الجادون في البحث عن موسى عليه السلام لقتله؛ وكأن الرجل يريد أن يبين لموسى أنه لا سلطان لفرعون عليه، ولا نفوذ لمصر على مدين في تلك الفترة؛ وكأن «مدين» كانت مستقلة عن مصر وقتها وغير خاضعة لها. فموسى آوى إلى مدين وتحرر من الخطر الفرعوني، وشعر بالأمان والاطمئنان عند هذا الشيخ المؤمن، وزال عنه الخوف والغم¹.

وهذا تقدير الله وتدبيره؛ فهو الذي ساق موسى إلى مدين وهداه إليها، وقدّر له الوصول إلى بيت هذا الشيخ الكبير صاحب الإحسان وإكرام الضيفان وحسن اللياقة والأخلاق. وقد كان موسى عليه السلام في حاجة إلى الأمن، كما كان في حاجة إلى الطعام والشراب؛ ولكن حاجة نفسه إلى الأمن كانت أشد من حاجة جسمه إلى الزاد. ومن ثم أبرز السياق في مشهد اللقاء قول الشيخ الوقور: ﴿لَا تَخَفْ﴾؛ فجعلها أول لفظ يُعْرَسُه على قصته ليلقي في قلبه الطمأنينة ويشعره بالأمان،

¹ القصص القرآني، (٢/٣٣٧).

ثم بيّن وعلل: ﴿لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: 25]؛ فلا سلطان لهم على مدين، ولا يصلون من فيها بأذى ولا ضرار¹.

د. الراجح أنّ هذا الرجل ليس شعيباً (عليه السلام):

نحاول أن نتعرّف على هويّة هذا الرجل الصالح صاحب مدين وأبي المرأتين: من هو؟ فقد اختلف المفسّرون والمؤرّخون فيه، وقد أورد ابن كثير في التفسير أهمّ أقوالهم في ذلك:

قال بعضهم: هو شعيب النبي عليه الصلاة والسلام الذي بعثه الله نبياً إلى أهل مدين، وهذا هو المشهور عند كثير من العلماء، وهو قول الحسن البصري وغيره. وقال آخرون: لم يكن شعيباً عليه السلام، وإمّا هو ابن أخيه، وكان رجلاً مؤمناً صالحاً. وقال آخرون: هو رجل مؤمن من أهل مدين، لا نعرف اسمه.

وإنّ الراجح هو القول الرابع - والله أعلم - فلم يُبيّن القرآن اسمه، ولم يصحّ حديث واحد مرفوع عن رسول الله ﷺ في تعيينه؛ ولو صحّ حديثٌ منها لقلنا به. والراجح أنّه ليس شعيباً عليه السلام؛ لأنّ شعيباً عليه السلام كان قبل موسى بمدّة زمنيّة طويلة؛ فمن خلال قصة لوطٍ وشعيبٍ عليهما السلام في القرآن، كان قوم لوطٍ وقوم مدين متقاربين من حيث الزمان والمكان، وكان دمار قوم لوطٍ قبل دمار قوم مدين، وذكرهم شعيبٌ عليه السلام بما حلّ بقوم لوطٍ من دمارٍ منذ عهدٍ قريب، وأنّ الحادثة ما زالت قريبةً إلى أذهانهم؛ فقال لهم: ﴿وَمَا قَوْمٌ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ﴾ [هود: 89]. وما أنّ هلاك قوم لوطٍ كان في زمن إبراهيم عليه السلام، فقد كان هلاك قوم مدين قريباً من عهد إبراهيم.

¹ في ظلال القرآن، المرجع السابق، (٢٦٨٧/٥).

وبين إبراهيم وموسى عليهما السلام فترةً زمنيةً طويلةً تمتدُّ لعدّة قرون؛ فبينهما كلٌّ من إسحاق ويعقوب ويوسف عليهم الصلاة والسلام، وبين يوسف وموسى عليهما السلام مدةً طويلة، وقد قدّر بعضُ المؤرّخين الفترةَ بين إبراهيم وموسى بأنّها أربعة قرون¹. وهذا رأيُ ابنِ كثيرٍ والسعديّ والخالديّ وغيرهم، وإليه أميل.

والذي يحملُ على هذا الترجيح أنّ هذا الرجلَ شيخٌ كبيرٌ، وشعيبًا شهد مَهْلَكَ قومه المكدّيين له، ولم يَبْقَ معه إلاّ المؤمنون؛ فلو كان هو النبيّ شعيبًا، وبين بقيّة قومه المؤمنين، ما سَقَوْا قبل بنّي نبيّهم الشيخَ الكبير؛ فليس هذا سلوكُ قومٍ مؤمنين، ولا معاملتهم لنبيّهم وبناته من أوّل جيل.

ويُضاف إلى هذا أنّ القرآن لم يذكر شيئًا عن تعليمه لموسى صهره؛ ولو كان شعيبًا النبيّ لسمعنا صوتَ النبوة في شيءٍ من هذا مع موسى، وقد عاش معه عشرَ سنوات².

والخلاصة: أنّ الرجلَ الذي أكرم موسى عليه السلام كان رجلًا مؤمنًا صالحًا من قومِ مدين، عاش بعد النبيّ شعيبٍ عليه السلام بعدة قرون، وهو مبهمٌ من مبهمات القرآن؛ لا نحاولُ تبيينَ اسمه لعدم وجود أدلّةٍ على ذلك من الأحاديث الصحيحة.

أكرم الرجلُ الصالحُ موسى عليه السلام وكافأه، وشعر موسى عنده بالأمان والاطمئنان، وحصل أنسٌ وارتياحٌ بين الرجلين. ولعلّ الرجلَ الصالحَ تفرّسَ في موسى خيرًا، واستقبل له مستقبلًا إيجابيًا، وعلم أنّ الله يحفظه ويرعاه ويحميه³.

¹ القصص القرآني، (٣٣٨/٢).

² في ظلال القرآن، (٢٦٨٧/٥).

³ القصص القرآني، (٣٣٩/٢).

5. قال تعالى: ﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴿٢٦﴾
 قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِي حِجَجٍ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا
 فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَلِكَ
 بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾
 [الفصص: 26-28].

تفسير الآيات الكريمة:

1. قوله تعالى: ﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾
 [الفصص: 26]:

﴿يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ﴾: يُوحى لفظ الآية كأنَّ الفتاة تستعطف أباهَا وترجوه أن يعرض على موسى عليه السلام أن يعمل لديهم؛ فهي فرصة لا يمكن تعويضها لِمَا رأت من خيره ونفعه، وأنه يخفف عنهم الأعمال الثقيلة التي كانت تقوم بها وأختها، فسينقل هذا كله إلى موسى عليه السلام. وقولها: ﴿يَا أَبَتِ﴾: تَلَطَّفُ في الطرح وتَأدُّبٌ في العرض؛ فنادت والدها بلفظٍ قريبٍ إلى القلب مُجَبِّبٍ إلى النفس¹.

﴿اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾: طلبت من أبيها أن يستأجر موسى ويوظفه أجيرًا ليرعى الغنم، وذلك ليتكفل برعاية الغنم نيابةً عنهما. وفي طلبها إشارةً إلى أنَّ الأختين إنما رَعَتَا الغنمَ من باب الضَّرورة لعدم وجود مَنْ يقوم بذلك من الرجال، أمَّا وقد تيسَّر الآن هذا الرجل، فليُقم هو برعي الغنم بدلاً منهما؛ ولهذا سارعت البنْتُ بالإشارة على أبيها بذلك، وقد بررت طلبها بالقول:

¹ وقفة التأمل مع موسى عليه السلام في مدين، ص ٢٠.

﴿إِنَّ خَيْرَ مَنْ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾؛ فوصفت موسى عليه السلام بأنه قوياً أميناً¹.

وقد قالت ذلك من غير تلعثم ولا اضطراب؛ لأنها كانت تعلم أنّ أباهما يبحث عن أجيرٍ يثق بأمانته وحفظه وقوته.

ودلّ قولها على رجاحة عقلها؛ فأفضل ما ينبغي أن يتّصف به العاملُ المستأجر: القدرة على أداء العمل المستأجر له، والأمانة التي تحمله على الإخلاص في عمله، وحفظ ما يُؤتمن عليه من مال ربّ العمل. كما دلّ قولها أيضاً على سرعة فطنتها وقوة ملاحظتها وحسن فراستها؛ فقد عرفت قوته عندما سقى لهما بمفرده مع أنّه كان في غاية الإجهاد والجوع، وعرفت أمانته ومروءته عندما لاحظت عفته؛ فقد سار معها إلى بيت أبيها من غير أن يرفع طرفه إليها، وهو أمرٌ على خلاف ما هو معهودٌ من الرجال عندما يلقون النساء².

قال ابن مسعود (رضي الله عنه): أفرسُ الناس ثلاثة: صاحبُ يوسف حين قال: ﴿أَكْرَمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا﴾، وصاحبةُ موسى حين قالت: ﴿يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنْ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾، وأبو بكر حين استخلف عمرَ بن الخطاب رضي الله عنهما³.

وأعجب الرجل الصالح بمشورة ابنته ورأيها، فأخذ به، وعرض على موسى العمل عنده، وعرض عليه أيضاً أن يزوجه إحدى ابنتيه؛ ممّا يدلّ على ثقته بابنته وصلاحتها، وثقته أيضاً بموسى عليه السلام.

¹ القصص القرآني، (٣٤٠/٢).

² التفسير الموضوعي، عبد الحميد طهماز، (٣١٢/٦).

³ قصص الأنبياء، لابن كثير، ص ٢٧٦.

ودلت الآية على جواز الأخذ برأي المرأة ولو كانت فتاةً في ربيعان شبابها وربع حياتها؛ فقد تنفطن المرأة إلى ما لا يتفطن له الرجل، وقد يجعل الله في رأيها خيراً كثيراً أو يدفع به شراً خطيراً؛ ولهذا كان رسول الله ﷺ يستشير أحياناً أمهات المؤمنين ويأخذ رأيهن فيما يعرض له.¹

وفي قوله تعالى: ﴿اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾؛ لخصت بنت الرجل الصالح مواصفات القيادة والشخصيات الإدارية، وليس فقط من يصلح للاستئجار للرعي؛ فالقوة والأمانة هنا هي المعادل للحفاظ والعلم في قصة جد موسى عليه السلام الأعلى يوسف عليه السلام حين طرح هو مواصفات القائد إذ قال: ﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلَيْكُمْ﴾؛ ف«حفيظ» تُعادل «الأمين»، و«عليهم» تُوازي القوي.

ومواصفات المسؤول - سواءً أكان راعي غنم أم قائداً من قادة الأمم - ينبغي أن تتجلى برفيع الخصال والصفات والشيم والشهامة؛ كي تتسم المجموعة التي يقودها بالدرى والقيم، وتُفْلِح وتنعَم وتسلم وتُسعد وتُهنا وتنعَم، وتشتد منها العزائم وتقوى الهِمَم.²

2. قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِي حِجَّاجٍ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [القصص: 27].

يبدو أنّ الرجل الصالح اقتنع بموسى عليه السلام وأحبّه؛ وموسى عليه السلام يُحبّ لشكله ولرُوحه ولرجولته ومروءته وشهامته وتواضعه وأخلاقه. فعرض على موسى عليه السلام - ببساطةٍ وصراحةٍ

¹ التفسير الموضوعي، طهماز، (٣١٢/٦).

² تفسير سورة القصص، ص ٢٦٤.

- إحدى ابنتيه، من غير تحديدٍ ولا تحرّجٍ ولا التواء؛ فهو يعرض نكاحًا لا يُحجّل، يعرض بناء أسرة وإقامة بيت، وليس في هذا ما يُحجّل ويدعو إلى التحرّج والتردد والإيماء من بعيد¹.

ولقد كان الآباء يعرضون بناهم على الرجال في عهد رسول الله ﷺ، بل كانت النساء يعرضن أنفسهن على النبي ﷺ أو على من يرغب في تزويجهنّ منهم، وكان يتم هذا بصراحةٍ وأدبٍ وحُلقٍ رفيعٍ لا تُحْدش معه كرامةٌ ولا حياء. إذ عرض عمرُ الفاروق (رضي الله عنه) ابنته حفصةً على أبي بكر فسكت، وعلى عثمان فاعتذر، فلما أخبر النبي ﷺ بذلك طيَّب خاطرَه؛ فعسى أن يجعل الله لها نصيبًا فيمن هو خيرٌ منهما، فتزوجها ﷺ. وعرضت امرأةٌ نفسها على رسول الله ﷺ فاعتذر لها، فألقت إليه ولايةً أمرها يُزوجها من يشاء؛ فزوجها رجلًا لا يملك إلا سورتين من القرآن، فهو علّمها تلك السورتين فكانتا صداقًا لها. وعلى تلك البساطة والوضاءة كان أبناء المجتمع الإسلامي بينون بيوتهم ويُشيّدون صرح الأمة من غير تلعثمٍ ولا تصنع. وهكذا صنع الشيخ الكبير - صاحب موسى عليه السلام - فعرض على موسى ذلك العرض². ﴿قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ﴾: أي أزوّجك إحدى ابنتي هاتين.

وفي هذا أدبٌ رفيعٌ من العارضِ والمعروضِ عليه. وفي مجتمعاتنا كثيرٌ من الشباب والفتيات ينتظرون هذا الخلق الكريم، وهذا التشجيع من أولياء أمور البنات. ألا ترى أن الله أباح لنا أن نُعرِّضَ بالزواج لمن تُوفِّي عنها زوجها؟ قال تعالى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ﴾ [البقرة: 235]، ولا تحفى علينا عباراتُ التلويح التي تلفت نظر المرأة للزواج.

¹ في ظلال القرآن، (٢٦٨٨/٥).

² المصدر السابق، (٢٦٨٨/٥).

وقوله: ﴿عَلَىٰ أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِي حِجْحٍ﴾: أي تكون أجيراً عندي ثماني سنوات؛ وهذا مهز الفتاة. أراد أن يُعَلِّي من قيمة ابنته حتى لا يقول زوجها إنها رخيصة، أو أنّ أباهما رماها عليه.

﴿فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾: يعني: حينما تُعاشرنِي ستجدني طيبَ المعاملة، وستعلم أنّك موفّق في هذا النَّسب، بل وستزيد المحبّة في البقاء معنا. فأجاب موسى: ﴿قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ﴾ أي أنا بالخيار: أقضي ثمانية أم عشرة، ﴿فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ﴾.

﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾: فهو الشهيد الموكّل بالعدل بين المتعاقدين، وكفى بالله وكيلاً¹، والله على ما أوجب كلُّ واحدٍ منا لصاحبه على نفسه بهذا القول شهيدٌ وحفيظ².

بيّن موسى عليه السّلام هذا البيان تمثيلاً مع استقامة فطرته ووضوح شخصيته، وهو ينوي أن يُؤيِّ بأفضل الأجلين³. والدليل على أنّ موسى عمل عند صهره عشر سنين ما رواه البخاري عن سعيد بن جبير رضي الله عنه قال: سألتني يهوديٌّ من أهل الخبرة: أيُّ الأجلين قضى موسى؟ فقال جبريل: أكملهما وأتمهما⁴.

إنّ طبيعة موسى عليه السّلام القائمة على الشهامة والمروءة والكرم والأريحية لا تقبل إلا الكرم والفضل؛ ولهذا لم يكتفِ بالمطلوب منه، وإمّا زاد السنّتين الآخرين فضلاً وكرماً⁵. ويعتقد بعض الباحثين أنّ موسى عليه السّلام تزوّج التي ذهبت إليه تدعوه لأبيها ثم حتّت أباهما على استتجاره

¹ في ظلال القرآن، (٢٦٨٩/٥).

² جامع البيان للطبري، (٦٥/٢٠-٦٦).

³ في ظلال القرآن، (٢٦٨٩/٥).

⁴ الأحاديث الصحيحة للألباني، رقم ١٨٦.

⁵ القصص القرآني، (٣٤٦/٢).

بعد ذلك؛ ليكشف السياق القرآني عن لونٍ من ألوان الإعجاب الرّاقبي الذي يجيش بنفسها تجاهه¹. وانتهت معاناة الفتاتين وقلق الوالد وترقبه لهما. إنّ في هجرة موسى عليه السّلام إلى مدين، وعمله عند الشيخ، ومقامه لديه طوال هذه السنين، مرحلة إعدادٍ روحي عميق².

لقد هيأ الله لموسى عليه السّلام الإقامة في مدين بحكمته وتديره سبحانه وتعالى، لينتقل بعد ذلك لمرحلةٍ أخرى قدرها الله له. وهكذا تمّ الاتفاق بين موسى وبين الرجل الكبير، وتزوج موسى ابنته الصغرى، وعمل المدة المتفق عليها بينهما. وقد فعل الله الحكيم ذلك بموسى؛ لأنّه يُعدّه لمهمة كبيرة سيجعله نبياً رسولاً ويبعثه إلى فرعون وينقذ بني إسرائيل. وهذه المهمة لا بُدّ أن تسبقها فترة تهيئة وإعداد؛ فكانت السنين العشر في مدين³.

6. من تدابير الله لموسى (عليه السّلام) في السنين العشر:

نقلت يد القدرة الإلهية حُطى موسى عليه السّلام خطوةً خطوة؛ منذ كان رضيعاً في المهدي، إلى المرحلة التي أُلقي فيها في اليمّ ليلتقطه آل فرعون، وألقت عليه المحبة في قلب امرأته لينشأ في كنف عدوّه. ودخلت به المدينة على حين غفلةٍ من أهلها ليقتل منهم نفساً، وأرسلت إليه بالرجل المؤمن من آل فرعون ليحدّره وينصحه بالخروج منها، وصاحبته في الطريق الصحراويّ من مصر إلى مدين وهو وحيدٌ مُطارّدٌ من غير زادٍ ولا استعداد، وجمعه بالشيخ الكبير ليؤجره هذه السنين العشر، ثم يعود بعدها فيتلقى التكليف. هذا خطٌّ طويلٌ من الرعاية والتوجيه ومن التلقّي والتجريب قبل النداء وقبل التكليف: تجربة الرعاية والحبّ والدلال، وتجربة الاندفاع تحت ضغط الغيظ الحبيس، وتجربة الندم والتحرّج والاستغفار، وتجربة الخوف والمطاردة والفرع، وتجربة الغربة والوحدة والجوع، وتجربة

¹ المرأة في القصص القرآني، ص ١٠٣.

² المصدر السابق، ص ١٠٤.

³ القصص القرآني، (٣٤٦/٢).

الخدمة ورعي الغنم بعد حياة القصور، وما يتخلل هذه التجارب الضخمة من شتى التجارب الصغيرة والمشاعر المتباينة والخوارج والخواطر، والإدراك والمعرفة، هذا إلى جانب ما آتاه الله - حين بلغ أشده - من العلم والحكمة.

إن الرسالة تكليفٌ ضخمٌ شاقٌ متعدّد الجوانب والتبعات، يحتاج صاحبه إلى زادٍ ضخمٍ من التجارب والإدراك والمعرفة والتذوق في واقع الحياة العملي، إلى جانب هبة الله اللدنيّة ووجيهه وتوجيهه للقلب والضمير¹.

ورسالة موسى عليه السلام بالذات قد تكون أضخم تكليفٍ تلقاه بشر - عدا رسالة محمد ﷺ، فهو مُرسَلٌ إلى فرعون الطاغية المتجبر؛ وكان أعنى ملوك الأرض في زمانه، وأقدمهم عرشاً، وأثبتهم مُلكاً، وأعرقهم حضارةً، وأشدّهم تعبداً للخلق واستعلاءً في الأرض.

وهو مُرسَلٌ لاستنقاذ قومٍ قد شربوا من كؤوس الذلّ حتى استمرؤوا مذاقه؛ فمردوا عليه واستكانوا دهرًا طويلاً، والذلُّ يُفسد الفطرة البشريّة حتى تأسن وتتعفن ويذهب ما فيها من الخير والجمال والتطلع، ومن الاشتمزاز من العفن والنّتن والرّجس والدّنس؛ فاستنقاذ قوم كهؤلاء عملٌ شاقٌ عسير. وهو مُرسَلٌ إلى قومٍ لهم عقيدةٌ قديمة، انحرفوا عنها وفسدت صورتها في قلوبهم؛ فلا هي قلوبٌ خامةٌ تتقبل العقيدة الجديدة ببراءة وسلامة، ولا هي باقيةٌ على عقيدتها القديمة؛ ومعالجة مثل هذه القلوب شاقّةٌ عسيرة، والالتواءات فيها والرواسب تزيد المهمة مشقّةً وعسراً.

وهو - في اختصار - مُرسَلٌ لإعادة بناء أمة، بل لإنشائها من الأساس؛ فلاول مرّة يصبح بنو إسرائيل شعباً مستقلاً له حياةٌ خاصّةٌ تحكّمها رسالة، وإنشاء الأمم عملٌ ضخمٌ شاقٌ عسير².

¹ في ظلال القرآن، (٢٦٩٠/٥).

² في ظلال القرآن، (٢٦٩٠/٥).

ولعلّه لهذا المعنى كانت عناية القرآن الكريم بهذه القصة؛ فهي نموذجٌ كاملٌ لبناء أُمَّةٍ على أساس دعوة، وما يعترض هذا العمل من عقباتٍ داخليةٍ وخارجيةٍ، وما يعتربه من انحرافاتٍ وانطباعاتٍ وتجاربٍ وعراقيلٍ.

جاءت تجربةُ السنين العشر لتفصل بين حياة القصور التي نشأ فيها موسى -عليه السلام- وحياة الجهد الشاقِّ في الدعوة وتكاليفها العسيرة؛ فإنَّ لحياة القصور جوًّا خاصًّا وتقاليدها خاصَّةً وظلالاً خاصَّةً تُلقِيها على النفس وتُطبعها بها، مهما تَكُنَّ النفس من المعرفة والإدراك والشفافية. وإنَّ الرسالةَ مُعانةً لجماهير من الناس: فيهم الغنيُّ والفقير، والواجدُ والمحروم، وفيهم النظيفُ والوسخ، والمهدَّبُ والحشِن، وفيهم الطيبُ والحبيث، والخيرُ والشرير، والقويُّ والضعيف، والصابرُ والجزوع... وفيهم وفيهم.

وإنَّ للفقراء عاداتٍ خاصَّةً في أكلهم وشربهم ولبسهم ومشيتهم وطريقة فهمهم للأمر، وطريقة تصوُّرهم للحياة، وطريقة حركتهم وحديثهم، وطريقة تعبيرهم عن مشاعرهم. وهذه العادات تُثقل على نفوس المنعمين ومشاعر الذين تربوا في القصور؛ ولا يكادون يُطيقون رؤيتها فضلاً عن مُعاناتها وعلاجها، مهما تَكُنَّ قلوبُ هؤلاء الفقراء عامرةً بالخير، مُستعدةً للصلاح؛ لأنَّ مظهرهم وطبيعة عاداتهم لا تُفسح لهم في قلوب أهل القصور، كما أنَّ للرسالة تكاليفها من المشقة والتجرُّد والشَّطَف أحياناً.

وقلوبُ أهل القصور - مهما تَكُنَّ مُستعدةً للتضحية بما اعتادته من الترفِّ والدعة والمتعة - لا تصبر طويلاً على الحشونة والحرمان والمشقة عند مُعاناتها في واقع الحياة.

لذلك شاءت القدرة التي تُثقل حُطى موسى عليه السلام أن تُخفف ممَّا اعتادته نفسه من تلك الحياة، وأن تزيِّج به في مجتمع الرعاة، وأن يجعله يستشعر النعمة في أن تكون مهنته رعي الغنم ليجد

القوتَ والمأوى بعد أيام الخوف والمطاردة والمشقة والجوع؛ وبالتالي تنزع من حِسِّه روحَ الاشمزاز من الفقراء، وروحَ التأفف من عاداتهم وأخلاقهم وخشونتهم وسذاجتهم، وروحَ الاستعلاء على جهلهم وفقيرهم وورثاة هيتتهم ومجموعة عاداتهم وتقاليدهم، وأن تُلقِيَ به في خِضَمِّ الحياة كَبِيرًا - بعدما ألقته في خِضَمِّ الأمواج صغيرًا - ليتمرن على تكاليف دعوته قبل أن يتلقاها¹.

فلما استكملت نفسُ موسى (عليه السَّلام) تجاربها، وأكملت مُرانتها ودُرْبَتها بهذه التجربة الأخيرة في دارِ العُربة، قادت يدُ القدرة حُطاه مرَّةً أخرى عائدةً به إلى مَهبطِ رأسه ومقرِّ أهله وقومه ومجال رسالته وعمِّله، سالكةً به الطريقَ التي سلكها أوَّلَ مرَّةٍ وحيدًا طريدًا خائفًا يَلْتَفِت. فما هذه الجِيئةُ والذهابُ في ذات الطريق؟ إنَّها التدريبُ والمِرانةُ والحِيرةُ - حتى بشعاب الطريق - الذي سيقود فيه موسى حُطى قومه بأمر ربِّه؛ كي يَسْتَكْمَلَ صفات الرائد وخبرته، حتى لا يعتمدَ على غيره ولو في زيادة الطريق؛ فقومه كانوا في حاجةٍ إلى رائدٍ يقودهم في الصغيرة والكبيرة، بعد أن أفسدَهُم الدُّلُّ والقسوةُ والتَّسخيرُ حتى فقدوا القدرةَ على التدبير والتفكير. وهكذا تُدرك كيف صُنِعَ موسى على عين الله، وكيف أعدَّته القدرةُ لتلقِّي التكليف؛ فلنَّبَعِ حُطى موسى تُنْقِلها يدُ القدرةِ الكبرى في طريقه إلى هذا التكليف².

خامساً: ما علاقةُ مدينِ بأصحابِ الأيكة؟

جاء في البداية والنهاية في تفسير قوله (عزَّ وجلَّ): ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ﴾: كانت «بَثْرًا» يستقون منها، ومدين هي المدينة التي أهلك الله فيها أصحابِ الأيكة، وهم قومُ شعيبِ (عليه السَّلام)، وقد كان هلاكهم قبل زمنِ موسى (عليه السَّلام) في أحد قولي العلماء.

¹ في ظلال القرآن، (٥/٢٦٩١).

² المصدر نفسه، (٥/٢٦٩١).

وأضاف ابن كثير في كتابه: إنّ من زعم من المفسّرين - كقتادة وغيره - أنّ أصحاب الأيكة أُمَّةٌ أخرى غير أهلِ مدين، فقلوه ضعيف؛ وإنّما عمدتهم شيئان: أحدهما أنّه قال: «كذب أصحاب الأيكة المرسلين إذ قال لهم شعيب»¹، ولم يقل: «أخوهم»، كما قال: «وإلى مدين أخاهم شعيباً». والثاني أنّه ذكر عذابهم بيوم الظلّة، ودكّر في أولئك الرّجفة أو الصّيحة. والجواب عن الأوّل أنّه لم يذكر الأخوة بعد قوله: «كذب أصحاب الأيكة المرسلين»؛ لأنّه وصفهم بعبادة الأيكة، فلا يُناسِبُ ذكر الأخوة هاهنا²، ولما نسبهم إلى القبيلة شاع ذكر شعيبٍ بأنّه أخوهم، وهذا الفرق من النَّفائس اللطيفة العزيزة الشريفة³. وأمّا احتجاجهم بيوم الظلّة فإن كان دليلاً بمجرّده على أنّ هؤلاء أُمَّةٌ أخرى، فليكن تعدادُ الانتقام بالرّجفة والصّيحة دليلاً على أنّهما أُمَّتان أخريان! وهذا لا يقوله أحدٌ يفهم شيئاً من هذا الشأن. فأما الحديثُ الذي أورده الحافظُ ابنُ عساكر عن عبدِ الله بن عمرو مرفوعاً: «إنّ مدين وأصحاب الأيكة أُمَّتان بعثَ اللهُ إليهما شعيباً النبيّ (عليه السّلام)»؛ فإنّه حديثٌ غريب⁴، وفي رجاله من تُكَلِّم فيه، والأشبه أنّه من كلامِ عبدِ الله بن عمرو ممّا أصابه يوم اليرموك من تلك الزاملتين من أخبارِ بني إسرائيل. ثم قد ذكر اللهُ عن أهلِ الأيكة من المذمّة ما ذكره عن أهلِ مدين من التّطيف في المكيال والميزان؛ فدلّ على أنّهم أُمَّةٌ واحدةٌ أهلِكوا بأنواعٍ من العذاب، وذكر في كلّ موضعٍ ما يُناسِبُ من الخطاب⁵.

كما جاء في تفسير ابن كثير: أصحاب الأيكة هم أهلُ مدين على الصحيح. وقد ظنّ بعضهم أنّ أصحاب الأيكة غيرُ أهلِ مدين، فزعم أنّ شعيباً (عليه السّلام) بعثه اللهُ إلى أُمَّتين، ومنهم من قال:

¹ لبداية والنهاية، (1/189-190).

² تفسير ابن كثير، (2/346).

³ معجم ما استعجم، (1/215-216).

⁴ أضواء البيان، الشنقيطي، (6/95).

⁵ أضواء البيان، الشنقيطي، (6/96).

ثلاث أمم؛ وقد رُوي إسحاق بن بشر الكاهلي - وهو ضعيف - عن عكرمة قالاً: ما بعث الله نبياً مرتين إلا شعيباً: مرةً إلى مدين فأخذهم الله بالصيحة، ومرةً إلى أصحاب الأيكة فأخذهم الله تعالى بعذاب يوم الظلة.

ورُوي عن قتادة في قوله تعالى: ﴿وَأَصْحَابِ الرَّسِّ﴾: قوم شعيب؛ وقوله: ﴿وَأَصْحَابِ الْأَيْكَةِ﴾: قوم شعيب. وقاله إسحاق بن بشر. وقال غير جُوَير: أصحاب الأيكة ومدين هما واحد.

أما البكري فقد حدّد موقع الأيكة بقوله: الأيكة المذكورة في كتاب الله تعالى التي كانت منازل قوم شعيب؛ رُوي عن ابن عباس فيها روايتان: إحداهما أنّ الأيكة من مدين إلى شُعب وبدا، والثانية أنّها من ساحل البحر إلى مدين.

كما ذكر الشنقيطي: ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ﴾؛ قال أكثر أهل العلم إنّ أصحاب الأيكة هم مدين. قال ابن كثير - وهو الصحيح - وعليه فتكون هذه الآية بيّنتها الآيات الموضحة قصة شعيب مع مدين. ومما استدللّ به أهل هذا القول أنّه قال هنا لأصحاب الأيكة: ﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ﴾ (١٨١) وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ (١٨٢) وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْنُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (١٨٣) [الشعراء: 183-181]، وهذا الكلام ذكر الله أنّه قاله لمدين في مواضع متعدّدة، كقوله في (هود): ﴿وإلى مدين أخاهم شعيباً﴾. وأضاف صاحب أضواء البيان في موضع آخر: وعلى القول بأنّ شعيباً أرسل إلى أمّتين: مدين وأصحاب الأيكة، وأنّ مدين ليسوا هم أصحاب الأيكة، فلا إشكال. وقد جاء ذلك في حديثٍ ضعيفٍ عن عبد الله بن عمرو، وممن رُوي عنه هذا القول قتادة وعكرمة وإسحاق بن بشر.

وقال ياقوت: الأيكة التي جاء ذكرها في كتاب الله: ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ﴾؛ قيل: هي تبوك التي غزاها النبي ﷺ آخر غزواته، وأهل تبوك يقولون ذلك ويعرفونه، ويقولون إنّ شعيباً (عليه السلام) أرسل إلى أهل تبوك؛ ولم أجد هذا في كتب التفسير، بل يقولون: الأيكة العيضة

الملتقّة الأشجار، والجمع (أَيْك)، وإنّ المراد بأصحابِ الأيكة أهلُ مدين. قلتُ: ومدينُ وتبوكُ متجاورتان.¹

وجاء في كتاب «أرض الأنبياء»: إنّ الأيكة معروفةٌ، وإدٍ يصبُّ في «عَفال». لكن البلادي تابعه في مُعجمه (مُعجم معالم الحجاز) وقال في رسم «الأيكة»: سألتُ أهلَ تلك النواحي فأنكروا ذلك وأصروا أنّها غيرُ معروفةٍ بين مدين وتبوك - حيث حدّدها فليبي - ولا تُعرف في بقيّة الدّيار المحاورة. كما قال حمد الجاسر - رحمه الله - في المعجم الجغرافي للبلاد العربيّة السعوديّة، شمال المملكة: يحاول «موزل» أن يُعلّل كلمة «ليكة» تعليلاً يُخالف ما ذكره اللغويّون؛ فيقول: «ليكة» تُدكّرنا بالكلمة اليونانية (Leuke) معناها الأبيض، والجزء الواقع على حافة العَيْضة من أطلال مدين لا يزال يُعرّف بـ«الحوْرا»، وهو يعني «البياض». ولكن فليبي يعلّق على هذا قائلاً: اسم «الحورا» لا يعرفه الآن أهل هذه الجهة.²

وجاء في المواعظ والاعتبار للمقرئزي: الأيكة عند أهل اللغة الشجرُ الملتفّ³، وكانوا أصحاب شجرٍ مُلتفّ. وقال قوم: الأيكة: العَيْضة، و«ليكة»: اسمُ البلد وما حولها؛ كما قيل: «مكّة»، و«بكّة». وقال أبو جعفر النحاس: لا يُعلم «ليكة» اسمَ البلد. وقال ابن قتيبة: وكان بعضهم يزعم أنّ «بكّة» هو موضع المسجد، وما حولها «مكّة»، كما فُرّق بين «الأيكة» و«ليكة»؛ فقيل: الأيكة: العَيْضة، و«ليكة»: البلدُ حولها.⁴

¹ معجم البلدان، (1/ 291).

² اسم كتاب فليبي: Earth of madian وما ترجم سمي: أرض الأنبياء.

³ الكامل في التاريخ، ابن الأثير، (1/ 119).

⁴ المواعظ والاعتبار، (1/ 235).

وعند حديث صاحب كتاب الكامل في التاريخ عن قصة شعيب (عليه السلام) ذكر أنّ أهل مدين هم أصحاب الأيكة؛ حين قال: إنّ الله أرسله إلى أهل مدين، وهم أصحاب الأيكة، والأيكة شجرٌ مُلتفّ. وأضاف في موضعٍ آخر: قال قتادة: بعث الله شعيبًا إلى أُمَّتَيْن: إلى قومه أهل مدين، وإلى أصحاب الأيكة. وكانت الأيكة من شجرٍ ملتفّ¹؛ فلما أراد الله أن يُعذّبهم بعث عليهم حرًّا شديدًا، ورفع لهم العذاب كأنه سحابة؛ فلما دنت منهم خرجوا إليها رجاءً برّدها، فلما كانوا تحتها أمطرت عليهم نارًا؛ قال: فذلك قوله: «فأخذهم عذاب يوم الظلّة». وأمّا أهل مدين فهم من ولد مدين بن إبراهيم الخليل؛ فعذّبهم الله بالرجفة².

وأما الدكتور صلاح الخالدي - رحمه الله - فقد رجّح أن شعيبًا أرسل إلى قومه مَدَيْن، ومَدَيْن هم أصحاب الأيكة، وأنّ الله دَمَّر مَدَيْن وأصحاب الأيكة بعذابٍ واحدٍ هو الرّجفة والصّيحة والظلّة³. وقال ابن كثير: قد جمع الله عليهم أنواعًا من العقوبات وصنوفًا من المثلات وأشكالًا من البليّات، وذلك لما اتّصفوا به من قبيح الصّفات. سلّط الله عليهم رجفةً شديدةً أسكنت الحركات، وصيحةً عظيمةً أهدت الأصوات، وظلّةً أرسلت عليهم منها شرُّ الناس من سائر أرجائهم والجهات، ولكنه تعالى أخبر عنهم في كلّ سورةٍ بما يُناسب سياقها ويوافق طباقها.

في سياق قصة الأعراف أرّجفوا نبيّ الله وأصحابه وتوعّدوهم بالإخراج من قريتهم أو ليعودنّ في ملّتهم راجعين، فقال: ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ [الأعراف: 91]، فقابل الإرجاف بالرجفة، والإخافة بالخيفة، وهذا مناسبٌ لهذا السياق ومتعلّقٌ بما تقدّمه من السياق.

¹ الكامل في التاريخ، ابن الأثير، (1/ 119).

² الكامل في التاريخ، المصدر السابق، (1/ 120).

³ القصص القرآني، (2/ 37).

وأما في سورة هود فذكر أنهم أخذتهم الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين، وذلك لأنهم قالوا لنبي الله . على سبيل التهكم والاستهزاء والتنقص: ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ [هود: 87]، فناسب أن يُذكرت الصيحة التي هي كالزجر عن تعاطي هذا الكلام القبيح الذي واجهوا به هذا الرسول الكريم الأمين الفصيح؛ فجاءتهم صيحة أسكتتهم مع رجفة أسكتتهم.

وأما في سورة الشعراء فذكر أنه أخذهم عذاب يوم الظلة، وكان ذلك إجابة لما طلبوا وتقربوا لما إليه رغبوا: ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٩﴾ وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَطُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿١٩٠﴾ فَاسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّيَ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾﴾ [الشعراء: 185-188]، قال تعالى وهو السميع العليم: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء: 189].

ومن زعم من المفسرين كقتادة وغيره أن أصحاب الأيكة أمة أخرى غير أهل مدين فقوله ضعيف، وإنما عمدتهم شيطان:

أحدهما أنه قال: ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ [الشعراء: 176-177]، ولم يقل: "أخوهم"، كما قال: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ [الأعراف: 85]. والثاني أنه ذكر عذابهم بيوم الظلة، وذكر في أولئك الرجفة أو الصيحة.

والجواب عن الأول أنه لم يذكر الأخوة بعد قوله: ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ﴾؛ لأنه وصفهم بعبادة الأيكة، فلا يناسب ذكر الأخوة ها هنا، ولما نسبهم إلى القبيلة شاع ذكر شعيب بأنه أخوهم، وهذا الفرق من النفائس اللطيفة العزيزة الشريفة. وأما احتجاجهم بيوم الظلة، فإن كان دليلاً بمفرده على أن هؤلاء أمة أخرى، فليكن تعادد الانتقام بالرجفة والصيحة دليلاً على أنهما أمتان أخريان! وهذا لا يقوله أحد يفهم شيئاً من هذا الشأن. ثم قد ذكر الله عن أهل الأيكة

من المذمة ما ذكره عن أهل مَدِين من التطفيف في المكيال والميزان، فدلَّ على أنَّهم أُمَّةٌ واحدةٌ أُهْلِكُوا بأنواعٍ من العذاب، ودَكَرَ في كلِّ موضعٍ ما يُناسبه من الخطاب¹.

والراجحُ أنَّ قومَ مَدِين هم أصحابُ الأيكة، وهم الذين أهلكهم الله بالرجفة التي تنتج عنها الصيحة، وهي التي تنتج عنها الظلَّة. وكان عذابهم على ثلاث مراحل متعاقبة متدرِّجة:

المرحلة الأولى: الرَّجْفَةُ، حيث رَجَفَتِ الأرضُ من تحتهم وتحركت بهم حركةً شديدةً، وزلزلت بهم زلزلةً قويةً.

المرحلة الثانية: الصَّيْحَةُ، حيث يَنْتُجُ عن رَجْفَةِ الأرضِ وزلزلتها وتشققها صيحةٌ عاليةٌ وصوتٌ مرتفعٌ مُدَوٍّ وانفجارٌ كبيرٌ أفزعهم وأخافهم وأرعبهم.

المرحلة الثالثة: الظلَّةُ، وهي السَّحَابَةُ البركانيَّةُ الحارقةُ المكوَّنةُ من الدخانِ الزُّلْزاليِّ الذي تصاعدَ من زلزالِ الأرضِ وتشققها، والذي أعقب الصَّيْحَةَ المَدْوِيَّةَ والانفجارَ الكبيرَ. وبهذا تُدركُ أنه لا تناقضَ أو تعارضَ بين الإخبارِ عن تدميرهم بالرَّجْفَةِ والصَّيْحَةِ والظلَّةِ².

سادساً: قُرْبُ مَدِينٍ مِنْ قَوْمِ لُوَطٍ زَمَانًا وَمَكَانًا:

إنَّ أرضَ مَدِينٍ كانت قريبةً من قُرى قومِ لُوَطٍ (عليه السلام) من حيثُ الموقعُ الجغرافي؛ فإذا كان قومُ لُوَطٍ يُقيمون في منطقة البحر الميت في الأغوار. كما سبق أن ذكرنا. فإنَّ أرضَ مَدِينٍ كانت قريبةً منهم في الجنوب الشرقي. يقول الدكتور صلاح الخالدي. رحمه الله: ولعلَّ أرضَ مَدِينٍ كانت في منطقة وادي عَرَبَةَ وما حولها من جهة الغرب ومن جهة الشرق.

¹ قصص الأنبياء، ص 187.

² القصص القرآني، (2/39).

ونحن مع الإمام ابن كثير في قوله: كان أهلُ مَدَيْنَ قَوْمًا عربًا يسكنون مدينةَ مَدَيْنَ، التي هي قريةٌ من أرضِ مَعَانَ من أطرافِ الشامِ ممَّا يلي الحجاز، قريبًا من بحيرةِ قومِ لوط، وكانوا بعدهم بمدَّةٍ قريبة¹.

وبقي اسمُ تلك المدينة "مَدَيْنَ" حتى بعد إهلاكِ أهلها الكافرين؛ بدليل أن موسى (عليه السلام) لما خرج من مصر هاربًا من فرعون توجهَ إلى مَدَيْنَ، ومعلومٌ أنَّ موسى كان بعد إبراهيم ولوطٍ وشعيبٍ (عليهم السلام) بعشرات السنين. هذا من حيثِ التحديدُ الجغرافيُّ لمكان أرضِ مَدَيْنَ. أمَّا من حيثِ زمانٍ وجودِ قومِ مَدَيْنَ ونبيِّهم شعيبٍ (عليه السلام) فقد كان بعد إبراهيم ولوطٍ (عليهما السلام)؛ فبين إبراهيم ولوطٍ وبين شعيبٍ (عليهم السلام) فترةٌ زمنيةٌ يسيرة.

دليلٌ على أنَّ شعيبًا (عليه السلام) كان قريبًا زمنيًّا من إبراهيم ولوطٍ: أنَّ قصةَ شعيبٍ كانت تَرِدُ بعد قصةِ لوطٍ مباشرةً في السور التي كانت تسرد بعضَ قصصِ الأنبياءِ متتابعةً؛ فسورةُ الأعرافِ أوردت قصصَ الأنبياءِ بهذا التتابع: قصةُ آدمَ ونوحٍ وصالحٍ ولوطٍ وشعيبٍ. وكان تتابعُ قصصِ سورةِ هودٍ هكذا: قصةُ نوحٍ وهودٍ وصالحٍ وإبراهيمَ ولوطٍ وشعيبٍ. وكان ترتيبُ قصصِ سورةِ الحجرِ هكذا: قصةُ إبراهيمَ ولوطٍ وشعيبٍ، ثم أصحابُ الحجرِ الذين هم قومُ ثمود. وكان ترتيبُ قصصِ سورةِ الشعراءِ هكذا: قصةُ موسى (عليه السلام) وإبراهيمَ وهودٍ وصالحٍ ولوطٍ وشعيبٍ (عليهم السلام).

فعندما كانت تذكر السورُ قصصَ هؤلاء الأنبياء: نوحٍ، هودٍ، صالحٍ، إبراهيمَ، لوطٍ، شعيبٍ (عليهم السلام)، كانت تُوردُهم بهذا الترتيبِ والتتابع، وهذا يدلُّ على أنهم كانوا على هذا الترتيبِ الزمنيِّ التاريخي.

¹ القصص القرآني، المصدر السابق، (2/ 11).

ثم إنَّ شعيبًا (عليه السلام) لما ذكر تعذيب الأقبام الكافرين السابقين قال لقومه: ﴿وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ﴾ [هود: 89].

قوم لوطٍ قرييون من قوم مَدِينٍ وليسوا بعيدين عنهم؛ وقُرُوبُهُمْ مِنْهُمْ مَكَانِيٌّ جُغْرَائِيٌّ أَوَّلًا، ثُمَّ قُرْبٌ زَمَانِيٌّ تَارِيخِيٌّ بَعْدَ ذَلِكَ¹. والله أعلم.

سابعاً: مواضع قصة النبي شعيب في القرآن الكريم:

ورد اسمُ شعيبٍ (عليه السلام) في القرآن الكريم إحدى عشرة مرّة، وهذه هي السورُ التي ذُكِرَ فيها:

- سورة الأعراف: ذُكِرَ فيها خمسَ مرات.
- سورة هود: ذُكِرَ فيها أربعَ مرات.
- سورة الشعراء: ذُكِرَ فيها مرّةً واحدة.
- سورة العنكبوت: ذُكِرَ فيها مرّةً واحدة.

وقد بعث الله تعالى شعيب (عليه السلام) نبياً ورسولاً إلى قوم مَدِينٍ. ووردت قصة شعيب في القرآن أثناء حديث القرآن عن شعيب (عليه السلام)، وأثناء حديثه عن مَدِينٍ، وأثناء حديثه عن أصحاب الأيكة. وقد وردت إشاراتٌ سريعةٌ لقصة شعيب في سورتي الحجر والعنكبوت؛ ففي سورة الحجر وردت الإشارةُ إلى تدمير أصحاب الأيكة الظالمين وبقاء آثارهم آيةً، وفي سورة العنكبوت وردت الإشارةُ إلى دعوة شعيب لمَدِينٍ، وإلى تكذيبهم له وإهلاكهم بالرَّجْفَةِ. وقد ورد ذُكْرُ اسمِ مَدِينٍ أو قوم مَدِينٍ بلا تفصيلٍ في سورة التوبة، وفي سورة طه، وفي سورة الحج، وفي سورة

¹ القصص القرآني، (2/12).

القصص. أمّا أصحاب الأيكة فقد ورد ذكرهم مجدّداً بلا تفصيلٍ في سورة "ص" وسورة "ق" إضافةً إلى ذكرهم مرّةً واحدةً في سورة الحجر. فهذه مواضع ومزاتٌ ذكُر قصة شعيبٍ (عليه السلام) في القرآن؛ سواءً تحت اسم شعيبٍ أو اسم مَدْيَنٍ أو اسم أصحاب الأيكة¹.

¹ القصص القرآني، (9/2).

المبحث الثاني: قصة شعيب (عليه السلام) في سورة الأعراف

قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُوهَا عِوَجًا وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَرْتُمْ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلَتْ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [الأعراف: 85-87] ...

وفي قوله تعالى: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدْ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴿٨٩﴾ وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذْتُمُ الرَّجْفَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٩١﴾ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ ﴿٩٢﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رَسُولَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿٩٣﴾﴾ [الأعراف: 88-93].

جاءت قصة شعيب في سورة الأعراف، وهي السورة السابعة في العدد، وسادسة السبع الطوال، والسبع الطوال: البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنعام، والأعراف، والتوبة. وهي الثالثة من حيث الطول بعد سورتي البقرة والنساء، وهي مكية بالاجماع، نزلت على الرسول صلى الله عليه وسلم دفعة واحدة¹.

¹ مقاصد القرآن، منذر محمد سعيد أبو شعر، ص 47.

وقد عرضتُ وبيّنتُ سننَ الصراعِ بين الإيمان والكفر وعواقب ذلك من خلال سير الأنبياء مع أقوامهم، واستعرضتُ تاريخَ البشرية منذ خلقِ الله تعالى آدمَ إلى قيام الساعة.

بدأتُ ذلك ببيان المنهج وأهميته اتباعه، ثم ذكرتُ بدايةَ الصراعِ بين آدمَ وإبليسَ وقصةَ الأكل من الشجرة والنزول من الجنة، ثم انتقلتُ للحديث عن قصة النهاية وما يجري فيها من قسمةٍ بين أهل الجنة وأهل النار وقصة أصحاب الأعراف، ثم انتقلتُ بعد ذلك لتاريخ البشرية بدءًا بسيرة نوح وهودٍ وصالحٍ ولوطٍ وشعيبٍ (عليهم السلام)، ثم عيّبتُ السورةَ بمحاثٍ وقواعدٍ مهمةٍ في المنهج والسُنن الإلهية. ثم ذكرتُ قصةَ موسى (عليه السلام) وأوردتها على فصلين:

الفصلُ الأوّل في ذكرِ قصةِ موسى مع فرعونَ بتفاصيلها، ثم عرضتُ وراثَةَ الأرض بعد ذلك إلى بني إسرائيل، ثم بدأتُ الفصلَ الثاني من قصةِ موسى مع بني إسرائيل، ثم عادتُ في النهاية تُبيّن الطريقَ الذي يأتي من خلاله الشُّركُ والأسبابُ الداعيةُ إليه¹.

وهي أوّل سورةٍ عرضتُ للتفاصيل في قصص الأنبياء، ومهمّتها كمهمّة السور المكيّة في تقرير أصول الدعوة الإسلامية: من توحيدِ الله جلّ وعلا، وتقرير البعث والجزاء، وتقرير الوحي والرسالة². وبيّنتُ سورةَ الأعراف أصولَ التشريع الكليّة وبعضَ قواعدِ الشرع العامة، وتقريرَ جملةٍ من المقاصد العظيمة كأصول العقائد وكمليات الدين³.

وقد جاءت قصةُ شعيبٍ (عليه السلام) بعد قصةِ لوطٍ (عليه السلام)؛ فكثيرًا ما تقترن القصتان، كما في هذه السورة وفي سورة هودٍ، وفي سورة الحجر، وفي سورة الشعراء، وفي سورة العنكبوت. وكانت أفضعُ فواحش قومِ لوطٍ (عليه السلام) إتيانَ الذُّكران وقطعَ السُّبُل وإتيانَ المنكر في التّوادي

¹ الخارطة القرآنية، د. مشعل الفلاح، ص 76.

² مقاصد القرآن الكريم ومحتوياته، عبد الله التليدي، ص 72.

³ مقاصد سور القرآن، ص 48.

الثقافية والاجتماعية، وقد استطاع إبليس أن يخترق الحاجز الأخلاقي بصورة فجّة وأن يجعل أبشع أنواع الفواحش نظامًا مقيتًا. ويقترب بعهد قوم لوط عهد قريب منه تاريخيًا، وقريب في الواقع الجغرافي، وقريب منه في فظاعة الفواحش التي جعلت نظامًا تعيش به تلك الشعوب؛ إنّه عهد حضارة مَدِينِ الذي أرسل إليهم شعيب (عليه السلام).

ومن أفضح فواحش قوم شعيب (عليه السلام) الإفساد الاقتصادي والإفساد في الأرض؛ وقد ذكر الله العهدين والمكانين؛ فهناك قُرْبُ تاريخي وجغرافي: فقوم لوط (عليه السلام) في الأردن، وقوم شعيب (عليه السلام) في مَدِينِ قريب منهم. وهناك ارتباط شديد بين الفساد الأخلاقي والفساد الاقتصادي؛ فإنّ الفساد الاقتصادي يكون أحد الأسباب الرئيسة ليشغل الناس في المجالات التي تُدَمِّرُ القيم الأخلاقية القويمة للإنسانية¹.

وتفسير الآيات الكريمة المتعلقة بقصة شعيب (عليه السلام):

أولاً: قوله تعالى: ﴿وإلى مَدِينِ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: 85].

1. قوله: ﴿وإلى مَدِينِ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾:

إن المقصود: أرسلنا إلى مَدِينِ أَخَاهُمْ (شعيبًا). و"أخاهم" هنا موقعها الإعرابي (مفعول به). وكلمة "أخاهم" تُشعر بأشياء كثيرة؛ منها أنه من جنسهم، ولغته لغتهم، ونسبه بهم، ويعرفون كل شيء وكل تاريخ عنه؛ فلم يأتيهم برسولٍ أجنبيٍّ عاش بعيدًا عنهم حتى لا يقولوا: لقد جاء ليضع لنفسه

¹ تفسير سورة الأعراف، عبد السلام المحيدي، ص 473.

سيادةً علينا، بل جاءهم بواحدٍ منهم، وأرسل إليهم أخوهم؛ سواءً كان المقصودُ أخوةً من الأبِ القريب، أو أخوةً في الأبوةِ البعيدة. أي من جنسِكُم من آدم¹.

وقد صرَّح القرآن الكريم في شرعِ يهودٍ أنه الأخُ لقومه الكافرين باعتباره أخوةً إنسانيةً.

وقال المفسرون: أي ابنُ أبيهم - وهي أخوةٌ نسبٍ لا أخوةٌ دين. وقيل: هي أخوةٌ المجانسة؛ قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ﴾ [إبراهيم: 4].

وقيل في العرب: "يا أخا بني تميم" يريدون: أي واحداً منهم؛ فالأخ يُستعمل في معنى القريب من القبيلة، ومنها قولُ قُرَيْطِ بنِ أنيف: ²

لا يسألونَ آخَاهُم حينَ يندُبُهُم
في النَّائِبَاتِ على ما قالَ بُرْهَانَا

الأخوةُ شرعاً ولُغةً على درجاتٍ وطبقاتٍ، وأولها أخوةُ الإنسانية التي وُصِفَ بها الأنبياءُ مع قومهم وقبائلهم:

﴿وإلى عادٍ آخَاهُم هُودًا﴾ [الأعراف: 65].

﴿وإلى ثمودَ آخَاهُم صالحًا﴾ [الأعراف: 73].

﴿وإلى مدينَ آخَاهُم شُعَيْبًا﴾ [الأعراف: 85].

﴿إذ قال لهم آخوهم صالحٌ ألا تتقون﴾ [الشعراء: 142].

﴿إذ قال لهم آخوهم لوطٌ ألا تتقون﴾ [الشعراء: 161].

¹ تفسير الشعراوي، (7 / 4206).

² تفسير القرطبي، (16 / 50)، تفسير التحرير والتنوير، (19 / 158).

وتكرّر ذلك في القرآن والسنة النبوية، وجاء في حديث الإسراء أن الأنبياء إخوة، وكانوا يقولون لرسول الله ﷺ: "مرحبًا بالنبيّ الصالح والأخ الصالح"¹. وأعلى درجات الأخوة: أخوة الإيمان؛ ولذلك قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: 10].

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "المؤمن أخو المؤمن". وهي التي تستحقّ كامل الحقوق وأعلى الدرجات، ولكنّ ذلك دفع بعض المتعصّبين والمتشدّدين إلى حصر الأخوة في هذه الدرجة وإنكار استعمالها في درجات أخرى، مخالفين بذلك القرآن والسنة.

واستعمال "الأخ" حسب النسب والدرجات والقبائل والأعراف والأديان هو ما يجري عادةً في جميع المناسبات وأحقاب التاريخ، والمجاملة في لقاء الآخرين. مهما كانت صفاتهم وأحوالهم. وثبت في السيرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنّه قال لأحدهم: "يا أبا العرب"، وهي من العبارات اللطيفة والمحبة في الأدب والأخلاق والمعاملات، وذلك طوال الدهر².

2. قوله تعالى: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾:

"قال": تدلّ على صدّعه بالحق وشجاعته الأدبية الرفيعة، وحرصه على تبليغ رسالات الله عزّ وجل، وأداء أمانة البلاغ.

"يا قوم": تودّد إليهم وتقرب منهم وترفق بهم؛ فهو منهم، وأضافهم إلى نفسه؛ وهذا من حرصه عليهم ورغبته في نجاتهم من عذاب الله، والتزام أمره³.

¹ شرعة الله للأنبياء، محمد مصطفى الزحيلي، ص 94.

² نوح عليه السلام، الصلابي، ص 203.

³ أنبياء في القرآن تركوا أثراً، هدى حسن، ص 46.

"اعبدوا": أي دَرَبُوا أنفسكم وذلّلوها حتى تصيرَ مُعَبَّدَةً سهلةً الانقياد لما يجب أن تقومَ به في هذه الحياة؛ فالعبادةُ تدريبُ النفس وتذليلُها لتسيرَ على منهاجِ الحياةِ الحق¹.

"الله": فحدّد لهم اسمَ المعبود سبحانه وتعالى، الذي تفرّد به سبحانه عن العالمين؛ فهو اسمٌ له وحده لا يتعلّق بأحدٍ سواه: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم: 65]، ولا يُطلق على غيره ولا يدّعيه أحدٌ من خلقه؛ قَبَضَ اللهُ أفئدةَ الجاهلين وألستهم عن التسمّي به. إنّه اللهُ سبحانه ذو الجلال والجمال والعظمة والهيبة والجبروت.

مهما رسمنا في جلالك أحرفًا
تُنشِئُها القُدسِيَّةُ الأرواحُ
فلأنت أعظمُ، والمعاني كُلُّها
يا ربُّ عند جلالك تنداح².

قال ابنُ عباسٍ (رضي اللهُ عنه): "اللهُ ذو الألوهية والعبودية على خلقه أجمعين". واللهُ هو المحبوبُ المعظّمُ الذي تحنّ النفوسُ إليه، وتأنسُ بذِكْرِهِ وقُرْبِهِ، وهو المستعانُ على كلِّ داهيةٍ وفادحةٍ، وهو الذي تحارّ العقولُ فيه؛ فلا تُحيطُ به العقولُ، ولا تُدرِكُه الأفهامُ، ولا تصلُ إلى عظمتِهِ الظُّنونُ؛ فلا يُحيطُ الخلقُ به علمًا: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ [طه: 110].

فاللهُ هو الذي تُؤهِئُه القلوبُ حبًّا ودُّلاً وخوفًا وطمعًا ورجاءً وتعظيمًا وطاعةً، وهو الإلهُ بحقِّه، وكلُّ ما يُعَبَّدُ من دونه فهو باطلٌ من عرشه إلى قرارِ أرضه.

¹ تفسير الأعراف، المجيدي، ص 479.

² أسماء الله الحسنى، عبد الله القحطاني، ص 11.

والله سبحانه وتعالى هو الجامع لصفات الألوهية: صفات الكمال والجلال والجمال والعظمة، مع نفي أضدادها عنه¹.

وإنّ أكثر أسماء الله الحسنى وروداً في القرآن الكريم "الله"، وقد ذُكر (2724) مرّة. وإن "الله" جلّ جلاله اسمٌ جامعٌ لجميع معاني أسماء الله الحسنى، والمتضمّن لسائر صفات الله تعالى². وكان شعيباً (عليه السلام) يحثُّ قومه على عبادة الله عزّ وجل ويذكّرهم به.

قال الشيخ السعدي - رحمه الله تعالى-: "الله هو المألوه المعبود ذو الألوهية والعبودية على خلقه أجمعين، لما اتّصف به من صفات الألوهية التي هي صفات الكمال... وهو المستحق لمعاني الألوهية كلّها... واسم الله هو الجامع لجميع الأسماء الحسنى وصفاته العُلا، والله أعلم"³.

فهو الله الذي لا يسكنُ العبدُ إلا إليه؛ فلا تسكنُ القلوبُ إلا بذكره، ولا تفرحُ العقولُ إلا بمعرفته؛ لأنّه سبحانه الكامل على الإطلاق دون غيره.

وهو الذي لا يفرحُ العبدُ ولا يلجأُ إلا إليه؛ لأنّه لا مجيرَ حقيقةً إلا هو، ولا ناصرَ حقيقةً إلا هو. وهو الذي يلجأُ إليه العبدُ بكلِّ ذرّةٍ في كيانه. التجاءً شوقٍ ومحبةً. فهو سبحانه الكامل في ذاته وصفاته؛ فلا يأنسُ إلا به، ولا يفترُّ عن خدمته، ولا يسأّمُ عن ذكره⁴.

¹ أسماء الله الحسنى، المصدر السابق، ص12.

² والله الأسماء الحسنى، عبد العزيز الجليل، ص70.

³ الحق الواضح، ص104.

⁴ والله الأسماء الحسنى، ص72.

وهو الذي يَخْضَعُ له العبدُ وَيَذُلُّ وينقادُ تمامَ الخضوعِ والذُّلِّ والانقياد، فيُقدِّمُ رضاهُ على رضا نفسه في كلِّ حالٍ، وَيَبْعُدُ وَيُنْأَى عن سَخَطِهِ بكلِّ طريقٍ؛ هذا مع تمامِ الرضا والمحبة له، حيث إنَّه الإلهُ الحقُّ الكاملُ في ذاته وصفاته المستحقُّ لذلك كِلَهُ.

ومعنى أنَّ "الإله" هو المألوهُ وحدَه: أي هو المستحقُّ أن يُفردَ بالعبادة وحدَه؛ وهذا هو أهمُّ معاني هذا الاسم للعبد. وذلك حيث إنَّ الله عزَّ وجلَّ ما خلقَ الجنَّ والإنسَ إلاَّ لتحقيقِ هذه الغاية؛ كما قال سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: 56]¹.

إنَّ العبادةَ طاعةً طوعيةً ممزوجةً بمحبةٍ قلبيةٍ؛ أساسها أنَّه هو الذي خلقنا وصورنا وأحيا وأبدع، الرزاقُ المحيي المميت سبحانه وتعالى؛ فلا رافع ولا خافض، ولا مُعزِّز ولا مُذلِّ، ولا مُعطي ولا مانع، ولا رزاق ولا جبار إلاَّ الله. وما تعلَّم الناسُ أفضلَ من التوحيد².

شعيبُ (عليه السلام) دعا قومه إلى عبادةِ الله عزَّ وجلَّ وإفراجه بالعبادة، وتحقيقِ التوحيد، ونبذِ الشِّرْكَ بكافةِ أشكاله وأنواعه. وقد شاء الله عزَّ وجلَّ برحمته أن يُرسلَ شعيبًا مُبَشِّرًا بالحقِّ في مجال العقيدة، وبالخيرِ في مجال الأخلاق، وبالعدلِ في مجال التشريع.

وتضعنا النصوصُ الصحيحةُ والأخبارُ أمامَ شعيبِ (عليه السلام) وهو رجلٌ صالحٌ مكتملٌ أرسله الله لهدايةِ قومه. ومن سننِ الله أن يختارَ أنبياءَه ورسله من أشرفِ الأُسُر. ولقد سأل هرقلُ ملكُ الرومِ أبا سفيانَ بنَ حربٍ عن رسولِ الله ﷺ قائلاً: كيف هو فيكم؟ فردَّ أبو سفيان قائلاً: "هو فينا ذو حَسَبٍ"، فقال هرقل: "وكذلك الرسلُ تُبعثُ في أحسابِ قومها"³. ويعلِّ ابنُ خلدون - رحمه الله - سنَّةَ الله في بعثِ الرسلِ في أحسابِ قومهم بأنَّ ذلك لأجلِ أن يكونَ للرجلِ أُسرةٌ ذاتُ

¹ والله الأسماء الحسنی، المصدر السابق، ص72.

² تفسير النابلسي، (4/554).

³ نوح عليه السلام والطوفان العظيم، ص107.

شوكةً وَمَنَعَةٍ تَحْمِيهِ مِنْ أذى الكفّار والمستكبرين حتى يُبَلِّغَ رسالةَ رَبِّهِ وَيَتِمَّ مَرادَ اللَّهِ فِي إِكمالِ دينِهِ. ورسولُ اللَّهِ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقولُ: "ما بعثَ اللَّهُ نبيًّا إِلَّا فِي مَنَعَةٍ مِنْ قَوْمِهِ"¹.

ومن هذه السنّة الإلهية يُؤمّنُ أنّ شعيبًا كان من أُسرةٍ ذاتِ مكانةٍ وشرفٍ وَمَنَعَةٍ.

وأما من ناحيةِ الإعدادِ التربويِّ فإنَّ شعيبًا (عليه السلام) لم يكن بدعًا من الرسل الذين اختارهم الله لرسالته وتعهّد بتربيتهم وإعانتهم على تبليغِ رسالةِ رَبِّهم؛ فقد توفّرت فيهم صفاتُ الأنبياءِ وعلاماتهم: من خُلُقٍ كريمٍ وحبِّ الخير، ومجانبةِ المذمومات والرّجس أجمع؛ وكانوا مفطورين على التّنزّه عن المذمومات والمنافرة لفظرته.

وكان شعيبٌ على خُلُقٍ كريمٍ. لا شكَّ في ذلك. فلما انتهى إعدادُ اللَّهِ له إلى غايته جاءه الوحي. أيضًا سنّةُ اللَّهِ في أنبيائه؛ فإنّه حينما تُصبَحُ نفوسُهُم بتربيةِ اللَّهِ وغايته أهلاً للتلقّي عنه يُفاجئها الوحي. وهذا ما حدث لشعيبٍ (عليه السلام): بعثَ اللَّهُ شعيبًا (عليه السلام) حينما عمّ الفسادُ لِيُبشّرَ بالخير والحقّ والعدل، وبدأ سيّدنا شعيبٌ (عليه السلام) دعوته بالتوحيد: "اعبدوا اللَّه ما لكم من إله غيره".

- ﴿ما لكم من إله غيره﴾: هذا ما قاله سيّدنا شعيبٌ (عليه السلام) - هو التبشيرُ بالتوحيد - وهو جوهرُ الرسالات السماوية جميعًا. واللّه سبحانه وتعالى يُوَكِّدُ لسيّدنا محمدٍ خاتم النبيين ذلك قائلاً: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: 25].

إنّ التوحيدَ الذي جاءت به الرسل - والعنوانُ يُعبّرُ عن حقيقةٍ في كلمةٍ مُوجزة - هو كلمةُ "لا إله إلا اللَّه" التي تُسمّى كلمةَ التوحيد وكلمةَ الإخلاص أو كلمةَ التّقوى. وهذه الكلمةُ العظيمةُ تتضمّنُ نفْيَ الألوهيةِ عن كلّ ما سوى اللَّه، وإثباتها لله وحده؛ فهو وحده الإلهُ الحقُّ، وما عداه ممّا

¹ قصص الأنبياء في رحاب الكون، ص 65.

عبد الناس في مختلف العصور فآلهة باطلة زائفة صنعنها الجهالة والأوهام؛ كما قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [الحج: 62].

وإنَّ الإلهَ المعبودَ بحقٍ - أي المحبوب المطاع الذي يستحق أن يُعبد - وذلك لما اتَّصف به من صفات الكمال التي تقتضي أن يُخصَّ بنهاية الحبِّ ونهاية الخضوع؛ وهذا بمعنى العبادة. فإنَّ "الإله" - كما قال ابن تيمية رحمه الله - : "هو الذي تُؤَهِّه القلوبُ بحبِّها، وتَخضعُ له، وتذلُّ له، وتخافُه، وترجوه، وتُنيبُ إليه في شدائدِها، وتدعوه في مهمَّاتها، وتتوكَّلُ عليه في مصالحِها، وتلجأُ إليه، وتطمئنُّ بذكره، وتَسكنُ إلى حَبِّه"؛ وليس ذلك إلاَّ لله وحده¹.

ولهذا كانت "لا إله إلاَّ الله" أصدقَ الكلام وأفضلَه، وكانت رأسَ الأمر وأحسنَ الحسنات؛ جاء في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ: "أفضلُ ما قلتُ أنا والنبِيُّون من قبلي: لا إله إلاَّ الله"².

إنَّ المعنى الحقيقيَّ للتوحيد هو علمُ العبد واعتقاده واعتراؤه بتفردِ الربِّ بكلِّ صفاتِ الكمال، واعتقادُ أنه لا شريكَ له ولا مثيلَ له في كماله، وأنه ذو الألوهية والعبودية على خلقه أجمعين³. فالله لا يكونُ له شريكٌ في ذاته ولا في صفاته، وكذلك في عبادته ومعاملته سبحانه وتعالى؛ وهذا التعريفُ مُسنَدٌ إلى الدلالة الواضحة لمعنى "لا إله إلاَّ الله"؛ إذ إنَّها تدلُّ بالمطابقة على تفردِه في الألوهية - فلا تُصرفُ العبادةُ إلاَّ له - وبالالتزام على تفردِه في الربوبية، كما تدلُّ على اتِّصافه عزَّ

¹ اقتضاء الصراط المستقيم، (2/ 387).

² رواه الطبراني في الدعاء، رقم 874.

³ طريق الوصول إلى العلم المأمول، السعدي، ص 103.

وجلَّ بكافّة صفات الكمال والجلال بالتضمّن¹. فهي الكلمة المفسّرة للتوحيد من ناحية العلم ومن ناحية العمل².

وإنّ المعنى الحقيقيّ للتوحيد هو الاعتقاد اليقينيّ بأنّ كلّ ما في الكون من خلْقٍ ورزقٍ، عطاءٍ ومنعٍ، حياةٍ وموتٍ، غنى وفقرٍ، قوّة وضعفٍ، عزٍّ وذلٍّ - مُرَدُّه إلى الله سبحانه؛ فالله سبحانه وتعالى متفردٌ بالخلْق والرزق والإحياء والإماتة وسائر أنواع التصريف والتدبير لملكوت السماوات والأرض. ويجب إفراده بالحقم والتشريع؛ فهو الذي أرسل الرسل وأنزل الكتب؛ قال الله تعالى: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: 54].

وشعبيّ (عليه السلام) كان يدعو إلى إفراد الله وحده بالعبادة، ولا يُعبَدُ غيره، ولا يُدعى سواه، ولا يُستعان ولا يُستغاث إلا به، ولا يُندُر ولا يُذبح إلا له؛ قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ [الأنعام: 162-163].

وفي قصة شعبيّ (عليه السلام) الدعوة إلى أنّ أعظم ما يحتاجه العبد معرفة أسماء الله: "الله"، "رُبُّكُمْ"، "وسع ربُّنا كلّ شيءٍ علماً"، "وأنت خيرُ الفاتحين"، "إنّ ربي رحيمٌ ودودٌ"؛ ليحمده العبد ويُمجِّده ويُثني عليه ويسأله المغفرة والرحمة ويتوب إليه - وهذا سنقف عليه في محله في قصة شعبيّ (عليه السلام).

إنّ الإنسان إذا آمن بالتوحيد لن ينظر إلى غير الله؛ فيكون خوفه ورجاؤه فيه، وثقته به، واتِّكأه عليه فقط. وإذا اعتقد التوحيد رأى أنّ كلّ ما سوى الله مُسخَّرٌ لله. وإذا اعتقد التوحيد تحرَّر من

¹ ضوابط المعرفة وأصول الاستدلال، حبكة الميداني، ص 27.

² تحقّق العبودية بمعرفة الأسماء والصفات، فوز بنت عبد اللطيف الكردي، ص 104.

ذُلَّ العبودية لغير الله؛ لأنَّ كلَّ مخلوقٍ مُسَخَّرٌ لله. وتتكَاتَف الآياتُ وأحاديثُ الرسولِ الكريمِ صلى الله عليه وسلم على دعوةِ الإنسانِ إلى التوحيدِ حتى يتحرَّرَ من رِقِّ العبودية¹.

ولقد بشرَ سيِّدنا شعيبٌ (عليه السلام) بالتوحيد، وبشَّرَ بالتوحيد جميعَ الرسل. وإذا فهمَ التوحيدَ حقيقته واتَّخذته الإنسانية شعارًا لها، يكونُ علاجًا لكثيرٍ من ألوانِ العنفِ في المجتمعات؛ فالإنسانيةُ في مختلفِ أزمئتها وأمكنتها تخافُ من الموتِ وتخشاه، فتتقادُ إلى استعبادِ الأقوياءِ والذُّلِّ أمامِ الطُّغاة. ولكنَّ هذا الوضع لا يتماشى قطَّ مع عقيدةِ التوحيد؛ فإنَّ مالكَ الملكِ إنما وحدَه الذي يملك الموتَ والحياة؛ إنَّه يملكُ إمامةَ الطُّغاةِ أو تركهم لحكمةٍ يعلمها سبحانه، وهو الذي قدَّرَ الآجالَ وحدَّدها؛ فإذا جاءَ أجلهم لا يستأخرون ساعةً ولا يستقدمون².

إنَّ المتأملَ في قصةِ شعيبٍ (عليه السلام) ودعوته لقومه يرى عِظَمَ هذا النبيِّ (عليه السلام) في قيامه بأداءِ مهمَّةِ التبليغِ لقومه، ودعوته إيَّاهم لعبادةِ الله تعالى وحدَه؛ إذ مكثَ في قومه مُتَحَمِّلاً الأذى والعنادَ والجحودَ لعلَّهم يستجيبونَ لدعوته. وكانت دعوةُ شعيبٍ التي دعا قومه إليها - من أولوياتها - دعوةُ التوحيدِ الخالصِ وتحقيقِ العبوديةِ لله تعالى وتركِ عبادةِ الأصنام: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: 59]. فالركنُ الأوَّلُ في دعوةِ شعيبٍ (عليه السلام) دعوته للتوحيد.

3. قوله تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾:

معجزةٌ واضحةٌ وشاهدٌ على صدقِ نبوتِي³، ودالَّةٌ عليها.

أ- "بَيِّنَةٌ": آيةٌ وبرهانٌ يدلُّان على صدقِ دعواي وأني رسولٌ من عند الله حقًّا.

¹ قصص الأنبياء في رحاب الكون، ص 68.

² نوح والطوفان العظيم، ص 110.

³ تفسير القرآن الثري الجامع، د. محمد هلال، (4 / 122)، التفسير الموضوعي، (3 / 103).

لكن ما هذه البيّنة أو الآية؟ القرآن لم يذكرها. وقد يُراد بها الوحي والرسالة وما يُقيمه من الحجّة على قومه تُبطل ما هم عليه من الشّرك وسوء الفعل والقول¹.

وقد بيّن النبي صلى الله عليه وسلم - فيما أخرجه الشيخان من حديث أبي هريرة (رضي الله عنه) - أنه قال: "ما من الأنبياء نبيّ إلا وقد أُعطي ما مثله آمن عليه البشر، وإمّا كان الذي أُوتيتُ وحيًا أوحاه الله إليّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا"².

أي: ما من نبيّ إلا أيده الله بمعجزةٍ أو آيةٍ تدلّ على صدق دعواه ورسالته، ومنها المعجزات الكونية والعقلية، والنبي ﷺ يرجو الله أن يكون أكثر الرسل أتباعًا يوم القيامة³.

● قال الدكتور فضل عباس - رحمه الله -: "والقرآن الكريم لم يُبيّن نوع هذه الآية التي جاءتهم، فَتَسَكَّتْ عَمَّا سَكَتَ عَنْهُ الْقُرْآنُ"⁴.

● وقال أبو حفص النّسفي - رحمه الله -: "أي شرائع ظاهرة المصالح من التوحيد والإخلاص وإيفاء الحقوق. وقيل: أي بيان، وقيل: أي معجزة، وإن لم يبلغنا ماذا كانت"⁵.

● وقال أبو نصر القشيري - رحمه الله -: "أي جئتكم بالرسالة، ولم يُذكر له معجزة في القرآن"⁶.

● وقال الطاهر ابن عاشور - رحمه الله -: "والبيّنة التي جاءت في كلام شعيب (عليه السلام) يجوز أن تُطلق على الآية المعجزة أظهرها لقومه فعرفوها ولم يذكرها القرآن كما قال المفسرون.

¹ واحة التفسير، أحمد أحمد الطويل، (5/168).

² البخاري، رقم 4981، مسلم، رقم 152.

³ واحة التفسير، (5/168).

⁴ قصص القرآن الكريم، ص 463.

⁵ التيسير في التفسير، (6/427).

⁶ التيسير في التفسير، المصدر السابق، (3/26).

والأظهر عندي أن يكون المراد بالبيّنة حُجَّةً أقامها على بطلان ما هم عليه من الشرك وسوء الفعل، وعجزوا عن مجادلته فيها، فقامت عليهم الحجّة، مثل المجادلة التي حُكيت في سورة هود؛ فتكون البيّنة أطلقت على ما يُبيّن صدق الدعوة، لا على خصوص خارق العادة"¹.

● وقال الدكتور عبد السلام المجيدي: "والظاهر أن البيّنة هي ما أقامه (عليه السلام) من بياناتٍ قويّةٍ عظيمةٍ سمعنا خلاصتها في الذِّكر الحكيم"².

ب. "مِنْ رَبِّكُمْ": من خالقكم ومالككم ومدبّر شؤونكم، على صدق ما جئتكم به من أفرادِ الله بالعبادة وترك الفساد في الأرض؛ فذكّرهم برّبهم.

ومن أسماء الله الحُسنى "الرّب": وهو الخالق، والمالك، والمدبّر. وفي الربوبية المعنى العام لخلقه أجمعين: فهو خالق كلِّ شيء ومالكه ومدبّره، وهو الذي ﴿يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾؛ ومنها المعنى الخاصّ لعباده الصالحين: فهو ربُّ الطيّبين وربُّ المؤمنين بالعناية والرعاية والقبول والتسديد والمغفرة والنصرة والهداية³.

فشعيب (عليه السلام) عاش مع العناية الربّانية والقبول الإلهي والتسديد الربّاني ونصرة الناصر وهداية الهادي سبحانه وتعالى؛ فربوبيةُ الله عزّ وجلّ عظّم وجلالُ وبركةُ ونماءُ وعطاءُ وسرّ ومغفرةُ ورحمةُ وكر⁴.

¹ التحرير والتنوير، (4 / 320).

² تفسير سورة الأعراف، ص484.

³ مع الله، د. سليمان العودة، ص265.

⁴ الله أنيس المحبين، عبد الله القحطاني، ص23-32.

وقد صحّ عنه صلى الله عليه وسلم: "ذاق طعم الإيمان من رضي بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمدٍ رسولاً"¹.

4. قوله تعالى: ﴿فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ﴾:

ركّز شعيب (عليه السلام) على أهمّ جوانب الفساد في مجتمعه بعد الشرك، وهو الفساد الاقتصادي؛ فدعاهم إلى أن يؤتوا الناسَ حقوقهم بإتمام كيل المكيال ووزن الميزان².

أ. والفاء في قوله: "أوفوا" للتفريع؛ فلما قام الدليل على صدقه، وكان قد أمرهم بالتوحيد بادئ بدءٍ لما فيه من صلاح القلب، شرّع يأمرهم بالشرائع من الأعمال بعد الإيمان³.

ب. "الكيل": من أدوات القياس، ويقوم بتقدير الأشياء بحجومها كما في كيل الطعام؛ فننظر إلى الحجم لا إلى الثقل. ومنه يُقال: "كِلْتُ فلاناً" أي أعطيته، و"اكتلْتُ عليه" أي أخذتُ منه. قال سبحانه: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿٣١﴾ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٣٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [المطففين: 3-1].

"ويلٌ": كلمةٌ عذابٍ وعقاب. "للمطففين": فسّر الله المطففين بأنهم "الذين إذا اكتالوا على الناس" أي أخذوا منهم وفاءً لهم عمّا قبلهم يستوفونه كاملاً، "وإذا كالوهم أو وزنوهم يُخسرون" أي إذا أعطوا الناسَ حقوقهم بكيلٍ أو وزنٍ نقصوهم؛ إمّا بمكيالٍ وميزانٍ ناقصين، أو بعدم ملء المكيال والميزان، أو بغير ذلك. فهذا سرقةٌ لأموال الناس وعدمٌ إنصافٍ لهم. وإن كان هذا وعيداً فيمن يُبخسون الناسَ بالمكيال والميزان، فالذي يأخذ أموالهم قهراً وسرقةً أولى بهذا الوعيد. ودلّت الآية

¹ رواه مسلم.

² الوجيز، الواحدي، ص402، التفسير المحرر، (6/ 3141).

³ التحرير والتنوير، (4/ 320).

على أن الإنسان كما يأخذ من الناس يجب عليه أن يعطيهم كل ما لهم من الأموال والمعاملات¹. ثم توعدّ تعالى المطففين، وتعجب من حالهم وإقامتهم على ما هم عليه، فقال: ﴿أَلَا يَظُنُّ أَوْلِيكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦﴾﴾ [المطففين: 4-6]. فالذي جرّاهم على التطفيف عدم إيمانهم باليوم الآخر؛ ولو آمنوا وعلموا أنهم سيقومون بين يدي الله يُحاسبُهُم على التقليل والتكثير لأقلعوا وتابوا².

ج- "الميزان": الآلة التي تُوزن بها الأشياء، وهو من الوزن الذي هو ثقلُ شيءٍ يُعرَفُ بشيءٍ مثله كأوزان الدراهم³.

قال أبو منصور: "رأيتُ العرب تسمي الأوزان التي يُوزَنُ بها التمر وغيره: المسنّاة من الحجارة والحديد (الموازين)، واحدها ميزان". وقال ثعلبٌ في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ [القارعة: 6]، و﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ [القارعة: 8]: إنما أراد "من ثقل وزنه" أو "خفّ"، فوضع اسم الميزان موضع المصدر⁴.

و"الموازنة" هي المقارنة بين شيئين؛ فيقال: "وازنْتُ الشيئين موازنةً ووزناً"، و"هذا يوازن هذا" إذا كان على وزنه أو محاذاته. ويقال: "ليس لفلانٍ وزنٌ" أي قَدَرٌ لِحِسَّتِهِ: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾ [الكهف: 105]، و"وازنه": عادله وقابله وحاذاه، و"اتزن": اعتدل أو استقام⁵.

¹ تفسير السعدي، ص 1242.

² تفسير السعدي، ص 1242.

³ فقه الميزان، علي محيي الدين القراذغي، ص 92.

⁴ لسان العرب، (6/4828).

⁵ القاموس المحيط، ص 1597.

والخلاصة: أن "الميزان" له معنيان¹:

- الأوزانُ التي تُوزَنُ بها الأشياءُ (كالغرام والمئقال والكيلو).
- الآلةُ التي تُوزَنُ بها الأشياءُ ويُعرَفُ بها مقدارُها وثِقَلُها (وهو الأشهر).

وقد تكرر "الميزان" ومشتقاته في القرآن ثلاثاً وعشرين مرّة؛ ويفهم منه الميزانُ المادّي الذي تُوزَنُ به الأشياءُ، والميزانُ المعنوي الذي تُوزَنُ به الحقائق والأعمالُ والتصرّفاتُ والسلوك².

لقد ذكّر شعيب (عليه السلام) "الكيلَ والميزانَ" معاً لينبّههم إلى وجوب الإيفاء بحسب المعاملة وبحسب ما جُعِلَ سبيلاً للعدل: فإن كان السبيلُ الكيلَ وجب الإيفاء فيه، وإن كان الميزانُ وجب الإيفاء فيه³. وقد سأل الدكتور عبد السلام المجيدي: لماذا قال هنا: ﴿فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ﴾، وقال في سورة هود: ﴿وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾ [هود: 85]؟ فظهر فرقان:

الأول: أنه قال هنا "الكيل"، وقال هناك "المكيال والميزان".

الثاني: أنه قيّد هناك بالإقساط "بالقسط"، وأطلق هنا.

والجواب: أنّ ما في الأعراف كان أوّلاً؛ فأمرهم بالإيفاء مطلقاً، ثم ذكر لهم في مشهدٍ آخر ما حكاه الله في هود فقيّد الإيفاء بالقسط. فترتيب الخبر: قال لهم ابتداءً: "فأوفوا الكيل والميزان"، ثم

¹ فقه الميزان، القره داغي، ص92.

² فقه الميزان، المصدر السابق، ص94.

³ تفسير سورة الأعراف، ص488.

عاد فقال: "أوفوا المكيال والميزان بالقسط"، فأخبرهم في هود أنهم لا يظلمون ولا يُظلمون، وأن المطلوب أن يكون الإيفاء بالقسط¹.

وأما الفرق بين "الكيل" و"المكيال": فالكيل فعل الإكتيال، وأما آله فتُسمّى "المكيال". وقال بعض العلماء: الكيل تسمية أخرى للمكيال كالميزان؛ فُسمي ما يُكأل به بالكيل، كما قيل "العيش" لما يُعاش به؛ أي: فأوفوا الكيل الذي تكيلون به، وأوفوا الميزان الذي تزنون به، ولا تتلاعبوا به نقصًا ولا احتيالاً². ويدخل في هذا: فأوفوا "الكيل" الذي تُقدّمونه للناس (المقدار الذي في المكيال)، وأوفوا "الميزان" الذي تُعطونه للناس. وفُرق بينهما لأنّ الخلل في "الكيل" يكون بالتلاعب في المقدار الذي في المكيال لا في المكيال نفسه، وأما الخلل في "الميزان" ففي نفس الآلة؛ إذ تُتلاعب بها مسبقًا فيظنّ المتعامل - مُشتريًا أو بائعًا - أنه أخذ حقّه كاملاً، والحقيقة أن آلة الوزن قد عُيبت بها³.

لقد شخّص شعيب (عليه السلام) داءات الحياة الاقتصادية لدى قومه تشخيصًا دقيقًا يصلح لكلّ زمانٍ ومكان؛ فأكد عدم التطفيف في الكيل والميزان مرّةً بالأمر بالإيفاء، ومرّةً بالنهي عن الإنقاص. والكيل والوزن من أساليب التجارة القديمة التي لا يُستغنى عنها في أيّ عصر، وإن تغيّرت الوسائل بتقدّم التقنية، لكنها لا تخرج عن حقيقة الكيل والوزن. ولأهمية الأمر توعّد الله المطفّفين بالويل. وقد حثّ الرسول ﷺ على الاستيفاء؛ فعن عبد الله بن عمر (رضي الله عنه): أن رسول الله ﷺ

¹ تفسير سورة الأعراف، المصدر السابق، ص 486.

² تفسير سورة الأعراف، المصدر السابق، ص 489.

³ تفسير سورة الأعراف، ص 489.

قال: "من ابتاع طعامًا فلا يَبِعْهُ حتى يستوفيه"¹. وعن جابر بن عبد الله (رضي الله عنه): قال رسول الله ﷺ: "إذا وزنتم فأرجحوا"².

ولم يكن حثُّه صلى الله عليه وسلم قولاً فقط، بل كان عملياً³: فعن جابر (رضي الله عنه) قال: "لما قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة دعا بميزانٍ فوزنَ لي فزادني"⁴. ولما فهم المسلمون أهمية هذا الأمر اعتنى به المحتسب؛ فكان ينظر في منكرات الأسواق: كبيع المحرّمات، ونقص المقياس، وتطفيف الميزان، والمبيعات المغشوشة، وغيرها⁵.

5. قوله تعالى: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾:

بعد أن أمرهم بالوفاء في الوزن والمكيال، نهى عن البخس في المعاملات كلّها⁶.

والبخس: النقص عن الحقّ مع العلم؛ يُقال: "بَخَسَهُ حَقَّهُ" إذا نَقَصَهُ إِيَّاهُ⁷.

والآية تُبَيِّنُ أن شعبيًا (عليه السلام) نهى قومَه عن جرائمٍ متعدّدةٍ وقبائحٍ متنوّعةٍ تناسب حالهم في الاعتداء على الحقوق ونقصها وبخسها؛ لما فيه من الظلم والعدوان. وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا

¹ البخاري، كتاب البيوع، باب الكيل على البائع والمعطي.

² سنن ابن ماجه، رقم 2222.

³ الاستراتيجية التضامنية في قصة شعيب، ص 159.

⁴ سنن النسائي، كتاب البيوع، باب الزيادة في الوزن.

⁵ الاستراتيجية التضامنية في قصة شعيب، ص 160.

⁶ الاستراتيجية التضامنية في قصة شعيب، ص 160.

⁷ أنبياء في القرآن تركوا آثاراً، ص 162.

النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ ﴿﴾ أَعْمُ مِمَّا سَبَقَ؛ إِذْ يَشْمَلُ النَّقْصَ وَالْعَيْبَ فِي كُلِّ شَيْءٍ؛ يُقَالُ: "بَحَسَهُ حَقَّهُ"،
"وَبَحَسَ مَالَهُ"، "وَبَحَسَ عِلْمَهُ وَفَضْلَهُ"¹.

قال الرازي - رحمه الله - : "لما منع قومَه من البخس في الكيل والوزن، منعهم بعد ذلك من البخس والتنقيص بجميع الوجوه؛ ويدخل فيه المنع من الغصب والسرقة وأخذ الرِّشوة وقطع الطريق، وانتزاع الأموال بطريق الحيل"². وبيّن الطبري أن البخس أنواع³:

● يكون في السلعة بالتعييب والتزهيد فيها.

● أو المخادعة عن القيمة.

● أو الاحتيال للتزويد في الكيل والنقصان منه.

وكلُّ ذلك من أكل أموال الناس بالباطل، وهو مما تُهيى عنه في الأمم على السنة الرسل⁴. وعليه:
فالنهي عن البخس بحسب ما يُضاف إليه، وقد أُضيف هنا إلى أوسع الألفاظ شمولاً، وجيء به بصيغة الجمع: "أشياءهم"؛ إخباراً عن سعة دائرة الجرائم⁵. و"الأشياء" جمع "شيء"، وهو أعمُّ الألفاظ؛ وجمعه يشمل ما للأفراد والجماعات من مكيلٍ وموزونٍ ومعدودٍ ومحسوس، ومن حقوقٍ ماديةٍ ومعنوية⁶. وكما يكون البخسُ في المحسوسات يكون في المعنويات؛ قال الألوسي: "وقد

¹ الكشاف، (74 / 2).

² مفاتيح الغيب، (14 / 180 - 182).

³ الدعوة إلى الله تعالى في سورة هود، عبد الرحمن العوضي، ص 66.

⁴ تفسير القرطبي، (7 / 247).

⁵ الدعوة إلى الله تعالى في سورة هود، ص 366.

⁶ تفسير المنار، (12 / 142).

يُبْخَسُ الرجلُ حَقَّهُ من حسن المعاملة والتوقير اللائق، وبيان فضله على ما هو عليه للسائل عنه¹.
ومن صُورِ البخس المعنوي:

- أن نُبْخَسَ الناسَ أقدارهم.
- أن ننالَ من فضلِ ذوي الفضل.
- أن نطعنَ في أهلِ العلمِ بغيرِ بينةٍ حسداً أو حقداً.

وإن البخسُ آفةٌ في كلِّ زمانٍ ومكانٍ؛ فالعبرةُ بعموم اللفظ لا بخصوص السبب². وتشير الآيةُ إلى الإصلاح الإداري والحقوقِي الذي يحفظ نظام الأمة³. وقد وصف التعبير القرآني ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ﴾ [الأعراف: 85] الواقعَ الإجرامِيَّ لحضارة مدين بدقة؛ إذ البخسُ "نقصُ أصلِ الشيء" أو "نقصُ ما جرت العادةُ بوجوده" مع الإيهامُ بأنَّ الموجود كافٍ وهو دون الحقِّ؛ فهو نُقصانٌ على سبيل الظلم⁴. وتشير الآيةُ إلى أن المملأَ المستكبرين في مدين كانوا يتلاعبون بحقوق الناس: يشترتون بأقلِّ الأثمان ويبيعون بأعلاها، ويُهينون الأقدارَ فلا يُعطون كلَّ ذي حقِّ حَقَّهُ⁵. وعلَّق الشيخ محمد رشيد رضا على الآية: "تشعرُ أنهم كانوا يتواطؤون على هضم الغريب وبخسه... وهي نقيصةٌ فاشيةٌ بين الأمم..."، ومن ثم ساق أمثلةً تاريخيةً ومعاصرةً لعهدِهِ⁶.

¹ روح المعاني، الألوسي، (8/ 177).

² الدعوة إلى الله في سورة هود، ص 713.

³ الدعوة إلى الله في سورة هود، المصدر السابق، ص 713.

⁴ تفسير الأعراف، المجيدي، ص 490.

⁵ تفسير الأعراف، المصدر السابق، ص 491.

⁶ البيتان لقريط العنبري، شرح كتاب الحماسة للفارسي، (2/ 78).

فاللفظُ عامٌّ جدًّا يشملُ الأموالَ وغيرها¹؛ فالبخسُ يدخلُ في المادّياتِ والمعنوياتِ، وهو محرّمٌ على أيِّ إنسانٍ أيًّا كانَ لوئُهُ أو عِرْفُهُ أو دينُهُ أو قومُهُ. ومن دقّةِ ابنِ عاشور (رحمه الله) أنه لخصّ ما أمر به شعيب (عليه السلام) بعد التوحيد في ثلاثة أصول²:

- حفظ حقوق المعاملة المالية.
- حفظ نظام الأمة ومصالحها.
- حفظ حقوق حرّية الاستهداء.

وما جاء هنا أصلٌ لرواج المعاملة بين الناس؛ فالتجارةُ تعتمدُ على الثقة. وبشيوخ الأمانة تزدهر الحركة الاقتصادية وينتعش الناس؛ وبضدّه يختلّ حال الأفراد والدول. وهذا ما أرشد إليه شعيب (عليه السلام).

6. قوله تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾:

نهى شعيب (عليه السلام) عن الفساد في الأرض؛ وقد دعاهم قبل ذلك إلى توحيد الله وإصلاح الاعتقاد؛ لأنّ صلاح الأعمال من صحّة الإيمان. فأمرهم بعبادة الله وحده، وبالوفاء في الكيل والميزان، وترك التطفيف وبخس الحقوق المادية والمعنوية³. ثم انتقل إلى النهي عن "الفساد العام": على مستوى الإنسان والمكان والتشريعات والقوانين والعقائد والأخلاق ومناهج الحياة.

1. "لا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ": أي لا تُوقِعُوا فيها الفساد بالمعاصي وعبادة غير الله كما كنتم تعملون قبل بعثة النبي إليكم. وصيغةُ الجمع تُفيد عمومَ الخطاب؛ لأنّ فساد الجماعة أعظم

¹ تفسير المنار، (8/ 469).

² التحرير والتنوير، 11.

³ أنبياء في القرآن الكريم تركوا آثاراً، ص 162-163.

وأعمُّ ضرراً¹. الفسادُ لغةً معانٍ كثيرة²، جامعةٌ حدِّها: خروجُ الشيءِ عمّا كان عليه من الاعتدال والسلامة، قليلاً كان أو كثيراً³، ويُضادُّه الصلاح⁴.

2. والفساد نوعان⁵: حسيٌّ ومعنويٌّ. فالحسيُّ كفساد اللحم واللبن، وهو أسرعُ في الحيوان ثم النبات ثم الجماد؛ أمّا المعنويُّ فأشدُّ خطراً، ومنه:

- فسادٌ في العبادة والعمل⁶.
- فسادٌ في السلوك والأخلاق.
- فسادٌ في العلوم والمعارف.
- فسادٌ في المعاملة والعقود.
- فسادٌ في التعلّم والحكم والإدارة.

ب. "مفهوم الفساد في القرآن":

جاءت معانيه شاملةً، مع بيان الأسباب والأنواع والآثار والعلاج. ومن الملاحظات⁷: شبهُ تلازمٍ بين "الفساد" و"الأرض" في قرابة أربعين آية (نحو 80%). قال تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾.

¹ المنهاج القرآني في مواجهة الفساد، ص38.

² قانون الشريعة في مكافحة الفساد، ص38.

³ تاج العروس، الزبيدي، (8/ 496-498).

⁴ قانون الشريعة في مكافحة الفساد، ص9.

⁵ قانون الشريعة في مكافحة الفساد، المصدر السابق، ص12.

⁶ قانون الشريعة في مكافحة الفساد، المصدر السابق، ص13.

⁷ قانون الشريعة في مكافحة الفساد، المصدر السابق، ص40.

ومرّة حُدِّدَ بالبِرِّ والبحر: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ [الروم: 41].

ومرّة بالقرى (الحواضر)، في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا﴾ [النمل: 34].

ومرّة بالبلاد: ﴿الَّذِينَ طَعَوْا فِي الْبِلَادِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ﴿١٢﴾﴾ [الفجر: 11-12]. وأحياناً يُذكر متعلّقًا بالسموات والأرض: ﴿وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ [المؤمنون: 71].

ويستعمل القرآن "الفساد" استعمالاً واسعاً: العقديّ، والاقتصاديّ، والاجتماعيّ، والأخلاقيّ، والسياسيّ، والأمنيّ، والماليّ، والإداريّ¹. وهو مقابلُ الصّلاح، ويأتي بمعنى القطيعة وقطع الأرحام (الرعد/محمد)، وبمعنى الطغيان (الفجر: 12). وكثرة الآيات المكيّة في الفساد لطبيعة المجتمع المكيّ آنذاك²، بينما في المدينة حَفَّ حضوره لقيام الدولة القرآنية وظهور النفاق³.

يبين شعيب (عليه السلام) أن من أهمّ واجبات المصلحين النهي عن الفساد وبيان عاقبته ورسم طريق الإصلاح. ويدخل في نهيهِ: إفسادُ العقول بالأفكار الشيطانية، وإذلالُ الناس واستعبادهم، وتدميرُ البيئة وخيراتها، والإسرافُ في الموارد، ونشرُ الفواحش، والربا، والرشوة، وبيعُ الحكم، وتنصيبُ المجرمين، وإثارةُ العصبية وتحويلها إلى نزاعاتٍ وحروب، وتكوينُ مليشياتٍ تُشعلُ الأهلية، والإضرارُ بالمناخ والطبيعة⁴. ويرى رشيد رضا - رحمه الله - أن "الإفساد في الأرض" يشمل: إفساد

¹ قانون الشريعة في مكافحة الفساد، المصدر السابق، ص 41.

² قانون الشريعة في مكافحة الفساد، المصدر السابق، ص 42.

³ قانون الشريعة في مكافحة الفساد، المصدر السابق، ص 42.

⁴ تفسير سورة الأعراف، المجيدي، ص 500.

نظام الاجتماع بالظلم وأكل أموال الناس بالباطل، والبغى والعدوان على الأنفس والأعراض، وإفساد الأخلاق والآداب، وإفساد العمران بالجهل وغياب النظام¹.

ج. "بَعْدَ إِصْلَاحِهَا":

إنّ الله أصلح الأرض، وهبها للناس، وأعطى الإنسان الملكات والقدرات لاستثمارها وفق سننه؛ فيدلّ التعبير على أن للأرض إصلاحاتٍ عظيمة²:

- إصلاحاتٌ بيئيةٌ كبرى: ﴿قُلْ أَنتُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ ... وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِي ... وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا﴾ [فصلت: 9-10]؛ فالأقوات مضمونة لو كُفِيَ الفساد. وقال: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ... مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾ [النازعات: 30-33]³. وقال: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ... فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ ... أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا...﴾ [النمل: 60-61].
- إصلاحاتٌ تنظيميةٌ تشريعية: تمت ببعثة الرسل (عليهم السلام) الذين أشاعوا الرشد ومنهج الله؛ أي: لا تُفسدوا بعد ما أصلح فيها الصالحون من الأنبياء وأتباعهم العاملين بشرائعهم⁴. وقال رشيد رضا: "وإصلاحها ما يصلحُ به أمرها وحالُ أهلها من العقائد الصحيحة، والأعمال الصالحة المُرَكِّبة للأنفس، والأعمال المُرَقِّبة للعمران وحسن المعيشة" ... وقد: ﴿مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ﴾ [الأعراف: 10]؛ فالإفساد إزالةٌ صلاحٍ أو إصلاح⁵.

¹ تفسير المنار، (8 / 469).

² تفسير سورة الأعراف، المجيدي، ص 500.

³ تفسير سورة الأعراف، المصدر السابق، ص 501.

⁴ تفسير سورة الأعراف، المجيدي، ص 501.

⁵ تفسير المنار، (8 / 470).

7. قوله تعالى: ﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: 85]:

أ. ﴿ذَلِكُمْ﴾: يرجع اسمُ الإشارةِ إلى جميع ما تقدّم من معالم الإصلاح النبويّة الإسلاميّة التي قام بها شعيبٌ (عليه السلام)، لذلك جُمِعَت كلمةُ (ذلكم) ولم تُفرد؛ لأنّ المذكور مجموعة أركانٍ حُوطِبَ بها عددٌ كبيرٌ من الناس، وتوجّه شعيبٌ (عليه السلام) بالخطاب إلى جميع مَنْ أمامه. فأما المؤمنون فليُطبّقوا مقتضيات إيمانهم وليُكمّلوا إيمانهم بالتشريعات التي يفرضها إيمانهم، وأما الكافرون فليدهّم على أهمّ الأمور التي تُنظّم حياتهم ويكونوا بها الإدارة الراشدة في مجتمعاتهم. فقد أخبرهم بضرورة الإصلاح العقديّ والإيمان بأن يعبدوا الله عزّ وجلّ ويُوخّده في هذه العبادة، فقال: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: 85].

وأخبرهم بضرورة التسليم للحُجج القويّة المقنّعة ماديّة كانت أو معنويّة، فقال: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: 85].

قَصَصُ الإصلاح الكبرى والاستقامة في الدنيا، والاستقامة فيها خيرٌ للمؤمنين كما هي خيرٌ للكافرين، ولكن هذه الخيريّة لا تتحقّق إلاّ أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد، وكانت هذه الأنواع العظيمة من الإصلاح من أدلّة عظيم الإيمان .

ب. ﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾: فما أرشدكم إليه خيرٌ لكم؛ فهو الذي يُحقّق لكم كلّ ما تطلبون من المكاسب الماديّة والعقليّة والنفسيّة والروحيّة في الحياة العاجلة والآخرة. وهو خيرٌ لكم في الواقع الإنساني، وخيرٌ لكم في بقاء الدّكر وحُسن السُّمعة وطيب الأحداثة، وخيرٌ لكم فيما تطلبونه من المعنى والتكسّب والترُّب¹.

¹ تفسير الأعراف، المحيدي، ص503.

فالخيريّة في خطاب شعيبٍ (عليه السلام) في تطبيق ما أمرَ به ونهى عنه؛ ومن ثمار ذلك رغدُ العيش، واستقرارُ المجتمعات، وحُسنُ التعامل داخل الشعوب والأمة الواحدة، وحُسنُ الجوار مع سائر الأمم. وتكون العلاقات قائمةً على الاحترام وتبادل المنافع، وإقامة العدل، ورفضِ البُخس بين الناس. فالتنكير في قوله (خَيْرٌ) للتعظيم والكمال؛ لأنّه جامعٌ خيريّ الدنيا والآخرة¹.

ج. ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾: يقول شعيبٌ (عليه السلام) لقومه: هذا الذي ذكرتُ لكم وأمرتُكم به من إخلاص العبادة لله وحده لا شريك له، وإيفاء الناس حقوقهم من الكيل والوزن، وترك الفساد في الأرض، خيرٌ لكم في عاجل دنياكم وآجل أُخراكم عند الله عزّ وجلّ يوم القيامة، ﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: 85]. إن كنتم مُصدّقين فيما أقول لكم وأؤدّيه إليكم عن الله من أمره ونهيه.

فالخيريّة تتحقّق للمؤمن، أيّ المصدّق المتّبِع، وليس للمتلاعب الذي يأكل أموال الناس ويغتصب الحقوق ويأخذ أراضيهم بغير حق. وخسارة المؤمنين؛ لأنّ الكافر المعادي (ناقص المدارك، كاملُ المهالك) كما يقول البِقاعي².

﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾: إنّ الإيمان بالله عزّ وجلّ وإفراده بالعبادة هو أساسُ كلّ خيرٍ في الأرض، وإصلاحُ الحال البشري، والتحرُّر من جميع المسالك والطرق والمناهج الإبليسيّة التي تُفسد عقائد الناس في حياتهم الاجتماعيّة والاقتصاديّة والنفسيّة والسياسيّة... إلخ.

¹ تفسير الأعراف، المصدر نفسه، ص504.

² نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، (7/ 461).

﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾: فترك المعاصي ابتداءً لأمر الله وتقرُّباً إليه خيرٌ وأنفع للعبد من ارتكابها، وهو الموجب لسخط الجبار وعذاب النار¹.

﴿إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾: إن هناك إلهًا يعلم ما تفعلونه وسيحاسب وسيعاقب، وحينما تؤمن أن لكل شيء عقاباً ولكل حسنٍ ثواباً ينبغي أن تستقيم. فالدين سلوك، والدين معاملة، والدين انضباط، والدين صدق، والدين أمانة، والدين ورع، والدين إنصاف، والدين نصيحة، والدين استقامة، والدين التزام بالأوامر واجتناب للنواهي².

ثانياً: قوله تعالى ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُوهَا عِوَجًا وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَرْتُمْ وَاَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: 86]:

في تفسير الآيات:

1. عند قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ﴾:

رجح الطبري (رحمه الله) أن قوم شعيب (عليه السلام) كانوا قُطَاعَ طريق، ولذا نهاهم عن ذلك بقوله: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ﴾³.

وزجرهم عن قطع الطريق وعن تهديد المارين، فالقعودُ بكلِّ صراطٍ يدلُّ على أنهم يفعلون فعلَ الكامن (المترصّد المقبل بكلّيته)⁴ على فريسته لتدميرها أو لإضلالها والاستحواذ عليها.

¹ تفسير السعدي، ص 361.

² تفسير النابلسي، (4/ 581).

³ تفسير الطبري، (12/ 558).

⁴ تفسير الأعراف، ص 509.

كانوا يلجؤون إلى ما يُشبه القرصنة المحليّة والدوليّة؛ فيقعدون على كلّ طريق يتوعّدون المارّين فيها ويهدّدونهم.

﴿وَلَا تَقْعُدُوا﴾: التعبيرُ بالقعود عند فعل تلك الجرائم يدلّ على الملازمة والإصرار، كما تُصوّر هذه الكلمة الكمون والهدوء والترئص والترصّد ثمّ الانقضاض على المستهدف، كما ينقض الوحش على الفريسة البريئة الغافلة¹.

﴿بِكُلِّ صِرَاطٍ﴾: أيّ بكلّ منهاجٍ من منهاج الدين. والدليل على أنّ المراد بالصرّاط سبيل الحقّ قوله تعالى بعد: ﴿وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾. فالمعنى: لا تقعدوا مُتوعدين وصادّين عن سبيل الله وباغين لها عوجًا².

وصراطُ الحقّ واحد، ولكنّه يتشعب إلى معارف وحدود وأحكام مختلفة. فكانوا إذا رأوا أحدًا يشرع في شيءٍ منها عادّوه وصدّوه. ومن ذلك: طريقُ الشهادتين، وطريقُ الصلاة، وطريقُ الزكاة والحج والصيام، وتركُ الزنا، وتركُ الربا، وتركُ القتل الحرام... إلخ.

فكل هذه الطُرق تدخل ضمن صراط الحقّ الواحد، وبهذا لا يكون معنى الآية قاصرًا على قطع الطريق الحسّي، بل يشمل أيضًا الصدّ عن شرائع الدين المتنوعة. وقد قام الملائم المستكبرون من قوم شعيبٍ بالصدّ عنها جميعًا³.

¹ تفسير سورة الأعراف، المجيدي، ص511.

² جوانب في قصة شعيب، إيمان تميم العدناني، ص73.

³ تفسير سورة الأعراف، ص513.

﴿تَوَعَّدُونَ﴾: أي تُهَدِّدون غيركم بشتى أنواع التهديد؛ فيدخل فيها الوعيدُ بالسجن أو بقطع المعاش أو بالتعذيب أو بالضرب وسلب المال والإيذاء النفسي والجسدي. وكانوا أيضًا يتوعدون الناس بأن يُنزِلوا بهم العقوباتِ والمصائبِ المختلفة إن هم اتَّبَعوا شعبيًّا (عليه السلام)¹.

2. قوله تعالى: ﴿وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ﴾:

لامَ شُعَيْبٍ (عليه السلام) المستكبرين من قومه أن يُشكِّلوا جماعات الصَّيْدِ؛ فيتصدَّوا بكلِّ الطُّرُق لمنع الناس من سلوك سبيل الله².

﴿وَتَصُدُّونَ﴾: الواو لربط ما بعدها بما قبلها، وكأنَّه يقول لهم: تقومون الآن بأمرين:

● تقعدون بكلِّ سبيلٍ أي طريق واضح معروف، قعودَ المتربِّص الماكر، تُوعِدون مَنْ يفكِّر بالالتحاق بالمؤمنين.

● وكذلك تقعدون لتصدَّوا عن سبيل الله كلِّ مؤمن به.

وكلمة ﴿تَصُدُّونَ﴾ تُصوِّرُ بقوة هائلة هذه الأنشطة المجرمة لهم، مشتقة من كلمة "صدَّ" يصدُّ صدودًا وصدَّى. فالصدُّ هو الميل إلى أحد الجانبين إعراضًا عمَّا هو أمامه.

فالسدود والصدُّ: تكوين حاجز يمنع من الوصول إلى جهة يقصدها الإنسان. فقد يكون تكوين الحاجز لمنع النفس، وقد يكون لمنع الآخرين. نحو قوله عز وجل: ﴿يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا﴾ [الإسراء: 46] أي يصدِّون أنفسهم وغيرهم. وقوله عز وجل: ﴿وَرَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانَ أَعْمَاهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ﴾ [النمل: 24].

¹ تفسير سورة الأعراف، المصدر السابق، ص 515.

² تفسير سورة الأعراف، ص 516.

انظر كيف تكشف كلمة ﴿يَصُدُّونَ﴾ أحوالهم النفسيّة؛ فأحياناً يفكّرون: ما المانع أن نلتحق بسبيل الله؟ فيأتون إلى أنفسهم فيمنعونها عند هذا التفكير أن تسلك سبيل الله. كما حصل عند اعتراف أبي جهل بصدق النبي ﷺ أمام عددٍ من الكفار مثل الأخنس بن شريق والمعيرة بن شعبة قبل إسلامه¹.

وكذلك كثير من المعاصرين من الكفار أو ممن ينتهج سبيل البدعة المغلظة؛ يفكّر أحياناً بأن يلتحق بسبيل الله، وربما كان مجرماً فيفكّر بأن يترك إجرامه، فتأتيه نفسه الأمانة بالسوء فتصدّه بأن تجعل حاجزاً بينه وبين سبيل الله، مثل التفكير في الدنيا، أو في الشهوة، أو في الهوى.

﴿عَنْ﴾: وهي للمجاورة، أي تصدّون مجاوزين سبيل الله إلى غيرها.

﴿سَبِيلِ اللَّهِ﴾: أي طريق الله عز وجل الواضح البين الذي يسير فيه الناس طالبين ربه، راغبين فيما عنده، ملتزمين بحدوده وقوانينه.

﴿مَنْ آمَنَ بِهِ﴾: أي تصدّون الذي آمن بالله عز وجل عن أن يسلك سبيله.

وعند التأمل والتفكير والتدبّر في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ﴾، نجد أنّ الإبعاد والصدّ يجتمعان على منع العالم من سماع الخير. فقد يكون المنع بالإبعاد بالمضاد، وقد يكون بالوعد بالمنافع والمصالح².

فيقولون لهم: لا تتبعوا هذا السبيل، وسنحقّق لكم الشهرة، أو نجعلكم في المناصب العالية، أو نُلبّي لكم رغباتكم في قضاء الشهوات وتوفير الأموال. وهكذا يمنعونهم من أن يسمعوا النبي شُعَيْبًا (عليه

¹ تفسير سورة الأعراف، المصدر السابق، ص 517.

² تفسير سورة الأعراف، المصدر السابق، ص 518.

السلام). وهكذا يجري الأمر مع سائر الدعاة، فيكون المعنى: "تُوعِدُونَ وتصدّون عن سبيل الله من آمن بالله". ويصح أن يكون المعنى: "تُوعِدُونَ وتصدّون عن سبيل الله من آمن بسبيل الله"، لأن كلمة "سبيل" تُدَكَّر وتُؤنَّث، والمؤدّى واحد. وكلمات سيّدنا شُعَيْب العظيمة هذه تُبَيِّن لنا أنّه قد تأثّر بكلامه بعض قومه فاتّبعوه، وأنّ بعضاً منهم بدأ يميل إليه وهو متردّد في اتّباعه، وأنّه قد تسمع به من هم حول مَدِين فجاؤوا إليه يريدون الإيمان برسالته ودعوته، والمستكبرون من قومه يصدّونهم، ولم يدعوا طريقاً تُوصل إلى شُعَيْب (عليه السلام) إلا قعدوا بها، يتوعّدون من جاء، ويخوّفونهم، ويزوِّرون الحقائق ليمنعوا الناس من اتّباعه¹.

لقد بيّنت هذه الآية الكريمة أنّ المملأ المستكبرين من قوم شُعَيْب قاموا بتنفيذ الحُطّة الشيطانية التي أوعز بها إبليس حرفياً عندما قال: ﴿قَالَ فِيمَا أُغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الأعراف: 16].

لقد قعدوا في كل صراط معنوي يؤدي إلى الحق، يتوعّدون من سلكه، ويهدّدون من سار عليه، ويثّثون الشبه للتنفير من البقاء فيه. فهذا من معاني ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ﴾. فكان شُعَيْباً (عليه السلام) يقول لهم: أنتم نوابّ عن الشيطان الذي أقسم أن يقعد بكل صراط مستقيم، ففعلتم الأمر نفسه، وصيرتم نوابّاً للشيطان في أداء مهمته.

فكانوا يقعدون بكل صراطٍ: أي بكل طريقٍ من طرق الدنيا والدين، من الحلال والحرام، والأوامر والنواهي، والمحكم والمتشابه². فيصدّون عن سبيل الله³.

¹ تفسير سورة الأعراف، المصدر السابق، ص 519.

² تفسير سورة الأعراف، المصدر السابق، ص 520.

³ نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، (7/ 461).

3. قوله تعالى: ﴿وَتَبَّغُوْنَهَا عِوَجًا﴾:

حَدَّرَهُمْ شُعَيْبٌ (عليه السلام) من إظهار سبيل الله معوجةً أمام الناس.

﴿تَبَّغُوْنَهَا﴾: تطلبونها طلبًا حثيثًا قويًّا يكاد أن يصل إلى مرحلة البغي. فكلمة "تبغون" ليست مثل "تطلبون" أو "تريدون"، بل هي أقوى في وصف حالهم. والهاء في ﴿تَبَّغُوْنَهَا﴾ تعود على سبيل الله، والمعنى: تطلبون سبيل الله عِوَجًا؛ أي منحنيةً مائلةً غير مستقيمة كما هي حالها. يطلبون ذلك طلبًا حثيثًا دائمًا بالتخطيط المصمَّم والتنفيذ المدمَّر، ويقيمون بالدعاية المضادة المضلِّلة ضد دعوة شُعَيْب (عليه السلام)، ويُلقون شكوك الشبهات حولها لينقروا الناس عن جمالها وصفائها وحققتها بكلِّ الأسباب المتاحة لهم.

وتعميق منهجهم الشيطاني بين الناس بالترغيب والترهيب، وفي ترسيخ الشرك، ومحاربة التوحيد، وبخس الناس، وفي التلاعب في المكيال والميزان. ويتعاملون مع دعوة شُعَيْب (عليه السلام) بالصدِّ عنها، وإظهارها معوجةً بين الناس لتفجيرهم عنها، وانقيادًا لأهوائهم ورغباتهم المحرَّمة، فأصبحوا من جُند إبليس¹.

4. قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَرْتُمْ﴾:

قال السعدي (رحمه الله): ﴿وَأَذْكُرُوا﴾ نعمة الله عليكم ﴿إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَرْتُمْ﴾، فالله أنعم عليكم بالزوجات والنسل والصحة، ولم يبتليكم بوباء أو مرضٍ من الأمراض المقلِّلة لكم، ولم يُسلِّط عليكم عدوًّا يحتاجكم، ولا فرَّقكم في الأرض، بل أنعم عليكم باجتماعكم، وإدرار الأرزاق، وكثرة النسل².

¹ انظر: تفسير سورة الأعراف، ص 524-525.

² تفسير السعدي، ص 362.

وقال الطبري (رحمه الله) في تفسير الآية: يذكّرهم شُعبَ نعمة الله عندهم بأن كثر جماعاتهم بعد أن كان قليلاً عددهم، وأن رفعهم من الذلّ والخساسة. يقول لهم: فاشكروا، اذكروا الله الذي أنعم عليكم بذلك، وأخلصوا له العبادة، واتقوا عقوبته بالطاعة، واحذروا نعمته بترك المعصية¹.

وقال محمد الأمين عبد الله الهرري (رحمه الله): أي وتذكروا الزمن الذي كنتم فيه قليلين العدد، فكثركم الله سبحانه وتعالى بما بارك في نسلكم، فاشكروا له ذلك بعبادته وحده، واتباع وصاياه في الحق، والإعراض عن الفساد في الأرض. وقيل: المعنى إذ كنتم مُقلّين فقراء فجعلكم مُكثرين مُوسرين. وقيل: إذ كنتم أدلة قليلين عددًا، فأعزّكم بكثرة العدد والعدد².

- ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ﴾: لما كانت أفعالهم تُنقص الناس، إمّا في الأموال بالبُخس، وإمّا في الإيمان والنصر بالصّدّ، ذكرهم أن الله تعالى فعل معهم ضدّ ذلك؛ من التكنير بعد القلّة. فقال: ﴿فَكَثَّرَكُمْ﴾ أي كثر عددكم وأموالكم وكل شيء يُنسب إليكم، فلا تقابلوا النعمة بضدّها³. وقال تاج القراء الكرمانى في تفسيره للآية: "فأكثر عددكم". وقيل: كنتم فقراء فأغناكم. وقيل: كنتم عَجْزة فجعلكم ذوي مقدرة⁴.

وقال الدكتور عبد السلام المجيدي في تفسيره للآية: ﴿وَاذْكُرُوا﴾؛ أي استحضروا في عقولكم وتصوراتكم أنكم كنتم قليلًا، فكثركم، فلا تُهمّلوا تذكّر ذلك حتى يقودكم إلى فهمٍ أعلى وعملٍ أقوى تُفيدونه من هذا التذكّر.

¹ تفسير الطبري، (8/ 443).

² تفسير حدائق الروح والريحان، الهرري، (9/ 433).

³ التفسير المحرر للقرآن الكريم، (6/ 352).

⁴ لباب التفسير، الكرمانى، (3/ 422).

وجنس الذكر سُمِّيَ بذلك لأنه يعود إلى حضور الشيء وقوته وصلابته، بدلاً من ذهابه ونسيانه واضمحلاله أو استخفائه. فالذكر - كما يقول الراغب¹ (رحمه الله) - هيئةٌ للنفس بما يمكن للإنسان أن يستحضر ما يقتنيه من المعرفة، فيضاد ذكر النسيان والإهمال والتَّرك².

- ومعنى ﴿وَادْكُرُوا﴾: فلا تنسوا حتى لا تقعوا في التصرفات الخاطئة.

- ﴿وَادْكُرُوا﴾: لئلا تقعوا في القرارات السيئة لأنكم أهملتم الطريق الصواب³.

- ﴿إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ﴾: هذا التذكير من شُعَيْب (عليه السلام) يُبَصِّرنا بأن الكثرة السكانية كانت نعمةً وليست نقمةً، وهذا يعني أنهم استفادوا كثيراً من هذه الكثرة، فلم تكن الكثرة كما يُطلق عليها بعضُ فاسدي الإدارة "الانفجار السكاني" ثم يُحْمَلونها فشلهم الإداري. وحرِيٌّ بالأمّة أن تسعى لكثرة السكان، وحرِيٌّ بمن يلي أمرها أن يعدّ كثرة السكان من أعظم علامات الاعتزاز والارتفاع بين الأمم⁴.

ولذا قال أنس (رضي الله عنه): كان رسول الله ﷺ يأمر بالباءة، وينهى عن التبثل نهياً شديداً، ويقول: "تزوجوا الودود الولود، إني مكاثّر الأنبياء يوم القيامة"⁵.

¹ تفسير سورة الأعراف، ص526.

² تفسير سورة الأعراف، ص526.

³ المفردات في غريب القرآن، ص197.

⁴ تفسير سورة الأعراف، ص527.

⁵ تفسير سورة الأعراف، المصدر السابق، ص529.

5. قوله تعالى: ﴿وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾:

أرشد شُعَيْب (عليه السلام) قومه إلى الاعتبار بالتاريخ، وسنن الله في الكون، فطلب منهم أن يُحَرِّكُوا عقولهم بالنظر المعبر في مصائر مَنْ سبق من المفسدين¹.

﴿وَانظُرُوا﴾: النظر هو تحريك البصر للتأمل في شيء محسوس أو شيء معقول مُقَدَّر. فالنظر حقيقته في السياق: شدة التفكير وقوته. فלشدة التفكير في الأمر كأنك تنظر إليه وتُعَايَنُه وتعرف أوله وآخره وتفصيله، كأنك تنظر إليه².

- ﴿كَيْفَ كَانَ﴾: انظر الكيفية التي وقعت لمن وُجِدَتْ كينونته قبلكم.

- ﴿عَاقِبَةُ﴾: الخاتمة المتصلة بحياة المفسدين اتصال آخر القدم بالجسد.

- ﴿الْمُفْسِدِينَ﴾: من "أفسد"؛ إذا أزال شيئاً مما صَلَحَتْ عليه الأرض أو الإنسان أو الحياة.

وجاءت هذه الكلمة على اسم الفاعل، يدلّ على رسوخهم في الإفساد. وإذا كانوا مفسدين فإنهم لا بد أن يكونوا فاسدين.

معنى الآية: انظروا متأملين متفكرين في تُؤدّة ورويّة، وقلب فكر فيما نزل بمن كان قبلكم من الأمم، حين عتوا عن أمر ربهم وعصوا رسله، انظروا ما حلّ بهم من المثّلات والنّقم والمصائب، وكيف

¹ مسند أحمد، رقم 12613.

² تفسير سورة الأعراف، ص 530.

وجدوا عاقبة عصيانهم ربهم في آخر أمرهم. ألم يُهلك بعضهم غرقًا بالطوفان، وبعضهم رجماً بالحجارة، وبعضهم بالصيحة؟¹

وهنا المقصود: لا تُهملوا كلامي ولا تُعارضوه، مغترّين بقوّتكم وكثرتكم واستقرار أموركم وقوّة عددكم وعدّتكم، بل انظروا إلى آخر أمر المفسدين الذين كانوا من قبلكم، فلا تغتروا ببداياتهم ولا بضحكاتهم، بل انظروا إلى نهايتهم كقوم نوح وهود وصالح ولوط (عليهم السلام). وكانوا قريبي عهدٍ مما أصاب المؤتفكة.

وقد فصلّ الله عز وجل قول شعيب في سورة هود (عليه السلام): ﴿وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمِ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ﴾ [هود: 89]².

قال الطاهر بن عاشور (رحمه الله): المراد بالمفسدين الذين أفسدوا أنفسهم بعقيدة الشرك، وبأعمال الضلال، وأفسدوا المجتمع بمخالفة الشرائع، وأفسدوا الناس بمدّهم بالضلال وصدّهم عن الهدى³.

- ﴿الْمُفْسِدِينَ﴾: أي الذين عُرفوا بالإفساد. وهذا الخطاب ﴿فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ مقصودٌ منه الكافرون بقوم شعيب ابتداءً، وفيه تذكير للمؤمنين منهم بنعمة الله؛ فإنها تشملهم بالاعتبار بمن مضوا، فإنه ينفعهم. وفي هذا الكلام تعريض بالوعد للمسلمين، وبالتسلية

¹ تفسير الطبري، (12 / 560).

² تفسير سورة الأعراف، ص 531.

³ التحرير والتنوير، (4 / 326).

لهم على ما يلاقونه من مفسدي أهل الشرك؛ لانطباق حال الفريقين على حال الفريقين من قوم شُعَيْب (عليه السلام)¹.

ثالثاً: قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِّنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ [الأعراف: 87].

إنَّ الآياتِ الكريمةَ في سورة الأعرافِ كشفتُ لنا عن جوانبِ عدَّةٍ في شخصيةِ شُعَيْبٍ عليه السلام: شُعَيْبِ النبي، الداعية، والمصلح الاجتماعي، والشخصية القيادية الفدَّة، والرجل القويِّ الصلب الثابت على مبدئه في مواجهة الشدائد، كلُّ ذلك من خلال حركة الشخصية الإيجابية في واقعها، مع وعيها العميق بهذا الواقع.

وفي هذه الآية الكريمة، والتي بعدها، تظهرُ لنا الآيات الكريمة الملمح الأبرز من ملامح شخصيته، وهو الجانب القيادي؛ فهو رأسُ فئَةٍ مستضعفةٍ من مجتمع مدين، تتعرَّضُ للاضطهاد بسبب مخالفتها لمعتقد مجتمعها السائد، وهو يحاول أن يدفع الأذى عن جماعته بكلِّ وسيلة متاحة في ظلِّ الظرف الموضوعيِّ القائم.

فتبرُّز شخصيته الفدَّة في كيفية التعامل بواقعية، وتحمل المعاناة، ولا يتنازل عن شيءٍ من أساسيات دعوته، فعرض على قومه عرضاً أساسياً: نهاهم عن إيذاء جماعته، وحدَّتهم عاقبة هذا الفعل، ولتبقى كلُّ طائفةٍ على معتقدِها، كي يُحافظَ على من معه ممَّن آمنوا، ويُنظَّم صفوفهم.²

¹ التحرير والتنوير، المصدر السابق، (4/ 326).

² الشخصيات القرآنية، د. نزيه محمد اعلاوي، ص 79.

1- قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِّنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ، وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا﴾

إنَّ سيدنا شُعَيْبًا عليه السلام تعاملَ مع قومه بالحكمة التامة، إذ أخبرهم أنَّ كلَّ فردٍ منهم اختارَ القرارَ الذي يُناسبُه، فأصبحَ قومُ شُعَيْبٍ فريقين: فريقٌ آمنَ برسالتِه، وفريقٌ لم يُؤمنْ بها، وطلبَ منهم الصبرَ حتى يفصلَ اللهُ بين الفريقين، وهذا يعني إعلانَ عدمِ الاعتداء، وذلك منتهى الحكمة. وعبرَ سيدنا شعيب عليه السلام بـ"الطائفة" عن كلِّ من الجهتين.

والتعبيرُ بـ"الطائفة" له مدلولٌ قويٌّ في تصويرِ الأحداثِ والوقائعِ حينئذٍ، فكلُّ من الفريقين اتخذَ شكلَ التَّحزُّبِ المَكْتَفِ، وصارت كلُّ طائفةٍ متعاطفةً مع قضيتِها، متعاونةً مع أصحابِها، كالذي يطوفُ حولَ مركزٍ لا يفارقه؛ فالطائفةُ جماعةٌ يتحلَّقون حولَ مركزٍ يُمثِّلُ قيادةَ الطائفةِ أو معتقداتها.

فهي مُشتقَّةٌ من (طاف)، وهي كلمةٌ تدلُّ على دورانِ الشيءِ على الشيءِ¹، وأنَّ يحفَّ به، والطوافُ: المشيُّ حولَ الشيءِ، يُقال: طاف به، وبالبيتِ يطوفُ طَوْفًا وطَوَافًا، وأطافَ به، واستطاف. قال تعالى: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ [البقرة: 158].

والطَّوْفَانُ: كلُّ حادثةٍ تُحيطُ بالإنسانِ كأنها تطوفُ به، لا تتركه. وعلى ذلك قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ﴾ [الأعراف: 133].

فصار قومُ شُعَيْبٍ عليه السلام طائفتين: طائفةٌ تنصُرُ الحقَّ، والطائفةُ الأخرى تُعاديهِ، وهذه سُنَّةٌ كونيَّةٌ دائمةٌ، وبهذا تتحقَّقُ سُنَّةُ التدافُّعِ بين الناسِ، وهي من السُّننِ الربانيةِ التي يجب الوقوفُ عندها، وعدم نسيانها أو الغفلةِ عنها. والمتأملُ في دعوة شُعَيْبٍ عليه السلام مع قومه، يلمسُ هذه

¹ تفسير سورة الأعراف، ص533.

السُّنَّة بوضوحٍ وجلاءٍ؛ فالصراعُ والمدافعةُ بين الحقِّ والباطلِ وُجِدَ منذ أن أهبط آدم عليه السلام، وأُضْمِنَتْ حَوَاءٌ على هذه الأرض، ومعه إبليسُ الملعون، أعادنا الله منه.

واقترضتُ حكمةَ الله عزَّ وجلَّ أن يستمرَّ هذا الصراعُ إلى أن يرثَ اللهُ الأرضَ ومن عليها، بين حزبِ الله عزَّ وجلَّ، وحزبِ الشيطان. وليس بالضرورة أن تكونَ المدافعةُ أو أن يكونَ الصراعُ بالقتالِ والسلاح؛ بل إنه يكونُ بغيرِ ذلك، وما القتالُ إلا مرحلةٌ من مراحلِ هذا الصراع.

فإقامةُ الحُجَّةِ على الباطلِ وأهله: مدافعة، وإزالةُ الشُّبُهَةِ عن الحقِّ وأهله: مدافعة، والأمرُ بالمعروفِ والنهي عن المنكر: مدافعة، والصبرُ على ابتلاءِ الأعداءِ من الكفرةِ والظلمة: مدافعة¹.

2- قوله تعالى: ﴿فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾:

لقد بيّن شعيبٌ عليه السلام النتيجةَ لهذا الانقسامِ الخطيرِ إلى مؤمنين وغيرِ مؤمنين، وتظهرُ هذه النتيجةُ في جوابِ الشرطِ في قولِ شعيب عليه السلام²: ﴿فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا﴾، أي بين الفريقين؛ بأن ينصرَ المحقِّين على المبطلين، ويُظهرهم عليهم، سواءً كان المحقون هم الطائفةُ الأولى أو الثانية. فكلامُ سيدنا شعيبٍ عليه السلام له وجهان:

الأول: أنه وعيدٌ لإحدى الطائفتين بانتقامِ الله عز وجلّ منهم، إن كانوا هم المخالفين لأمره، وهذا كقوله تعالى معلِّماً النبي ﷺ: ﴿فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ﴾ [التوبة: 52].

¹ وقفات تربوية في ضوء القرآن، عبد العزيز الجليل. (3/ 212)،

² تفسير سورة الأعراف، المصدر السابق، ص. 535.

الثاني: أنه يحمل وعدًا مُبطنًا للمؤمنين بأنَّ الله جلَّ جلاله سينصرهم، ولكنَّ هذا الوعد جاء على هيئة موعظةٍ للمؤمنين، يحثهم فيه على الصبرِ واحتمالِ ما كان يُلحقهم من أذى المشركين، إلى أن يحكمَ الله عز وجل بينهم، وينتقمَ لهم منهم.

فصار كلامُ شعيب عليه السلام هنا خطابًا للفريقين بالصبر: ليصبرَ المؤمنون على أذى الكفار، وليصبرَ الكفارُ على ما يسوءهم من إيمانٍ من آمن منهم، حتى يحكمَ اللهُ عز وجل بين الفريقين، فيُميِّزَ الخبيثَ من الطيب¹.

﴿فَاصْبِرُوا﴾: الصبرُ حبسُ النفسِ في حالِ الترقبِ، سواءً كان ترقبَ محبوبٍ أو ترقبَ مكروهٍ. وأشهرُ استعمالاته يُطلق على حبسِ النفسِ في حالِ فقدانِ الأمرِ المحبوب.

وقد جاء في هذه الآية مُستعملاً في القدرِ المشترك، لأنَّه حُطِبَ به الفريقان: المؤمنون والكافرون، وصبرُ كلِّ بما يُناسبه. ولعلَّه يُرجَّح أنَّ الخطابَ حالُ المؤمنين، ففيه إيذانٌ بأنَّ حُكْمَ المترقبِ هو في منفعة المؤمنين².

وقد قال بعضُ المفسرين: إنَّه خطابٌ للمؤمنين خاصة. و(حتى) تفيدهُ غايةُ الصبر، وهي مُؤذنةٌ بأنَّ التقدير: وإن كانت طائفةٌ منكم آمنت، وطائفةٌ لم تؤمن، فسيحكمُ اللهُ، فاصبروا حتى يحكمَ اللهُ³. ومن أظهرِ معاني الصبر: حبسُ النفسِ على المكروه.

¹ تفسير سورة الأعراف، ص 536.

² وقفات تربوية في ضوء القرآن، المصدر السابق، (213/3).

³ التحرير والتنوير. (327/4)،

﴿بِحُكْمِ اللَّهِ بَيْنَنَا﴾: أي حتى يفصلَ بعدله بيننا، في الوقت الذي تقتضيه حكمته. وتبين الآية إيمانَ شعيب عليه السلام بحُكْمِ الله، وأَنَّهُ لا يَنْتُمُ إلا ما أَرَادَهُ اللهُ، فما القضاء والحكم إلا لله دون ما سواه، فَإِنَّهُ يَحْكُمُ في خَلْقِهِ بما يَشَاءُ، وَيُنْفِذُ فيهِمْ حُكْمَهُ، ولا يُرَدُّ قِضَاؤُهُ. فشعيب عليه السلام سعى بأقصى جهده وقدرته في تبليغِ رسالاتِ الله، وكان على يقينٍ أن كلَّ ما يدخل في الوجود لا بد أن يكونَ بقضاءِ الله ومشئته وسابقِ حكمته.

وقد وردت هذه العبارة على لسان سيدنا شعيب عليه السلام في سياق الرضا بقضاء الله، والاستسلام لقضائه، والإيمان بأن كلَّ ما يُصِيبُ الإنسانَ فهو من الله، سواءً كان هذا ضرراً أو نفعاً، ف"ما أَرَادَهُ اللهُ فهو كائنٌ، وما قَدَرَهُ فهو واقعٌ"، ومهما أخذَ الإنسانُ من أسبابِ الحِيطةِ والحذر، فلن يَدْفَعَ عنه قدرَ الله؛ فالأمرُ أمرُ الله، والقضاءُ قِضَاؤُهُ، والحُكْمُ حُكْمُهُ.

فكانَ شعيباً عليه السلام يقول للطائفتين، من آمنَ به ومن لم يؤمن: "أنا مؤمنٌ بقضاءِ الله، راضٍ بحكمه، مُستسلمٌ لأمره، متوكِّلٌ عليه".

﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَكِيمِينَ﴾: تذييلٌ بالثناءِ على الله بأنَّ حكمه عدلٌ محضٌ، لا يَحْتَمِلُ ظُلماً عمداً ولا خطأً. وغيره من الحاكمين قد يقعُ منهم أحدُ الأمرين، أو كلاهما.

﴿خَيْرٌ﴾: اسمُ تفضيلٍ، أصله "أخير"، فحُفِّفَ لكثرة الاستعمال.

﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَكِيمِينَ﴾: والله خيرٌ من يفصل، وأعدلُ من يقضي، لأنَّه لا يقعُ في حكمه ميلٌ لأحدٍ، ولا محاباةٌ لأحد. وقد ورد في القرآن الكريم: ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَكِيمِينَ﴾ [الأعراف: 87]، و﴿وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَكِيمِينَ﴾ [هود: 45]، و﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَكِيمِينَ﴾ [التين: 8].

فهذا يدلُّ على أنَّ من أسمائه: "الحَكَم" و"الحَكِيم" و"الحَاكِم". وقد ورد اسم "الحَكِيم" في القرآن 94 مرة، كما في قوله عز وجل: ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾، ويقول تعالى: ﴿أَفَعَيِّرُ اللَّهَ أَتَبْغِي حَكْمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا﴾ [الأنعام: 114].

فهذا دليلٌ على أنَّ اسمه أيضًا "الحَكَم"، وبمعناه "الحَاكِم"، وقد جاء في خمسة مواضع بصيغة الجمع، منها: ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَكِيمِينَ﴾ [الأعراف: 87]¹.

واسمُ الله "الحَكِيم" هو الذي له الحكمةُ العليا في خلقه وأمره، الذي أحسنَ كلَّ شيءٍ خلقه. قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: 50].

فلا يخلقُ شيئًا عبثًا، ولا يشرعُ سُدًى، الذي له الحُكْمُ في الدنيا والآخرة، وله الأحكامُ الثلاثة: لا يُشاركه فيها مُشارك، فيحكمُ بين عباده في شرعه، وفي قدره، وفي جزائه. والحكمةُ: وضعُ الأشياءِ مواضعها، وتنزيلُها منازلها².

— ومن معاني الحكمة: حكمته سبحانه في خلقه، ومن ذلك ما تراه في جسدِ الإنسان وعقله وروحه³.

— ومن معاني الحكمة: حكمته سبحانه في اختلافِ اللغاتِ التي يتكلَّمُ بها الإنسانُ على اختلافِ أجناسهم؛ فكم فيها من الإعجاز والعجائب.

— ومن معاني الحكمة: حكمةُ الله تبارك وتعالى في الشرعِ الذي أنزله في كتابه على لسانِ رسوله.

¹ وقفات تربوية في ضوء القرآن، المصدر السابق. (3/ 213)،

² والله الأسماء الحسنى، الجليل، ص 283.

³ تفسير سورة الأعراف، ص 534.

وحين يقول: "خيرُ الحاكمين"، فإنَّ ذلك تأكيدٌ على عدله ورحمته، ووضعه الأشياء في مواضعها؛ فليس في قدره ظلمٌ ولا تعسف، وليس في شرعه محاباةٌ ولا تحيُّز، بل هو حفظٌ للحقوق: حقوق الحاكم والمحكوم، والقويِّ والضعيف¹.

ولكن قومٌ شُعب عليه السلام رفضوا دعوتَه، ورأوا فيها خطرًا عليهم، فعملوا على القضاءِ عليها، وفرضوا جوَّ القهرِ والاستبدادِ على الناس².

رابعًا: قوله تعالى: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَشْعِيبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كُرْهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدْ أَفْتَرْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنَّا عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّيْنَا اللَّهَ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبُّنَا أَفَتَحَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴿٨٩﴾ وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذَا لَخَسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذْتُمُ الرَّجْفَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جُثَمِينَ ﴿٩١﴾ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَنْ لَمْ يَعْنُوا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ ﴿٩٢﴾﴾ [الأعراف: 88-92].

1- قوله تعالى: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ﴾:

¹ مع الله، سلمان العودة، ص 189 إلى 194.

² التفسير الموضوعي، عبد المجيد طهماز، (3/ 107).

أ - ﴿قال﴾ تُصَوِّرُ لَنَا أَنَّ الْمُسْتَكْبِرِينَ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَسْكُتُوا، وَهُمْ يَرُونَ الْمَصْلِحِينَ يَنْشُرُونَ النُّورَ وَالْهُدَى وَالصَّلَاحَ عِلَانِيَةً؛ فَلَنْ يَقِفُوا مَتَفَرِّجِينَ وَهُمْ يَرُونَ الْمَصْلِحِينَ الرَّاشِدِينَ يَحَاوِلُونَ إِنْقَاذَ الْبَشَرِيَّةِ مِنْ فِخَاخِ الشَّيْطَانِ، وَتَدُلُّ عَلَيَّ أَنَّ الْمُسْتَكْبِرِينَ لَمْ يَقْبَلُوا بِمَا عَرَضَهُ شَعِيبٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ¹.

ب - ﴿المالئ﴾ هُمُ السَّادَةُ وَالْأَشْرَافُ وَالْأَعْيَانُ، الَّذِينَ يَمْلَأُونَ الْعَيْنَ هَيْبَةً، وَالْقُلُوبَ مَهَابَةً².

و"المالئ" هُمُ آخَرُ مَنْ يُؤْمِنُ بِدَعْوَةِ تَجَرِّدِهِمْ مِنَ السُّلْطَانِ فِي الْأَرْضِ وَتَرَدُّهُمْ إِلَى إِلَهٍ وَاحِدٍ هُوَ رَبُّ الْعَالَمِينَ. فَلَا بَدَّ أَنْ يَحَاوِلُوا فَتْنَةَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ خَلَعُوا رِبْقَةَ الطَّاعُوتِ مِنْ أَعْنَاقِهِمْ بِعِبُودِيَّتِهِمْ لِلَّهِ وَحْدَهُ، وَتَحَرَّرُوا بِذَلِكَ مِنَ الْعِبُودِيَّةِ لِلْعَبِيدِ³.

ج - ﴿استكبروا﴾؛ أَعْطَوْا أَنْفُسَهُمْ كِبْرًا لَيْسُوا أَهْلًا لَهُ. وَالْكِبْرُ هُوَ الشُّعُورُ بِالْعِظْمَةِ، وَرَفْعُ النَّفْسِ فَوْقَ مَا تَسْتَحِقُّ، أَوْ إِظْهَارُ عِظَمِ الشَّأْنِ. وَالسَّيْنُ وَالتَّاءُ فِي ﴿استكبروا﴾ تَدْلَانِ عَلَى الطَّلَبِ، أَيَّ إِنْهُمْ لَيْسُوا أَهْلًا لِلْكِبْرِ، لِأَنَّهُمْ لَا يَمْلِكُونَ أَسْبَابَهُ أَوْ مَوْهَلَاتِهِ⁴. وَالْكِبْرُ وَالتَّكْبِيرُ لُهُمَا مَنَاحٌ كَثِيرَةٌ:

- الْكِبْرُ عَلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ أَوْ عَلَى آيَاتِهِ، وَهُوَ أَعْظَمُ وَأَبْشَعُ أَنْوَاعِ الْكُفْرِ.
- الْكِبْرُ عَلَى الرُّسُلِ وَالْأَنْبِيَاءِ كَمَا حَدَّثَ مَعَ شَعِيبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ.
- الْكِبْرُ عَلَى النَّاسِ.

¹ تفسير سورة الأعراف، ص 543.

² تفسير الشعراوي، (7/ 4221).

³ في ظلال القرآن، (3/ 1313).

⁴ نبي الله صالح وأسباب هلاك قوم ثمود، الصلبي، ص 66.

والتكبر صفة مذمومة، والمتكبر مكروه في الأرض والسماء. وقد جاءت صيغ الاستكبار في القرآن متعددة: ﴿استكبروا، استكبر، استكبرتم، تستكبرون، يستكبرون، استكباراً﴾، وقليلًا: ﴿يتكبرون، ومتكبرين، ومتكبر﴾.

والفرق بين "المستكبر" و"المتكبر": أن "المستكبر" تطلب فيه الكبر ولا يملكه، كأن يرفض عبادة الله أو لا يقبل الحق من أحد، وهو لا يملك مؤهلات الكبر كالسلطان أو الغنى أو الحكم. أما "المتكبر" فهو من حاز بعض هذه الصفات كفرعون وقارون¹.

وفي قصة شعيب عليه السلام وُصف "الملا" ب"الذين استكبروا" لثفطيع كبرهم وتعاضمهم على عامة قومهم، واستدلالهم إياهم، وللتنبية على أن الذين آمنوا به كانوا من الضعفاء.

د - ﴿من قومهم﴾ فكانت المعارضة لدعوة شعيب من أقرب الناس إليه، وأمام بيناته وقوة حجته، لجأ المستكبرون إلى القوة والتهديد².

2- قوله تعالى: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يُشْعِيبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا...﴾:

أ - لم يقبل المستكبرون من قوم مدين الانتظار والصبر على الحكم والمهادنة مع شعيب وأتباعه، وإنما أرادوا تعجيل الحسم وإنهاء المسألة، فصعدوا المواجهة، حيث هددوا بإخراج شعيب والذين آمنوا معه من القرية. لقد وضعوا شعيبًا وأتباعه أمام خيارين جاهليين عنيفين صادرين عن قوم مستكبرين مستبدين:

¹ تفسير القرآن الثري الجامع، (1/ 171).

² تفسير سورة الأعراف، ص548.

– إما أن يتخلّوا عن دينهم ويعودوا إلى ملّة قومهم، وإن كانت في نظرهم ملّة باطلة.
– أو أن يُخْرَجوا من بين القوم ويُنفوا عن القرية¹.

ب – ﴿من قرئنا﴾: تُطلق "القرية" في القرآن على الحضارة العظيمة، أو على المصر الجامع (الدولة)، أو على العاصمة المركزية للدولة. وهي مشتقة من "قَرَى / قَرِي"، أي جمع الماء، وُسِّمَتْ بذلك لاجتماع الناس فيها وتداخلهم وتواصلهم. فهي أبلغ من "المدينة"، وغالبًا ما تدل في القرآن على الدولة ذات الحكم المركزي القوي².

والإضافة في قوله ﴿من قرئنا﴾ توحى بالتكبر والعنجهية، كأنّ الملأ الكافرين المستكبرين يقولون لشعيب وأتباعه: "القرية قرئنا وليست قرئتم"، نحن أحرار في التصرف فيها، نُبقي من نشاء، ونُخرج من نشاء، وأنتم فقدتم حقكم في المواطنة والملكية لأنكم أنتم بدين جديد وخالفتم دين الملأ الحاكمين. فلستم من أهلها، ولا من مواطنيها، ولا من أقربائها، ولا بد أن تغادروا. وهذا منطق المستكبرين في كل زمان ومكان؛ يقفون أمام الأنبياء ودعاة الحق بهذه الغلظة والقسوة، ويخيرونهم بين أمرين أحلاهما مرّ:

– إما التخلي عن ما هم عليه، والرجوع إلى الباطل.

– أو التهجير والنفي أو السجن أو حتى القتل.

¹ القصص القرآني، (28 / 2).

² تفسير سورة الأعراف، ص 548.

وبذلك يعيد هؤلاء المستكبرون قول الملائكة من بني مدين: ﴿لُنُخْرِجَنَّكَ يَشْعِيبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾، وفي هذا الرد المتشجع دليل آخر على أن المستكبرين لا تنفع معهم محاولة التهذئة، وهم يصرون دائماً على إيذاء أهل الحق مهما حاولوا تخفيف العداوة¹.

ج - ﴿أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾: أي لَتَرْجِعَنَّ إلينا كما كنتم، وأصل "العودة": الرجوع، وهو مصير الشيء إلى الحالة التي كان عليها².

ويجوز أن يكون "العود" بمعنى الاعتداء، أي لتفعلن شيئاً مضاداً لما أنتم عليه.

وقد أعاد المستكبرون القسم في هذا التهديد، فقالوا: ﴿أَوْ لَتَعُوذُنَّ﴾، بلام القسم، ونون التوكيد الثقيلة. ولم يكتفوا بعطفه على ﴿لُنُخْرِجَنَّكَ﴾ بل أعادوا التأكيد ليؤقن شعيب ومن معه أن أحد الأمرين واقع لا محالة، وأرادوا أن يدخلوا الرعب على أهل الإيمان ليدعنوا لطلبهم، ويعودوا إلى ملّتهم الباطلة.

وقد اختاروا حرف "أو" في الربط بين التهديدين لأنه يوحي بأن على المؤمنين أن يختاروا: إما النفي أو العودة. ولو قالوا "و" بدل "أو" لكان المعنى: سيئفون ويُعاد إدماجهم في الملة، لكن "أو" أظهر مكرهم ومراوغتهم القدرة.

- ﴿في ملتنا﴾: عبروا بـ"في" بدل "إلى" ليعبروا عن الاندماج الكامل، أي يريدون من شعيب ومن آمن معه أن يدخلوا في ملّتهم اندماجاً تاماً، ويتخلّوا عن الإسلام الذي دعاهم إليه.

¹ القصص القرآني، (2/ 28).

² تفسير سورة الأعراف، ص 550.

— ﴿مِلْتَنَا﴾: هي طريقتنا وسنتنا ومسلكتنا الذي جرى عليه أسلافنا. والمِلَّةُ قد تكون حقًّا أو باطلاً، وغالبًا ما تدل على الطريقة الجمعية الموروث¹.

ومِلَّةُ قوم شعيب كانت باطلة، لم تكن على هدى.

وقد ردّ شعيب عليه السلام على هذا التهديد القاسي برّدٍ حكيم، بقوله: ﴿قَالَ أَوْلَوْ كُنَّا كُرْهَيْنَ﴾².

3- قوله تعالى: ﴿قَالَ أَوْلَوْ كُنَّا كُرْهَيْنَ﴾:

بدأ شعيب عليه السلام ردّه على تلك الحملة الظالمة التي شنّها المستكبرون، بأسلوبٍ حكيم.

— ﴿قَالَ﴾: تبين لنا أن ردّه كان سريعًا وفوريًّا، قاله بصورة مباشرة. ودل ردّه عليهم على حسن مراجعته ومحاورته لقومه، وجوابه على كلامهم بحكمة فائقة وكلمات نافذة وأسلوب فريد.

— ﴿أَوْ﴾: فلهزمة هنا للاستنكار والتعجب من منطقتهم الجائر، و"الواو" للعطف التلقيني، وهي تتعلق بمحذوف تقديره: "أأنكرهوننا على العودة في ملّتكم ولو كنا كارهين؟".

فهو لم يُفصّل الاعتراض، بل استخدم السؤال الاستنكاري بصيغة مختصرة قوية، كأنه يقول: "أتعقلون أن ترفضوا علينا ملّتكم ونحن كارهون لها؟".

وهذا الرد منه عليه السلام يُظهر أن تهديداتهم لا تقوم على منطق، وأن ما يدعون إليه باطل، فالإيمان لا يُجبر عليه أحد، ولو كان حقًّا لما قبل الله به من كاره له³.

¹ تفسير سورة الأعراف، المصدر السابق، ص552.

² القصص القرآني، (2/ 29).

³ تفسير سورة الأعراف، ص571.

وهذا الرد، غير المتوقع، جمع أربعة أوصاف جعلت قائله هو المنتصر الأعلى:

• الحكمة: لأنه لم يكن استفزازيًا، فلم يقل مثلًا: "اتحدّاكم" أو "أروني ما تفعلون"، بل أظهر لهم فساد تصورهم.

• القوة: لأنه أوضح أن العودة في ملّتهم، لو وقعت، فستكون عن كراهة، والكرهية لا تنتج التزامًا حقيقيًا، بل تُظهر المعتقد الجاهلي في ثوبه الباطن المكروه المنبوذ.

فأظهر شعيب عليه السلام أن نظامهم الجاهلي مرفوض في أعين العقلاء، ممقوت في نفوس الأذكياء، لا يقبله من لديه استقامة في الفطرة¹.

وفي هذه الكلمات الموجزة تتجلّى حقيقة الإيمان وطعمه العذب في قلوب أهله، في مقابل طبيعة الجاهلية ومذاقها الكريه. وإنه مشهدٌ تتجلّى فيه الحقيقة الإلهية في قلب النبي، فتنفجر في وجه الجاهلية. فماذا يُذكرنا هذا؟

يذكرك بقول النبي ﷺ: "ثلاثٌ من كُنَّ فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما، وأن يحبَّ المرء لا يحبه إلا الله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله، كما يكره أن يُقذف في النار".

وكما كان ردّ شعيب عليه السلام سؤالًا استنكاريًا، لأنه أبلغ أسلوب يمكن استخدامه أمام استكبارهم، وهو يخاطب عقولهم، ويعكس مدى نور الوحي، ودكاء شعيب المتقد، وقدرته العظيمة

¹ تفسير سورة الأعراف، ص571.

على إدارة الحوار والمجادلة. فقد أتى هذا الردُّ بما لا يترك مجالاً لأعدائه، بل يرد على كلامهم كله – جزءاً وكُلًّا.

لقد جمع شعيب في هذا الرد الإنكار على خطابهم، والتعجب من صنيعهم، والإشارة إلى فساد ما قالوه، وكل هذا جاء بأسلوب السؤال، دون صراخ ولا اتهام.

إنَّ معنى تهديدهم الحقيقي: أنهم فشلوا في إقناع المؤمنين بأن ملتهم تحقّق السعادة للبشرية، فلجأوا إلى الإكراه، والسؤال جعلهم يبدون بمظهر الأحمق المتغطرس الذي لا يملك حجة، وليس له إلا العصا الغليظة. فهل يملكون عقولاً حين يُصرّون على إكراه غيرهم على اعتناق عقيدة فاسدة؟¹

إن الله عز وجل منع استخدام الضغط والإكراه في دخول الدين الحق، فكيف يستخدمه هؤلاء لفرض دين فاسد؟²

وفي كلام شعيب عليه السلام تعريض بحماقة خصومه، إذ يحاولون حمله على ملتهم بالإكراه، مع أن شأن المحق أن يترك للحق سلطانه على النفوس، لا أن يتوكأ على عصا القوة. ولذلك قال تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة: 256].

فإنَّ الالتزام بالدين بالإكراه لا يُحقّق الغرض المطلوب من الدين، وهو تزكية النفس، وبناء جند الحق والصالح.³ وهذا هو المعلم الأول من معالم مشهد الردّ الحكيم الصاعق الذي نطق به شعيب عليه السلام: حكمة في الكلمات، وهدوء في الأسلوب.⁴

¹ تفسير سورة الأعراف، المصدر السابق، ص571.

² تفسير سورة الأعراف، 576.

³ التحرير والتنوير، (4/ 330).

⁴ تفسير سورة الأعراف، ص576.

4- قوله تعالى: ﴿قَدْ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانا اللَّهُ مِنْهَا﴾:

[الأعراف: 89]:

نشهدُ عليكم: إنا إنْ عُدنا فيها بعد ما نَجَّانا اللهُ منها، وأنقَدنا من شرِّها، فإننا كاذبون مُفترُونَ على اللهُ الكذب، فإننا نعلم أنه لا أعظمُ افتراءً ممَّن جعل اللهُ شريكاً، وهو الواحدُ الأحدُ، الفردُ الصمدُ، الذي لم يتَّخذ صاحبةً ولا ولداً، ولا شريكاً في الملك¹.

إن شعيياً (عليه السلام) أعلن تعظيمَ اللهُ عزَّ وجلَّ أمام المستكبرين، وتعظيمَ دينه الذي ارتضاه، ببيان الجريمةِ الكبيرة التي يقعون فيها إن هم رجعوا إلى الملةِ الوثنية².

- ﴿قَدْ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾:

﴿قَدْ﴾ كلمةٌ تحقيقٌ تؤكد ما بعدها في هذا السياق.

﴿افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾: الافتراءُ حقيقته تقطيعُ الكلام والتصوُّر، وإعادةُ بنائه بناءً محكماً بصورةٍ يظنُّ السامع أنها حقٌّ، ولكن على جهة الكذب؛ ولذلك جاءت كلمة ﴿كَذِبًا﴾ لتكون مفعولاً به، أو صفةً لمصدرٍ محذوف، تقديره: افتراءً كذباً. أي بلغنا أسوأ أنواع الكذب المنمَّق والمزخرف، وأبشع أنواعه.

وهنا تظهر براعة شعيب (عليه السلام) في محاوره قومه، إذ أخذهم بهذه الكلمة من مقامهم إلى مقامٍ آخر، كأنه قال لهم: "هل أنتم مجانين؟ تريدون أن نعود في ملتكم ونرتكب هذا الكذب الذي لا كذب بعده؟ كذبٌ منمَّق، مزوَّق، مزخرف، نُوهِم به الناس أنه حقٌّ، وهو أكذب الكذب!"

¹ تفسير السعدي، ص362.

² تفسير سورة الأعراف، ص576.

إننا بذلك نُؤكِّد تأكيدًا كاملاً أننا نرتكب جريمةً عظيمةً بهذا الكذب الكبير¹. وهناك دلالة بيانية للتونين في كلمة ﴿كذِبًا﴾:

— يجوز أن يكون تونينها للتعظيم، أي: كذبًا عظيمًا لا يخفى على أحد².

— ويجوز أن يكون للتحقير والتبشيع، أي: كذبًا بشعًا لا يمكن لأحد أن يبلغه³.

— ﴿بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا﴾:

أظهر شعيب (عليه السلام) بشاعة عُرُوضِ المجرمين، الذين يطالبونه وأتباعه بالعودة إلى تلك الملة العفنة، ليفتخر أمامهم ويزهو بمولاه الذي أخرجه مع أتباعه من الظلمات إلى النور.

واستُخِدم الفعل ﴿نَجَّانَا﴾ — على وزن فَعَّل — ليصوِّر لنا قوة إخراج الله له من تلك الملة الجاهلة، وعظمتها، لأنَّ التشديد في "فَعَّل" يدلُّ على القوَّة في الواقع.

ثمَّ ذَكَرَ الاسمَ العَلَمَ المفرد لربنا عزَّ وجلَّ، وهو ﴿الله﴾، ليتجمَّع أمامه كلُّ أسمائه الحسنی، فتشعر بالمجد الذي يُحقِّقه حين تنتسب إليه عبدًا صادقًا صالحًا، تتبع مرضاته⁴. وتظهر قوَّة الكلمة القرآنية وجمالها في قوله تعالى: ﴿بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا﴾ فالنجاة مشتقة من "النجوى"، وهي المكان المرتفع المطمئن الذي يمكن للإنسان أن يسير فيه آمنًا، فيكون المعنى: "بعد أن خلصنا الله منها بصورة لطيفة، تجعل الناجي مَرْتَفَعًا من نجاته على المنجوّ منه" — وهي ملة الكفر وأتباعها.

¹ تفسير سورة الأعراف، ص 577.

² نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، (2/8).

³ تفسير سورة الأعراف، ص 578.

⁴ تفسير سورة الأعراف، ص 578.

والتصوير هنا يدلّ على مقدار تفتّشي ملة الكفر، فكأثما - بأنظمتها المختلفة - مجموعة من الوحوش المهلكة، التي خلّص الله عزّ وجلّ منها شعبيًا (عليه السلام) ومن معه، فقفزوا إلى الأعلى لينجوا من الغرق فيها¹.

• ﴿بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا﴾:

أظهر شعيب (عليه السلام) بشاعة عُروضِ المجرمين، الذين يطالبونه وأتباعه بالعودة إلى تلك الملة العفنة، ليفتخر أمامهم ويزهو بمولاه الذي أخرجه مع أتباعه من الظلمات إلى النور. واستُخدم الفعل ﴿نَجَّانَا﴾ - على وزن فعّل - ليصوّر لنا قوة إخراج الله له من تلك الملة الجاهلة، وعظمته، لأنّ التشديد في "فعّل" يدلّ على القوّة في الواقع.

ثمّ ذكّر الاسم العَلَمَ المفرد لربنا عزّ وجلّ، وهو ﴿اللَّهُ﴾، ليتجمّع أمامه كلّ أسمائه الحسنی، فتشعر بالمجد الذي يُحقِّقه حين تنتسب إليه عبدًا صادقًا صالحًا، تتبع مرضاته. وتظهر قوّة الكلمة القرآنية وجمالها في قوله تعالى: ﴿بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا﴾.

فالنجاة مشتقة من "النجوى"، وهي المكان المرتفع المطمئن الذي يمكن للإنسان أن يسير فيه آمنًا، فيكون المعنى: "بعد أن خلّصنا الله منها بصورة لطيفة، تجعل الناجي مرْتَفَعًا من نجاته على المنجوّ منه" - وهي ملة الكفر وأتباعها.

والتصوير هنا يدلّ على مقدار تفتّشي ملة الكفر، فكأثما - بأنظمتها المختلفة - مجموعة من الوحوش المهلكة، التي خلّص الله عزّ وجلّ منها شعبيًا (عليه السلام) ومن معه، فقفزوا إلى الأعلى لينجوا من الغرق فيها.

¹ تفسير سورة الأعراف، ص588.

5- قوله تعالى: ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا﴾ [الأعراف: 89]:

وهذا تأكيد ورفض آخر للعودة إلى تلك الملة المحرمة؛ إذ نفى شعيب (عليه السلام) أن يكون لهم أن يعودوا إليها، فإنّ هذا من المحال. فهو (عليه السلام) آيس من نفسه، أن يوافقهم، من وجوه متعدّدة:

— من جهة أنّهم كارهون لها، مُوقنون ببطلانها.

— ومن جهة أنّ جعل ما هم عليه كذبًا، وأشهدهم أنّه إن اتّبعتهم، فهو ومن معه كاذبون.

— ومنها اعترافهم بمنة الله عليهم إذ أنقذهم منها.

— ومنها أنّ عودتهم إليها بعدما هداهم الله أمرٌ محال، بالنظر إلى حالتهم الراهنة، وما في قلوبهم من تعظيم لله تعالى، والاعتراف له بالعبودية، وأنه الإله وحده، الذي لا ينبغي العبادة إلا له، وحده لا شريك له.

وأنّ آلهة المشركين أبطل الباطل، وأحلّ المحال، وحيث إنّ الله منّ عليهم بعقول يعرفون بها الحق من الباطل، والهدى من الضلال.¹ .. ومن حيث النظر إلى مشيئة الله تعالى وإرادته النافذة في خلقه، التي لا خروج لأحدٍ عنها، ولو توافرت الأسباب وتحققت القوى؛ فإنهم لا يحكمون على أنفسهم أنهم سيفعلون شيئًا أو يتركونه.

ولهذا قال: ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا﴾، أي: لا يمكننا ولا غيرنا الخروج عن مشيئته، التابعة لعلمه وحكمته². ووصف الله بكلمة "رب" في قوله: ﴿اللَّهُ رَبُّنَا﴾، يُحَقِّقُ أَمْرًا أعظم، أشار إليه الإمام البقاعي - رحمه الله -، فقال: "فهو من باب التذكير بالمخاوف، والإشراف على إمكان سوء

¹ تفسير السعدي، ص362.

² تفسير السعدي، ص362.

العواقب، للصدق في التضرع إلى الله تعالى، والالتجاء إليه، والاستعاذة مما كرهه، ولذلك أتى باسم الجلال الجامع لجميع معاني الأسماء الحسنى، وصفة الربوبية الملتمس بذكرها فعل ما يفعله المرئي الشفيق".

فكأنه قال: "عودتنا في بلادكم غير ممكنة، فهي عادةً ومحال، لا يقدر عليها إلا بقدر من الله عز وجل، ولا تُوجّه الهمم إليها، والله تعالى أكرم من أن يعود فيما وهب لنا من هذا الأمر الجليل، وينزع عنا هذا اللباس الجميل¹. وقد مرّ معنا في الصفحات الماضية الحديث عن اسم (الله) عز وجل، ورأيتُ من المناسبة أن أتحدث الآن عن اسمه (الرب).

— اسم الله "الرب" من أسمائه الحسنى، يُدعى به، ويُتَّجَد به، ويُتَّقَدَّس به.

وعامة ما جاء ذكر هذا الاسم الكريم، إنما جاء مضافاً إلى الخلق، عمومًا وخصوصًا، مثل: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: 2]. ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾. ﴿رَبِّ الْمَلَائِكَةِ﴾. ﴿رَبِّ الْعَرْشِ﴾. ونحو ذلك. وقد ورد ذكره في القرآن الكريم في أكثر من 900 موضع، منها قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: 2]. وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَعْبُدُوا اللَّهَ أُنْبِيَا رَبَّاهُ وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: 164]. وقوله عز وجل: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ [هود: 66].

وقوله سبحانه: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ﴾ (٩٧) وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ (٩٨) [المؤمنون: 97-98]. وقوله تعالى: ﴿بَلَدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبُّ غَفُورٌ﴾ [سبأ: 15]. وقوله: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ [الواقعة: 74]².

¹ نظم الدرر، (3 / 8)، تفسير سورة الأعراف، ص 594.

² والله الأسماء الحسنى، ص 85.

قال الشيخ السعدي - رحمه الله - : "الربُّ هو المرَبِّي جميع عباده بالتدبير وإيصال النعم". وأخصّ من هذا: تربيته لأصفيائه بإصلاح قلوبهم، وأرواحهم، وأخلاقهم. ولهذا أكثرُوا - أي الأنبياء والصالحون - من دعائهم لله بهذا الاسم الجليل، لأنهم يطلبون منه التربية الخاصة¹.

وهذا واضحٌ جليٌّ فيما ذكره الله عز وجل في كتابه الكريم عن أنبيائه (عليهم السلام) وأوليائه الصالحين، حيث صدّروا دعاءهم بهذا الاسم الكريم، ومن ذلك:

- دعاء الأبوين (عليهما السلام): ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: 23].

- دعاء نوح (عليه السلام): ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ﴾ [نوح: 28]. وقوله: ﴿رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنِّي أَهْلِي﴾ [هود: 45].

- دعاء موسى (عليه السلام): ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ﴾ [الأعراف: 151].

وقوله: ﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلِ وَإِيَّاي﴾ [الأعراف: 155].

- دعاء يوسف (عليه السلام): ﴿رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ [يوسف: 33].

﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ...﴾ [يوسف: 101].

- دعاء زكريا (عليه السلام): ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ [آل عمران: 38].

- دعاء عباد الله الصالحين: ﴿رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا...﴾ [آل عمران: 193-194]

¹ تفسير السعدي، (5/ 486)، والله الأسماء الحسنى، ص 89.

وقولهم: ﴿رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ﴾ [الفرقان: 65].

وكان الرسول ﷺ يدعو كثيراً باسم الرب، ويمجّده ويعظّمه به، ومن ذلك قوله ﷺ: "ألا أدلك على سيّد الاستغفار؟ اللهم أنت ربي، لا إله إلا أنت..."¹.

وكان ﷺ إذا أخذ مضجعه يقول: "اللهم رب السماوات ورب الأرض ورب العرش، ربنا ورب كل شيء..."². وكان ﷺ إذا افتتح صلاته من الليل قال: "اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السماوات والأرض..."³. وكان ﷺ إذا أصابه كرب، قال: "لا إله إلا الله العظيم الحليم، لا إله إلا الله رب العرش العظيم، لا إله إلا الله رب السماوات ورب الأرض ورب العرش الكريم."⁴.

وفي قول شعيب (عليه السلام): ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا﴾ بيانٌ لإقرار شعيب بأنّ الله عز وجل ربّ كل شيء، خالقه ومالكه والقادر عليه، المتصرّف في جميع أموره، وأنه لا يخرج شيء عن ربوبيته، وأن كل من في السماوات والأرض عبيد له، في قبضته، وتحت قهره⁵.

وهذا يقتضي من شعيب (عليه السلام) الرضا بالله ربّاً، وإلهّاً، وحاكماً، ومُشرِّعاً؛ لأنّ الرضا بربوبيته عز وجل هو: رضا العبد بما يأمره به ربّه، وينهاه عنه، ويقسمه له، ويقدره عليه، ويُعطيه إياه أو

¹ البخاري، رقم 6306.

² مسلم، رقم 2713.

³ مسلم، رقم 770.

⁴ البخاري، رقم 6345.

⁵ والله الأسماء الحسنی، ص 91.

يمنعه منه¹. وهذا معنى قول النبي ﷺ: ذاق طَعْمَ الإِيمَانِ مَنْ رَضِيَ بِاللَّهِ رَبًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد ﷺ رسولًا².

ومتى ذاق العبد طعم الإيمان، فلا تسأل عن سعادته، وأنسه، وطمأنينته، وثباته، ولو احتوشته البلايا والرزايا. كما أن من هذا شأنه، فإن طاعات الله عز وجل تسهّل عليه، وتلدّ له، ويكون في قلبه كُرةً لمعاصي الله، ونفورٌ منها³.

6- قوله تعالى: ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾:

بيّن شعيب (عليه السلام) لقومه وأتباعه سعة علم الله وشوّه.

- ﴿وَسِعَ﴾: اللفظة تدل على الامتداد والاشتمال؛ أي أن علم الله عز وجل قد أحاط كل شيء، فلا يخرج عنه شيء، لا في الأرض ولا في السماء⁴.

- ﴿رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾: أي لا يمكن أن يغيب عن علمه شيء، فهو يعلم ما كان وما يكون وما سيكون، وما لم يكن لو كان كيف يكون.

وذكره الله تعالى بوصف "رَبُّنَا" يدل على استشعاره الدائم لربوبية الله، فهو الذي ربّاه، وحمّاه، وحفظه، ولا يصيبه شيء إلا من حكمته⁵. قال الزجاج - رحمه الله - في تفسيره لهذه الآية: "يعني

¹ والله الأسماء الحسنى، ص 99.

² مسلم، رقم 34.

³ والله الأسماء الحسنى، ص 99.

⁴ تفسير سورة الأعراف، ص 602.

⁵ زهرة التفاسير، الإمام محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي للطباعة والنشر، القاهرة، مصر، 2008م، (5/ 2567).

أن الله تعالى يعلم ما يكون قبل أن يكون، وما سيكون، وأنه تعالى كان عالماً في الأزل بجميع الأشياء؛ فالسعيد من سعد في علم الله، والشقي من شقي في علم الله.¹

وقد ورد اسم الله "العليم" في القرآن الكريم 157 مرة، منها قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: 97]. وقوله: ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: 32].

وقوله: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: 34].

كما ورد اسم "العالم" 13 مرة، أضيف في 10 منها إلى الغيب والشهادة، وفي 3 إلى الغيب فقط، مثل قوله تعالى: ﴿ثُمَّ تُرْجَوْنَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: 94] وقوله: ﴿عَالِمِ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا﴾ [الجن: 26].

كما ورد اسم "عَلَامُ الْغُيُوبِ" أربع مرات، منها في قوله تعالى: ﴿قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَامُ الْغُيُوبِ﴾ [المائدة: 109] وقوله: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَامُ الْغُيُوبِ﴾ [المائدة: 116].

ويلاحظ في هذا الاسم إضافة "عَلَامُ" إلى "الغيوب" (جمع غيب)، مع مبالغة في الكثرة، لتأكيد شمولية علم الله وتعدد وجوهه².

ومعنى اسم "العليم" و"العالم" و"عَلَامُ الْغُيُوبِ" في حق الله تعالى: أنه سبحانه قد أحاط علمه بالظواهر والبواطن، والأسرار والإعلان، والواجبات والمستحيلات والممكنات، وبالعالم العلوي

¹ لباب التأويل، الزجاج، (2/ 113).

² والله الأسماء الحسنى، ص 330-331.

والسفلي، والماضي والحاضر والمستقبل، فلا يخفى عليه شيء¹. وفي قول شعيب (عليه السلام):
﴿وَسِعَ رُبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾، نتعلم أثر الإيمان باسم "العليم"، وهو:

— الخوف من الله ومراقبته في السر والعلن.

— دفع النفس إلى الاستقامة ظاهرًا وباطنًا، وبلوغ مرتبة الإحسان، التي قال عنها النبي ﷺ: أن
تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك².

كما أن هذا الإيمان يورث في القلب تعظيم الله وإجلاله، ويعين على التخلص من الآفات القلبية
الخفية، كالرياء، والحسد، والكبر، والعجب، وسائر الوسوس؛ لأنه يعلم أن الله يطلع على كل
شيء³. ويثمر أيضًا الرضا بقضاء الله، واليقين بأن كل ما يصيب الإنسان، من مصائب أو
مكروهات، إنما هو بعلم الله وحكمته.

وقد كان الأنبياء (عليهم السلام) يقرنون اسم "العليم" باسم "الحكيم" للتسليم، كما قال يعقوب
(عليه السلام): ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [يوسف: 83]⁴.

وهكذا يظهر أثر اسم الله العليم في سلوك المؤمن، وثباته، واستقامته، وسلامة قلبه. فالله ربُّنا ﴿وَسِعَ
كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾، فيجب الاعتماد عليه وحده، والثقة المطلقة بحكمته، وتدييره، وقدره. فالله ربُّنا
﴿وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾، فيجب الاعتماد عليه وحده، ولذلك قال:

¹ تفسير السعدي، (5/ 299).

² طريق المهجرتين وباب السعادتين، ابن قيم الجوزية، دار عالم الفوائد، 1993م.. (1/ 275)،

³ والله الأسماء الحسنى، ص 343

⁴ والله الأسماء الحسنى، ص 344.

7- قوله تعالى: ﴿عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾:

- (على الله توكلنا): في الثبات على الإيمان والنجاة من كيد الأشرار¹.
- (على الله توكلنا): اعتمدنا أنه سيثبتنا على الصراط المستقيم، وأن يعصمنا من جميع طرق الجحيم؛ فإن من توكل على الله كفاه ويسر له أمره ودينه².
- (على الله توكلنا): اعتمدنا على الله في شأننا كله، والتوكل من أعظم ثمرات الإيمان، بل هو من مطالبه في ذات الوقت³.

وإنّ التوكل عبادة من أفضل العبادات القلبية، وخلق من أعظم الأخلاق الإيمانية، وهو منزل من منازل الدين، ومقام من مقامات الموقنين⁴، بل هو من معاني درجات المقرّبين، كما في قوله: (على الله توكلنا). والتوكل هو: علم القلب بكفاية الربّ للعبد، والانقطاع بالكلية عن الخلق، والتوجه إلى الحق سبحانه وتعالى، حتى لا يرجو سواه، ولا يقصد إلا إياه، ولا يلوذ إلا بجانبه. وإذا طلب، لا يطلب إلا منه، وإذا رغب، لا يرغب إلا إليه. ويعلم أن ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، وأن الله على صراط مستقيم، وأنه هو المتصرف في الملك وحده لا شريك له، ولا معقّب لحكمه، وهو سريع الحساب. ولهذا قال سعيد بن جبير: "التوكل على الله جماع الإيمان"⁵.

¹ نبي الله هود وأسباب زوال حضارة قوم عاد، الصلابي، ص191.

² تفسير السعدي، ص362.

³ تفسير سورة هود، أحمد نوفل، جمعية المحافظة على القرآن الكريم، ط1، 2019م، ص213.

⁴ السنن الإلهية ودورها في البناء الحضاري للأمة، جمال نصار، دار الأصول العلمية، 2022م، ص72.

⁵ نبي الله هود عليه السلام، الصلابي، ص191.

• ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ [الأعراف: 89]: نجد أن شعيبًا (عليه السلام) جمع بين الاسمين الجليلين: "الرب" و"الله". الرب: الذي يتعهد خلقه إيجابًا وإمدادًا ورزقًا وتربية. الله: عز وجل الذي له الأمر والطاعة والعبادة¹.

وقد بين العلماء حقيقة التوكل؛ فقال الهروي: "كلّة الأمر إلى وكيله، والتعويل على وكالته"². وعرفه ابن عطاء: "بأن لا يظهر فيك انزعاج إلى الأسباب مع شدة فافتك إليها، ولا نزول عن حقيقة السكون إلى الحق مع وقوفك عليها"³. وأجمع تعريف للتوكل ما قاله ابن رجب الحنبلي - رحمه الله -: "هو صدق اعتماد القلب على الله عز وجل في استجلاب المصالح، ودفع المضار من أمور الدنيا والآخرة كلها، وتفويض الأمور كلها إليه، وتحقيق الإيمان بأنه لا يُعطي ولا يمنع، ولا يضر ولا ينفع سواه"⁴. ومن فضائل التوكل وثمراته:

1. الوصول إلى محبة الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: 159].
2. دخول الجنة بغير حساب: ورد في الصحيحين حديث السبعين ألفًا الذين يدخلون الجنة بغير حساب، وقد بين النبي ﷺ صفاتهم بأنهم: "الذين لا يسترقون، ولا يتطيرون، ولا يكتنون، وعلى ربهم يتوكلون"⁵.
3. سبيل لتيسير الأرزاق: التوكل سبب لكثرة الخير والبركة في أحوال العبد كلها، في خروجه وسفره، فعن عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله، لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خماصًا وتروح بطانًا"⁶.

¹ نبي الله هود عليه السلام، الصلابي، ص 191.

² منازل السائرين، أبو إسماعيل الهروي، دار الكتب العلمية، بيروت، 2012م، ص 43.

³ الخريطة الإيمانية، إعداد فريق من الباحثين إشراف د. مصطفى مخدوم، ص 527.

⁴ جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، مكتبة الإيمان، 1995م، ص 914.

⁵ البخاري، رقم 5705.

⁶ سنن الترمذي، أبو جعفر الترمذي، دار التأسيس، 2014م، رقم 2344، حسن صحيح.

4. حصول النعم والفضل والحفظ من السوء: قال تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَد جَمَعُوا لَكُمْ فَأَحْشَوْهُمْ فَرَّادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ (١٧٣) فَأَنْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمَسْسَهُمْ سُوءٌ ﴿[آل عمران: 173-174].

5. الكفاية: قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: 3]. ومعنى "حسبه" أي: أنه تعالى يكفيه ويتولى تدبير أموره. ومن معاني الآية: أن من قام بالتوكل، كفاه عن سائر المقامات الأخرى. وقرأ النبي ﷺ هذه الآية على أبي ذرّ، وقال له: "لو أن الناس كلهم أخذوا بما لكفتهم"¹، يعني: لو حققوا التقوى والتوكل، لكفوا بذلك في مصالح دينهم ودنياهم². وقد ورد التصريح بهذه الكفاية في قوله ﷺ: "من قال إذا خرج من بيته: بسم الله، توكلت على الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله، يقال له: هُديت وكُفيت ووُقيت، وتنحى عنه الشيطان، فيقول شيطان آخر: كيف لك برجل قد هُدي وكُفي ووُقي؟"³.

6. الوقاية من إغواء الشيطان: قال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [النحل: 99].

7. الإقدام وعدم التردد في اتخاذ القرار: قال تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ [آل عمران: 159]، وقال النبي ﷺ: "المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، احرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز. ولا تقل: لو أني فعلت كذا لكان كذا، ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل، فإن (لو) تفتح عمل الشيطان"⁴.

ومن ثمار التوكل أيضاً:

• حصول القوة للمتوكل.

¹ مسند أحمد، رقم 21551، صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، علاء الدين علي بن بلبان الفارسي، تحقيق شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، 1414هـ، رقم 4820.

² جامع علوم الحكيم، ابن رجب، ص 643.

³ سنن الترمذي، رقم 5095.

⁴ صحيح مسلم، رقم 2664.

- ويورث الرضا والصبر.
- والاستسلام لأحكام الله عز وجل¹.

وهذه الثمار تحصل عليها شعيب (عليه السلام) والذين آمنوا معه.

وللتوكل أسسٌ، منها:

- معرفة الله.
- الإيمان به.
- الزهد في الدنيا.
- الثقة بما عند الله تعالى.
- وتفويض الأمر إليه².

وأما طرق اكتساب التوكل، فمنها:

- زيادة المعرفة بالله.
- رسوخ القلب في مقام التوحيد.
- حسن الظن بالله³.

وعلامات التحقق بالتوكل:

- الطمأنينة والسكينة، وعدم شُغل الخاطر.

¹ الخريطة الإيمانية في قواعد السلوك، ص533.

² الخريطة الإيمانية في قواعد السلوك، المصدر السابق، ص534-535-536.

³ الخريطة الإيمانية في قواعد السلوك، المصدر السابق، ص540.

- عدم الاشتغال بالأغيار.
- التبرؤ من الحول والقوة¹.

والتوكل على الله سبحانه وتعالى لا يعني التواكل، ولا التغافل، ولا تجاهل ما يحيط بالإنسان من الظروف المتغيرة الحوالمك، والأخطار الهوالمك. والتوكل لا يعني أن يترك الصالحون الأخذ بالأسباب المادية والمعنوية، ويرموا أنفسهم في المتاهات الرديّة، بل من شروط التوكل أن يقوم المتوكل بكل الأسباب والخطط المشروعة التي تُسهّم في تحقيق أهدافه، والوصول إلى غايته، وتحميه من الأخطاء والأخطار المتوقعة².

فالتوكل على الله لا يمنع من الأخذ بالأسباب، فالمؤمن يتخذ الأسباب من باب الإيمان بالله وطاعته، فيما يأمر به من اتخاذها. ولكنه لا يجعل الأسباب هي التي تُنشئ النتائج فيتوكل عليها، بل يقطع النظر عنها بعد تهيئتها³.

كما قال ﷺ: "اعقلها وتوكل"⁴.

وقد أمرنا الله عز وجل في آيات كثيرة بالعمل والبذل، ودراسة السنن التي تُحقق لنا الغايات في أمور الدنيا والدين⁵.

¹ الخريطة الإيمانية في قواعد السلوك، المصدر السابق، ص 541.

² تفسير سورة الأعراف، ص 608.

³ سنة الله في الأخذ في الأسباب، الصلابي، ص 52.

⁴ صحيح ابن حبان، (2 / 510).

⁵ تفسير سورة الأعراف، ص 609.

- (على الله توكلنا): تُبَيِّنُ الاعتزاز الكامل لشعيب (عليه السلام) في توكله على الله، في رده على قومه.

8- قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾:

بعدما أعلن شعيب (عليه السلام) ومن معه من المؤمنين التوكل الكامل على الله، والتبرؤ من حوهم وقوتهم، والبراءة من أعدائهم ومما يعبدون، وقد صبروا على الأذى، وثبتوا في وجه العناد، ولم يلينوا في الحق، ولم يسايروا في الباطل، لجؤوا إلى باب الله، وسألوه أن يحكم بينهم وبين قومهم بالحق، وألا يُبقي الباطل مرفوع الرأس في مواجهة الحق، ولا الظلم ظاهراً على العدل¹.

قالوا: ﴿رَبَّنَا﴾، ولم يقولوا: "يا الله"؛ لأن المقام مقام تربية وعناية، ومقام ضعف وحاجة، فهم عبيد مريبون، وهو الرب المتكفل بهم، المدبر لأمرهم، المرّي لهم بلطفه وعلمه وحكمته.

قالوا: ﴿افْتَحْ بَيْنَنَا﴾، أي احكم وافصل، كما قال تعالى: ﴿فَأَفْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا﴾ [الشعراء: 118]، وكما قال: ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ﴾ [سبا: 26].

والفتح يجيء بمعنى الحكم، وبمعنى النصر، وكلاهما مراد هنا، فهم يطلبون من الله أن يحكم بينهم، وأن ينصرهم في قضيتهم، وأن يُظهر وجه الحق ويذهب الباطل.

قالوا: ﴿بِالْحَقِّ﴾، أي: لا نريد أن يكون الفتح لنا إن كنا على باطل، بل ليكن الحق هو المنتصر ولو كان لخصومنا، فنحن دعاة حق، لا طلاب سلطان.

قالوا: ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾، أي خير من يحكم، وخير من يفصل، وخير من ينصر، وخير من يُظهر وجه الصواب؛ لأنه سبحانه يحكم بالحق، ويفتح بالعدل، ولا يجور ولا يظلم، ولا يغيب عنه

¹ تفسير سورة الأعراف، ص 616.

شيء من أقوال العباد ولا من أفعالهم، ولا ينسى شيئاً، ولا يحتاج إلى شهود، ولا إلى بينات، وهو العليم الخبير.

وقد ذكر ابن عاشور أن هذا الدعاء مما يقتضيه حال المؤمنين، إذا عجزوا عن القيام على الظالمين، وتعذر عليهم إحقاق الحق وإبطال الباطل، فإنهم يرفعون الشكوى إلى ربهم، ويسألونه أن يقضي بينهم وبين القوم المعتدين، وأن يظهر عدله فيهم، ويحق الحق بكلماته¹.

9- قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذَا خَاسِرُونَ﴾:

وهذا موقف جديد من مواقف المواجهة، يصف حال المتكبرين من قوم شعيب (عليه السلام) وهم يحدّرون عامّة الناس من الاستجابة له، ويتوعدونهم بالخسران إن هم اتبعوه².

وقد أسند القول إلى الملاء الذين كفروا، وهم كبار القوم ورؤوس الضلالة، الذين يتزعمون الكفر والعناد، وسيطرون على توجهات السواد الأعظم من الناس.

قالوا لهم ﴿لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا﴾، أي صدّقتموه وسرتم على طريقه، وتركتم عبادة الآباء، وسلكتم مسلك التقوى والإصلاح.

﴿إِنَّكُمْ إِذَا خَاسِرُونَ﴾، أي تكونون من الخاسرين في الدنيا، بخسارة الجاه والمكانة، وبفقدان المصالح، وربما يهددونهم بالمقاطعة أو الإقصاء أو الطرد أو المصادرة³.

¹ تفسير سورة الأعراف، ص 619.

² تفسير سورة الأعراف، ص 624.

³ تفسير سورة الأعراف، المصدر السابق، ص 631.

وقد جاء هذا اللون من التهديد في دعوات سابقة، كقول قوم نوح (عليه السلام):
﴿لَئِن لَّمْ تَنْتَه يَٰ نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾، وقول قوم لوط:

﴿أَخْرِجُوهُمْ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّتَطَهَّرُونَ﴾، وفيه دلالة على أن أصحاب الباطل يعادون أهل
الطهر والصلاح، ويرون النقاء عارًا!

وقد ذكر ابن كثير (رحمه الله) أن هذه الكلمة: ﴿لَحَاسِرُونَ﴾، قالها كبراًؤهم للعوام، حتى يصدوهم
عن دعوة الحق، وقد صُدَّ كثير منهم بهذه الأساليب عن طريق الإيمان، فكانت عاقبتهم الخسران
المبين¹.

10- قوله تعالى: ﴿فَأَخَذْتُمُ الرَّجْفَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾:

جاء الردّ من الله سريعاً حاسماً، ﴿فَأَخَذْتُمُ الرَّجْفَةَ﴾، وهي الزلزلة الشديدة التي تهز الأرض، حتى
تسقط البنيان، وتُهلك الإنسان. وقد عبّر عن العذاب بالرجفة، للدلالة على شدته وسرعته وشموله².

﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾، أي صاروا صرعى هامدين، لا حراك بهم، جاثمين على ركبهم أو
على وجوههم، لا يقدرّون على القيام، ولا يملكون الدفع، وهذا من أبلغ صور الهلاك، أن يُدركهم
العذاب في مساكنهم، حيث أمنهم، وحيث زعموا النصر والسيادة، فإذا بهم عبرة لمن يعتبر³.

¹ تفسير سورة الأعراف، ص 632.

² في ظلال القرآن، (3/ 1322).

³ تفسير سورة الأعراف، ص 639.

قال ابن كثير - رحمه الله - : "أي صرعى، لا أرواح فيهم، وقد جثمت أجسادهم، وسكنت حركاتهم، وسكنت أنفاسهم، فلا يرى منهم إلا الجثث، قد جثمت في الديار".

وفي قوله ﴿فِي دَارِهِمْ﴾ تعبير يدلّ على أنهم لم يخرجوا للجهاد، ولا للمعركة، ولم يقع بينهم وبين شعيب (عليه السلام) أي قتال، بل أخذهم الله بعذابه في عقر دارهم، جزاء ظلمهم وكفرهم وتكذيبهم¹.

وقد ذكر السيوطي في "الدر المنثور" روايات تدلّ على أن العذاب نزل بهم ليلاً، فجعل عالي أرضهم سافلها، وأخذتهم الرجفة فأصبحوا لا يُسمع لهم صوت.

11- قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَعْنُوا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: 92]:

في هذا التكرار تعميق للمشهد، وإظهار لفداحة ما آلوا إليه؛ فهم بعدما كانوا يملؤون الأرض صخبًا، ويمشون فيها مرحًا، ويُنادون قومهم بكبرياء: ﴿إِنَّكُمْ إِذَا لَخَّاسِرُونَ﴾، صاروا الآن في عداد المفقودين، لا يُرى لهم أثر، ولا يُسمع لهم صوت². قال تعالى: ﴿كَأَن لَّمْ يَعْنُوا فِيهَا﴾، أي كأنهم ما أقاموا فيها، وما سكنوها، وما عمروا فيها ديارًا، ولا أسسوا حضارة، فكأن وجودهم صار عدمًا، وآثارهم زالت تمامًا، ولم يبقَ منهم إلا الذكر السيِّئ، والعاقبة الأليمة³.

¹ تفسير سورة الأعراف، المصدر السابق، ص 639.

² تفسير سورة الأعراف، ص 641.

³ تفسير السعدي، ص 363.

ثم أعاد القول: ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا﴾، ليتأكد أن هذا الهلاك لم يكن مصادفة، ولا عدواناً، وإنما كان بسبب التكذيب، والعناد، والجحود، ورفض دعوة التوحيد¹. ثم ختم بقوله: ﴿كَانُوا هُمْ الْخَاسِرِينَ﴾، فجاءت "كان" للدلالة على الرسوخ والثبات، وجاءت "هم" ضمير الفصل لتأكيد أنهم الخاسرون، لا شعيب، ولا من آمن معه، ولا الذين حوربوا وطُردوا، بل الخاسرون حقاً هم الذين كذبوا الرسل، وأعرضوا عن الهدى، وركنوا إلى الباطل.

وقد قال ابن عاشور في تفسيره: "التكرير للتوكيد، ولرسم صورة العاقبة المؤلمة، وجعل الكذب بشعيب هو السبب المباشر للخسران، وجعلوا هم عنوان الخسران ذاته، وفيه تسلية للمؤمنين، وبيان للعبارة للغافلين"².

خامساً: قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ [الأعراف: 93].

أ- ﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ﴾: الفاء للتعقيب المباشر. ترك أرضهم مولياً لهم ظهره، وقال لهم ما قاله، وهو يخاطبهم وهم أموات جاثمون، من أسف عليهم، وتحسره عليهم لعدم إيمانهم وموتهم وهم كفار³. والتولي: الانصراف عن فراقٍ وغضب، ويُطلق مجازاً على عدم الاكتراث بشيء، وهو هنا يحتمل أن يكون حقيقة، فيكون المراد به أنه فارق ديار قومه حين علم أن العذاب نازل بهم، ويحتمل أن يكون أعرض عن النظر إلى القرية بعد إصابتها بعذاب الله تعالى، وأعرض بالحزن عليهم، واشتغل بالمؤمنين، كما قال تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: 3].

¹ موسوعة التفسير المأثور، أشرف د. مساعد طيار، (9/ 243).

² تفسير السعدي، ص 363.

³ تفسير القرآن الثري، (4/ 115)

ب- ﴿وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾:

أكد مضمون الجملة ب (قد) والقسم الذي دلّت عليه (اللام)، وذلك للتأكيد على التبرؤ من التقصير في معالجة كفرهم، ولدفع توهم تقصيره (عليه السلام) في تبليغ رسالات ربه والنصيحة لهم والرحمة بهم.

- ﴿أَبْلَغْتُكُمْ﴾: أي أوصلت ما فيه بلاغكم، أي ما تحتاجونه لتعيشوا به وتموتوا عليه.
- ﴿رِسَالَاتِ رَبِّي﴾: جمعها لأن كل رسالة أمر الله -جل جلاله- بها نبياً، تتكوّن من رسالات متعددة؛ فكل ركن من أركان الإيمان رسالة، وكل ركن من أركان الإسلام رسالة، وكل شُعبة من شُعب الإيمان رسالة. وهاتان الكلمتان تصوّران الدقة العظيمة التي اتّسم بها شعيب (عليه السلام) في تبليغ رسالاته، والمعنى: إني يا قوم قد أبلغتكم رسالات ربي، أي ما أرسلني به إليكم من العقائد والمواعظ والأحكام والآداب، فجمع الرسالة هنا بحسب متعلّقها، وأفردتها في قصة شعيب حسب معناها المصدرية¹.
- ﴿وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾: إن تقييد النصيحة بالجار والمجرور (لكم) يدل على تمحيص النصيحة لهم، وأن فائدة النصح عائدة إليهم، وأنه لن يجني من وراء ذلك فائدة لنفسه². والنصيحة كلمة جامعة، معناها: حيازة الحظّ للمنصوح له³. والنصح هو إخلاص العمل عن شوائب الفساد.

¹ تفسير المنار، (9/ 13).

² نبي الله صالح وأسباب هلاك قوم ثمود، الصلابي، ص76.

³ فتح الباري في شرح صحيح البخاري، (1/ 138).

والنصيحة هي الدعاء إلى ما به الصلاح، والنهي عما فيه الفساد¹. ومن أبلغ ما وجهه شعيب (عليه السلام) إلى قومه: النصيحة الصادقة لتوحيد الله، وإفراده بالعبادة، وترك الشرك، والوفاء بالكيل والميزان، وعدم بخس الناس أشياءهم، والابتعاد عن القرصنة المحلية والإقليمية على حقوق الناس، وصدّهم عن سبيل الله، وابتغاؤها عوجًا.

ج- ﴿فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾:

- ﴿فَكَيْفَ﴾: المعنى المباشر القريب: فلا آسىٰ على قوم كافرين. ولكنه جاء على أسلوب السؤال، وذلك ليُظهر في هذا الأسلوب التوجُّع، وإثبات العدل في حلول العقوبة التي دمّرت الملاء المستكبرين وسائر الكافرين من قومه.
- واستخدام أسلوب السؤال هنا أفضل قِيلاً، وأهدى سبيلاً، من أسلوب النفي المباشر².
- ﴿آسَىٰ﴾: وهي تُصوِّر توجعاً كبيراً، ينفي شعيب (عليه السلام) اتصافه به على سبيل السؤال. وهي كلمة قوية جداً؛ فالآسى: شدة الحزن³.

¹ التعريفات، علي بن محمد بن علي زين الشريف الجرجاني، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1983م، ص24، موسوعة الأخلاق الإسلامية، مجموعة من الباحثين بإشراف الشيخ علوي بن عبد القادر السقاف، موقع الدرر السنية، 1433هـ، (3/ 397).

² تفسير سورة الأعراف، ص654.

³ تفسير سورة الأعراف، المصدر السابق، ص654، مفردات الراغب الأصفهاني، ص18، لسان العرب، (14/ 34).

ويقال: أَسِيْتُ عَلَيْهِ أَسَى. قال العجاج: وَأَنْحَلَّتْ عَيْنَاهُ مِنْ فَرْطِ الْأَسَى¹. وقال تعالى: ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾. وأصل كلمة (أَسَى): اتِّبَاعُ الْفَائِتِ بِالْغَمِّ، فهو قريب من (التَّأْسِي). فيقال: أَسِيْتُ لَهُ، أي لأجله². قال البحتري:

أَسِيْتُ لِأَخْوَالِي رَبِيعَةَ إِنْ عَفَتْ مَضَايِفُهَا مِنْهَا وَأَقْوَتْ

ومعنى كلام شعيب (عليه السلام): فكيف يشتدُّ حزني؟ أو تعظمُ كُربتي على قومِ كافرين؟ فكيف أزيلُ عَسَاكُم؟ أي شِدَّةُ بُؤْسِكُمْ، وعمقُ شقائِكُمْ، وأنتم كافرون؟ فكيف أعالج حياتكم البائسة وأنتم كافرون؟ أي: فكيف أحزن الحزن الشديد على قومِ كافرين، أعذرتُ إليهم، وبذلتُ جهدي في سبيل هدايتهم ونجاتهم، فاختاروا ما فيه هلاكهم؟ وإنما يَأْسَى من قَصَّرَ فيما يجب عليه من النُّصح والإِنذار⁴. فجمعت (أَسَى) كلَّ هذه المعاني⁵.

وقال الدكتور صلاح الخالدي - رحمه الله -: ولا غرابة أن يُخاطب شعيب (عليه السلام) قومه الموتى بعد موتهم بقوله لهم: ﴿يَا قَوْمَ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾، لأنه يعلم أنهم الآن بعد موتهم يسمعون كلامه، ولكن لا يقدرُونَ على الردِّ عليه، لانْتِقَالَهُمْ إِلَىٰ مَرِحَلَةِ الْبَرزَخِ وَالْقَبْرِ، حيث يسمع الأموات كلام الأحياء، لكنهم لا يردُّون عليهم⁶.

¹ ديوان العجاج، رواية عبد الملك الأصمعي حققه الدكتور عزة حسن، دار الشرق العربي، سوريا، ط1، 1995م، ص156.

² تفسير سورة الأعراف، ص655.

³ ديوان البحتري، البحتري، دار المعارف المصرية، 2009م، ص1298.

⁴ تفسير المنار، (9/13).

⁵ تفسير سورة الأعراف، ص656.

⁶ القصص القرآني، الخالدي، (2/40).

وهذا ما فعله رسول الله ﷺ مع قتلى المشركين من قريش في معركة بدر بعدما دفنهم في القليب¹.
روى مسلم عن أنس بن مالك (رضي الله عنه) قال: إن رسول الله ﷺ ترك قتلى بدر ثلاثاً، ثم أتاهم فقام عليهم، فناداهم فقال: «يا أبا جهل بن هشام، يا أمية بن خلف، يا عتبة بن ربيعة، يا شيبة بن ربيعة، أليس قد وجدتم ما وعد ربكم حقاً؟ فإني وجدت ما وعدني ربي حقاً». فسمع عمر قول النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، كيف يسمعون؟ وأنى يُجيبون، وقد جئفوا؟ قال: «والذي نفسي بيده، ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، ولكنهم لا يقدر أن يُجيبوا»².
فما فعله شعيب (عليه السلام) مع قومه الكفار بعد موتهم، هو ما فعله محمد ﷺ مع قومه الكفار³.

وقال الدكتور محمد عيَّاش في تفسير قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾: هو حوار مع النفس يحكي حال التردُّد بين التسليم بقضاء الله وحكمه وفضله، وبين الحزن على الأقربين الذين ماتوا على الكفر، وهلكوا بسببه. وهو تردُّد مشروع ومقبول، إذ الحزن هنا لا يُعارض التسليم، بل هو لوعة عاطفية بحكم الرحمي والقربي، تجري جنباً إلى جنب مع الإيمان بالله، والتسليم بقضائه⁴.

وقال السعدي - رحمه الله - في تفسيره للآية: أي فكيف أحزن على قوم لا خير فيهم، أتاهم الخير فردُّوه، ولم يقبلوه، ولا يليق بهم إلا الشر؛ فهؤلاء غير حقيقين أن يُحزن عليهم، بل يُفرح

¹ القصص القرآني، (2/ 40).

² مسلم، رقم 2874، صحيح السيرة، إبراهيم العلي، ص 274.

³ القصص القرآني، (2/ 41).

⁴ مجالس النور في تدبر القرآن الكريم، دار نشر جامعة قطر، 2023، (1/ 456).

بإهلاكهم ومحقتهم. فعياداً بك اللهم من الخزي والفضيحة، وأيُّ شقاء وعقوبة أبلغ من أن يصلوا إلى حالة يتبرأ منهم أنصح الخلق لهم؟¹.

- ﴿فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾؟ إنه من مِلَّةٍ، وهم من مِلَّة. فهو أُمَّة، وهم أُمَّة. أما صلة الأنساب والأقوام، فلا اعتبار لها في هذا الدين، ولا وزن لها في ميزان الله. فالوشيجة الباقية هي وشيجة هذا الدين، والارتباط بين الناس يكون في الحبل المتين².

- ﴿فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾؟ فهم كافرون، غير مأسوف على هلاكهم، ولكن قلوب الأنبياء لا تحمل حقداً على أحد، ولا تريد للناس إلا الخير والسعادة³.

- ﴿فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾؟ أي فكيف أحزن على قوم أنكروا وحدانية الله، وكذبوا رسوله، ولقد أعذر من أنذر⁴. وقد خرج شعيب والذين آمنوا معه من بين أظهرهم، ونجّاه برحمته منه سبحانه وتعالى.

قال الشنقيطي - رحمه الله -: أنكر نبي الله شعيب (عليه السلام) - على نبيِّنا ﷺ - الأسي، أي الحزن على الكفار إذا أهلكهم الله بعد إبلاغهم، وإقامة الحجّة عليهم، مع تماديهم في الكفر والطغيان، لجأجا وعناداً. وإنكاره لذلك يدلّ على أنه لا ينبغي، وقد صرّح الله تعالى بذلك، فمنه نبيُّنا عنه في قوله: ﴿وَلَا يَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا ۗ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: 68].

¹ تفسير السعدي، ص363.

² في ظلال القرآن، (3/1322).

³ التفسير الموضوعي، (3/110).

⁴ التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، وهبة الزحيلي، دار الفكر المعاصر، بيروت، دار الفكر، دمشق، الطبعة الأولى، 1411هـ - 1991م، (5/10).

وقال القاسمي - رحمه الله - : من أحكام الآية أنها تدل على أن قوم شعيب أُهلكوا بعذاب الاستئصال؛ لِما لم يقبلوا نصيحة نبيهم. فتدل على وجوب قبول النصيحة في الدين، وتدل على أنه لا يجوز الحزن على هلاك الكفرة والظلمة، بل يجب أن يُحمد الله ويُشكر، كما قال تعالى:

﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: 45]¹.

¹ محاسن التأويل، (7 / 218)، التدبر والبيان في تفسير القرآن بصحيح السنن، د. أبي سهل محمد عبد الرحمن المغراوي، (11 / 392).

المبحث الثالث: قصة شعيب (عليه السلام) في سورة هود

قال الله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنِّ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْفُسُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخُسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْنُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَتْ اللَّهُ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾ قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنْتُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقْنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنهَأَكُم عَنْهُ إِن أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمٌ لَّوِطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾ قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظَهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعَدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾ ﴿٩٥﴾﴾

[هود: 84-95].

سورة هود هي السورة الحادية عشرة في ترتيب سور المصحف الكريم، وهي مكية بإجماع العلماء. ابتدأت السورة ببيان أحكام آيات الله، بينما كانت السورة السابقة، سورة يونس، قد افتتحت بالحكمة أيضًا. غير أن الفرق بينهما أن سورة يونس ركزت على حكمة الله في قضائه وقدره، أما سورة هود فتحدثت عن حكمة الله في كتابه وآياته، لتركز على دور المؤمن في التعامل مع الواقع مستعينًا بآيات الله العزيز.

إن هدف السورة هو التوازن في مواجهة الأزمات، وذلك بالاستقامة على الحق، والاستمرار في طريق الدعوة والإصلاح، دون طغيان وتهور، ودون الركون لأهل الباطل، أو تقليدهم، أو الارتواء في أحضانهم، أو الاستسلام لهم. ولأن هذا التوازن أمر عسير على النفس البشرية، فقد كان التزود بالصحة الصالحة أمرًا ضروريًا، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ تَابَ مَعَكَ﴾ [هود: 112]. وقد قال الحسن البصري - رحمه الله - تعليقًا على هذا المعنى: "سبحان الذي جعل اعتدال الدين بين (لاءين): ﴿وَلَا تَطْغَوْا﴾، و ﴿وَلَا تَرْكُنُوا﴾"¹.

وقد نزلت سورة هود في أجواء عصبية أحاطت بالنبى ﷺ، فتولت تثبيته على المنهج، من خلال وضع أسس ومقومات ذلك الثبات²، وعرض سير الأنبياء ومواجهاتهم مع أقوامهم، وتقديم نماذج للنبي ﷺ ولأتباعه من خلال بيان منهج الرسل في مواجهة الباطل والكفر والعناد. وقد اشتملت سورة هود على قصص عدد من أنبياء الله: نوح، وهود، وصالح، وشعيب، وموسى - عليهم السلام - وكان التركيز في كل قصة على تطبيق النبي المرسل للأوامر الثلاثة:

1. الاستمرار على الحق: ﴿فَاسْتَقِمَّ﴾.
2. عدم الطغيان: ﴿وَلَا تَطْغَوْا﴾.
3. عدم الركون إلى الباطل: ﴿وَلَا تَرْكُنُوا﴾.

وقد سميت السورة باسم نبي الله هود (عليه السلام)، لتجسد قصة دعوته مبدأ الاستقامة والتوازن. كما بينت السورة الكريمة للمؤمنين أن الآخرة هي دار تحقق العدل الإلهي، وأن مما يعين على الاستقامة: العبادة (خصوصًا الصلاة)، والصبر، والعمل، والإصلاح، والدعوة إلى الله³.

¹ مقاصد سور القرآن، ص 69.

² الخارطة القرآنية، مشعل الفلاحى، ص 103.

³ مقاصد السور، ص 71.

أولاً: قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنِّ إِلَهٍ غَيْرُهُ ۗ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ ۗ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ۗ﴾ [هود: 84].

كلّما فرغ السياق القرآني من قصة افتتح قصة جديدة، فبعد نوح وقومه، جاءت قصة هود وقومه، ثم صالح وقومه، ثم جاءت قصة إبراهيم، ومن ضمنها قصة لوط مع قومه، وكانت قصة متميزة من حيث إنّ الملائكة جاءت بالبشرى بهلاك قوم لوط، ثم بُشِّرَ إبراهيم بالولد، ولم تُذكر موعظة القوم التي دعاهم إليها إبراهيم. والآن جاءت قصة شعيب مع قومه مدين، وافتتحها بالعطف على النسق السابق فقال: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ﴾، دون أن يقول: "ولقد أرسلنا"، لأنّ القصص كلها نسق واحد، فاكتفى بعطف قصة على القصص السابقة¹.

1- ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ﴾:

الواو للعطف؛ عطف قصة على قصة، أو للاستئناف كأنّ سائلاً سأل: وماذا بعد هلاك قوم لوط؟ فجاء الجواب بهذه الآية. وقدم ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ ۗ﴾ على ﴿أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ﴾ ليس لأهمية مدين، وإنما للترتيب الوجودي، إذ قدّمت علّة الإرسال على الإرسال نفسه. وعلّة الإرسال: وجود قوم فُشّا فيهم الشرك والمعاصي، فاقتضى إرسال رسولٍ منهم، وهو أخوهم شعيب: أخوهم الذي هو منهم، يعيش بينهم، وفيهم عمره كلّ، فهو منهم وأوسطهم ووسطهم، ليس مجهولاً ولا منكرًا. شعيب من أنبياء البيئة العربية، ومدين تقع جنوب الأردن شمال الجزيرة، والله أعلم².

¹ تفسير سورة هود، المصدر السابق، ص 304.

² نبي الله صالح، الصلابي، ص 82.

2- ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾:

تبدأ دعوة كل نبي ورسول بمناداة قومه بالتحجب إليهم في النسب والانتماء القبلي والقراية الدموية، ثم يدعوهم إلى جوهر الدين، وهو: إفراد الله وحده بالعبادة¹ الأنبياء جميعًا يؤكدون في رسالاتهم لأقوامهم على حقيقة التوحيد ووحداية الله وتفردّه بالعبادة، والتوجه إليه في كل شيء سبحانه وتعالى².

— ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ هذه الكلمات هي ملخص الدين كله منذ آدم إلى خاتم المرسلين، فلا يعدو الدين هذه الكلمات. العبادة كلمة جامعة شاملة، تشمل الشعائر (العبادات)، ولكنها أيضًا تشمل كل نشاط الحياة، ولا تقتصر على الشعائر فقط؛ فحصرها في الشعائر من تقصير الفهم. الشعائر مهمة قطعًا، وهي أركان، لكن الدين أشمل منها³. فالإسلام يدعو إلى عمارة الأرض بتنفيذ كل التكليف، وكل ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، فيقبل الإنسان على مهنة يحتاجها المجتمع هو عبادة⁴.

— كل إنسان عابد بالضرورة وبالضرورة؛ فهو لا ينفك عن عبادة وطاعة معبود. فإن استكبر عن عبادة الله، وقع في عبادة غيره ممن لا يستحق العبادة، كالشياطين، أو من عبد من دون الله من شجر أو حجر أو بشر أو شمس أو قمر أو رموز أو عادات أو تقاليد أو قوى نافذة، فقد تعددت

¹ الأمة في الرؤية الإسلامية، عمر إسماعيل، دار الكتب القانونية، 2013م، ص91.

² تفسير سورة هود، ص198.

³ تفسير الشعراوي، (11/ 6598).

⁴ تفسير سورة هود، ص198.

المعبودات، وجاء الدين ليردّ الناس إلى العبادة الحق، وجاء الرسل ليعيدوا الناس إلى المعبود الحق، وهو الله سبحانه وتعالى، فلا يستحق العبادة إلا هو¹.

- ولذا لم يقتصر قول نبيّ الله شعيب (عليه السلام) على قوله: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ﴾، بل أتبعه بـ ﴿مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾، فلا يُعبد معه أحد، ولا يُعبد من دونه أحد، كائنًا من كان².

- إنّ قوم شعيب (عليه السلام) انحرفوا عن التوحيد وإفراد العبادة لله عزّ وجل، نتيجة العناد والاستكبار والظلم والكفر، وبخس الناس، والإفساد في الأرض، والصدّ عن سبيل الله. وانشغلوا بالماديات، فكانت حياتهم مترفة، مُسرفة، ظالمة، ونسوا نعم الله، فلم يشكروا الله عليها. فذكّرهم شعيب (عليه السلام) بالتوجّه إلى عبادة الله وحده، وترك كل الآلهة التي تُعبد من دون الله.

- ﴿مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾: "ما" نافية بمعنى "ليس"، و"لكم" مقدّمة للاهتمام³، و"من" جيء بها للاستغراق في النفي، وكان قومه يتخذون آلهة من دون الله يقدّسونها ويعبدونها، فدعاهم إلى عبادة الله وحده. وفي العبارة تعليل للأمر⁴. وذكر لفظ ﴿إِلَهٍ﴾ في سياق النفي ليفيد النفي المطلق، ومطلق النفي⁵.

و﴿غَيْرُهُ﴾ مرفوعة على أنّها اسم "ما" أو "ليس"، والضمير المضاف إليه (الهاء) يعود إلى الله تعالى⁶.

¹ تفسير سورة هود، المصدر السابق، ص 198.

² تفسير سورة هود، ص 304.

³ نماذج بلاغة القرآن الكريم، د.علي محمد البهجي، ص 200.

⁴ تفسير سورة هود، ص 305.

⁵ تفسير سورة هود، المصدر السابق، ص 305.

⁶ تفسير سورة هود، ص 305.

3- ﴿وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ﴾:

كلُّ نبيٍّ من الأنبياء (عليهم السَّلام) كان بعد الدعوة إلى تنقية العقيدة والعبادة وتخليصها لله عزَّ وجل، يتحدَّث عن مشكلة اجتماعية رئيسية متفشية في قومه. وقوم شعيب، وهم مدين، كانت مشكلتهم البارزة - بعد العقيدة والعبادة - هي التطفيف في الكيل والميزان¹.

﴿وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ﴾ هذا أسلوب نهي، لأن قومه كانوا - مع كفرهم - أهل تطفيف، يخسون الناس أشياءهم. والواو: عاطفة، و"لا" ناهية، والفعل المضارع بعدها مجزوم، وعلامة جزمه حذف النون، لأنه من الأفعال الخمسة، والواو فاعل، و"المكيال" مفعول به، و"الميزان" معطوف على المكيال².

يقول البقاعي - رحمه الله -: "ولما دعا إلى العدل فيما بينهم وبين الله، دعاهم إلى العدل فيما بينهم وبين عباده، في أقبح ما كانوا قد اتخذوه. فالمراد بالكيل: هو تعديل الشيء بالآلة في القلَّة والكثرة، والمراد بالوزن: تعديل في الخفة والثقل"³.

﴿وَلَا تَنْقُصُوا﴾ أي لا تُخسروا ولا تُبخسوا الناس في كيلكم لهم ما يُكال، كالقمح والشعير والحبوب، حيث كانت تُكال بالصاع أو نحوه... ولا تنقصوا ولا تُطِّفِّفُوا وزن الأشياء التي توزن، كالثمار وباقي الموزونات من حاجيات الناس⁴.

¹ نماذج من بلاغة القرآن الكريم، ص 200.

² نظم الدرر، (9 / 351).

³ تفسير سورة هود، ص 305.

⁴ تفسير سورة هود، المصدر السابق، ص 305.

• ﴿إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ﴾:

يقول شعيب لقومه مؤكداً: إني أراكم بخير، أي في سعة وبجوحة ينبغي أن يُحافظ عليها بالتزام منهج الله، ولا تُغضبوه سبحانه، فيسلبكم ما أنتم فيه من رخاء. ثم إنَّ ما أنتم فيه من خير يُغنيكم عن الأساليب الدنيئة من نقص الناس وتطفيف الموازين وبخس الحقوق. والباء في "بخير" للملابسة¹. ولم يقل: "إنكم بخير"، فجعل خيرهم ظاهراً للعيان، يبدو للرائي، وليس أمراً مستوراً كمن يُخفي ما عنده من الخير². وفي كلام شعيب عليه السَّلام حثُّ على الحفاظ على النعمة، وذلك عن طريق شكرها لله عزَّ وجل.

• ﴿وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾:

أكد مرةً أخرى، مع قصر الفاصل - أعني قوله "إني" - لإظهار مزيد من الاعتناء والاهتمام، علَّهم يتأثرون وينزجرون. ﴿أَخَافُ عَلَيْكُمْ﴾ أي: إني حريص عليكم، وأخشى أن يُوقعكم ما أنتم فيه من شرك وتطفيف فيما يُخشى ويُحذر من عقاب الله³.

﴿عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾ هذا هو الذي يخشاه على قومه. وقد أضاف العذاب إلى اليوم، ووصف اليوم بوصف "محيط"، أي: محيط بكم، أو أن العذاب ممتد طيلة هذا اليوم⁴.

قال الطاهر بن عاشور - رحمه الله -: "أمرهم بثلاثة أمور: أحدها إصلاح الاعتقاد، وهو من إصلاح العقول والفكر، وثالثها صلاح الأعمال والتصرّفات في العالم بأن لا تفسدوا في الأرض،

¹ على طريق التفسير البياني، فاضل السامرائي، دار ابن كثير، ط1، 2017م، (3/318).

² تفسير سورة هود، ص305.

³ تفسير سورة هود، المصدر السابق، ص306.

⁴ التحرير والتنوير، (5/584).

ووسَّطَ بينهما الثاني، وهو شيء من صلاح العمل، خاصٌّ بالنهي، لأن إقدامهم عليه كان فاشياً فيهم حتى نسوا ما هم فيه من قبح وفساد. وهذا هو الكفّ عن نقص المكيال والميزان. وابتدأ بالتوحيد، لأنه أصل الصلاح¹.

وقال البيضاوي - رحمه الله -: "أمرهم بالتوحيد أولاً، فإنّه ملاك الأمر، ثم نهاهم عمّا اعتادوه من البَخس المنافي للعدل المِخْلَ بحكمة التعاوض.

﴿إِنِّي أَرَأَيْتُمْ بِحَيْرٍ﴾ بسعة تُغنيكم عن البَخس، أو بنعمة حقّها أن تتفضّلوا على الناس شكرًا عليها، لا أن تُنقصوا حقوقهم. أو بسعة، فلا تُزيلوها بما أنتم عليه، وهو في الجملة علّة للنهي".

﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾: لا يشدّ أحد منكم، و"عذاب مُهلك"، من قوله: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ﴾. والمقصود عذاب يوم القيامة أو عذاب الاستئصال، ووُصِفَ اليوم بالإحاطة، وهي صفة العذاب، لاشتماله عليه².

إن شعبيًا عليه السّلام خوّف قومه من عذاب الآخرة، وهذا التخويف أقام توازنًا بين الدنيا والآخرة. وبعبارة أخرى، ذكّر قومه بأن يأخذوا في الاعتبار الآخرة، ولا يكون همُّهم الدنيا وحدها.

ومن الفوائد والدروس في هذه الآية:

- توحيد الله وعبادته وإفراده بهذه العبادة هو جوهر كل الرسالات.

¹ أنوار التنزيل وأسرار التأويل، عبد الله بن عمر البيضاوي، دار إحياء التراث العلمي، بيروت، ط1، 1418، (3/144).

² تفسير سورة هود، ص308.

- كان كل نبي من الأنبياء عليهم السلام يُشير، بعد توحيد الله، إلى مشكلة اجتماعية فاشية منتشرة في قومه، ليبرهن على لزوم التوحيد، لأن هذه المشكلات والمفاسد ناشئة عن الابتعاد عن توحيد الله وترك عبادته.
- ضرورة شكر النعم ورعايتها، وإلا فإن كفرانها مؤذن بزوالها.
- الله حليمٌ صبور، وهذا الحلم يجعل غير العقلاء من الأقوام يتمادون في غيِّهم، حتى يقعوا في دائرة العذاب، فيأخذهم بذنوبهم.
- العقيدة في الله وثيقة الصلة بالأمانة في التعامل مع الناس.
- كان شعيبٌ عليه السلام يُسمّى "خطيب الأنبياء" لحسن مراجعته قومه¹.

ثانياً: قوله تعالى: ﴿وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾:

نهى شعيبٌ (عليه السلام) قومه عن نقص المكيال والميزان في الآية السابقة، وفي هذه الآية يأمرهم بالسلوك السوي، والبديل المرضي عما هم فيه من نقص، وذلك بالإيفاء في المكايل والموازين. ولم يكتف بالنفي، بل أضاف إليه الإيجاب بلزوم الوفاء، فقال: ﴿أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ﴾².

1- ﴿وَيَا قَوْمِ﴾:

هذا هو النداء الثاني من ضمن ستة نداءات كررها شعيب لقومه تحبباً وتلطفاً وتألفاً وتودداً، ولا جدوى. وهو بهذه الكلمة "يا قوم" يستثير في نفوسهم رابطتهم به وربطته بهم. والقربة إحدى الوسائل التي تربط الناس. ولا ريب أن أعلى هذه الوسائل: الأخوة في الله، ولكنها لا تتعارض مع

¹ تفسير سورة هود، المصدر السابق، ص 309.

² تفسير سورة هود، المصدر السابق، ص 309.

الوشائج الأخرى، فهذا هو الأصل، أما إن تعارضت لعارض من العوارض، فلا يتقدم على رابطة في الله رابطة¹. والدرس المستفاد من خطاب شعيب (عليه السلام) بعبارة "يا قوم" أن الداعي مطالب أن يُبلِّغ دعوته بالتي هي أحسن، وأن يتحسَّس العناصر التي يدخل بها إلى قلب المدعو ويؤثر فيه، بحيث يؤهله وجدانيًّا لقبول دعوة التوحيد وإفراد العبادة لله، والالتزام بالعدل في المكيال والميزان².

2- ﴿أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾:

التطيف ذكر في الآية السابقة، والآن يأخذ بنقيضه، وهو الوفاء والتمام، سواء كُلت لنفسك أو لغيرك.

والمكيال: ما تُكال به الأشياء من حبوب ونحوها، وتكال الأرض كذلك أي تُقاس، وكذلك القماش وكثير من الأشياء كعدادات الوقود وعدادات السيارة، فلا تتلاعبوا بها. والميزان: ما توزن به الأشياء الموزونة، من ميزان الذهب والمعادن النفيسة إلى الأشياء الخسيسة، أي في كل الموزونات، زنها بالقسط، أي بالعدل³. والإيفاء هو الإتمام⁴. وقد جاء به مقيدًا بـ ﴿بِالْقِسْطِ﴾ صراحةً، أي بالعدل أو الحق، ليكون الإيفاء المأمور به على جهة العدل والتسوية، وهو القدر الواجب؛ لأن ما جاوز العدل فضلٌ وأمْرٌ مندوبٌ إلي⁵. وإن في توارد الدلالات

¹ إعجاز القرآن الكريم في مجالات العلوم الاجتماعية، رفعت السيد العوضي، المؤتمر العالمي الأول للباحثين في القرآن وعلومه، 2011م، ص82.

² تفسير سورة هود، ص210.

³ تفسير القرطبي، (9/86).

⁴ البحر المحيط، (5/252)، الكشاف، (2/285).

⁵ تفسير أبي السعود (إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم)، أبي السعود محمد بن محمد العمادي، مكتبة الرياض الحديثة، 2009م، (4/231)، فتح القدير، (2/518).

وتعاضدها في النهي عن النقص، والأمر بالإيفاء لبلاغًا أكيدًا، وتأكيديًا حسنًا لحمل القوم على ما دعاهم إليه، والإقلاع عما نهاهم عنه، ليُصلحوا ما أفسدوه، وجعلوه معيارًا لظلمهم، وقانونًا لعداوتهم، وشاهدًا عليهم بالبغي والعدوان¹.

• ﴿بِالْقِسْطِ﴾: يجب أن تُبنى حياة الناس الاقتصادية، وكل مناحي حياتهم على قيمة العدل، الذي يؤمن قيام مجتمع صحيح في كل العلاقات التي تحكم أفرادَه وتنظيماته، فالفكرة المركزية في التشريعات الربانية قائمة على العدل والرحمة، ومصالح الإنسان الدنيوية والأخروية. وبالعدل تُقام المجتمعات، وترتقي به الشعوب، وتقوى به الدول، وتنتشر وتتوسع به الحضارات.

3- ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾:

ولا تنقصوا من قيمة أشياء الناس. وإن كانت كلمة "أشياءهم" قد تتصرف في الذهن إلى الماديات، لكن البخس يكون فيها وفي المعنويات. والبخس: النقص من قيمة الشيء، وهذا معلوم في المادة، فإن كان مشتريًا أنقص الثمن، وإن كان بائعًا أغلى الثمن. فإذا كان شيء يساوي 100، فلا تقل إنه يساوي 50 أو 70 مثلاً. ولا مانع من المجادلة في الأسعار، لكن هذا شيء، والبخس شيء آخر، خاصة ممن يملكون زمام الأسواق، كاحتكارات الشراء من المزارعين، أو من أصحاب المصانع الصغيرة والمشاريع المحدودة، فينتقص كما يشاء لأنه يحتكر السوق. ومن هنا فإن هؤلاء يشترون الأشياء بأقل الأثمان، ثم يبيعونها بأعلى الأثمان، وهذا في الاحتكارات واضح متجلى ظاهر². وصور البخس متعددة ومتنوعة وكثيرة.

¹ تفسير سورة هود، ص 310.

² تفسير المنار، (12/ 142).

• ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾:

وهذا أعمّ مما سبقه من النواحي، إذ إن البخس يشمل النقص والعيب في كل شيء. يقال: بخسه حقه، وبخس ماله، وبخس علمه وفضله¹.

والبخس يدخل عالم النقص بصور يتمثل فيها السلب، أو المخادعة، أو الغَضّ، أو التصرف في أمر دون صاحبه، أو على وجه لا يرضاه، أو الذم أو القبح².

• ﴿النَّاسِ﴾:

يشمل كل البشر على مختلف عقائدهم وأديانهم وألوانهم وشعوبهم وأممهم ودولهم وأحوالهم المعيشية والثقافية والحضارية.

• ﴿أَشْيَاءَهُمْ﴾:

أضيف البخس إلى أوسع الألفاظ شمولاً، وجيء به بصيغة الجمع، فقال: "أشياءهم"، إخباراً عن سعة دائرة جرائم القوم، الذين تعددت جرائمهم وتنوّعت معاصيهم³. والأشياء: جمع "شيء"، وهو أعمّ الألفاظ، وجمعه يشمل مال الأفراد ومال الجماعات والأقوام، من مكمل، وموزون، ومعدود، ومحدود بالحدود الحسية من حقوق مادية ومعنوية⁴. وكما يكون البخس في المحسوسات، كذلك يكون في المعنويات. وفي هذا يقول الألوسي:

¹ شعيب عليه السلام من وحي القرآن، عقيل حسين عقيل، دار ابن كثير، 2011م، ص 195.

² الدعوة إلى الله في سورة هود، ص 712.

³ تفسير المنار، (12/ 142).

⁴ روح المعاني، الألوسي، (8/ 177).

"ويكون ببخس الرجل حقه من حسن المعاملة، والتوقير اللائق به، وبيان فضله على ما هو عليه للسائل عنه"¹.

ومن صور البخس المعنوي:

- أن يُنْقَصَ الناس أقدارهم.
- أن تُنال مكانة ذوي الفضل.
- أن نطعن في علم أهل العلم بغير بيّنة، حسدًا أو حقدًا.
- ألا يُوضع الرجل المناسب في المكان المناسب.
- أن يُطعن في المؤلفات النافعة والكتابات العظيمة بالباطل، بسبب الحسد والغيرة والأهواء ووساوس الشيطان.
- أن تُشوّه حركات النضال والكفاح والجهاد ضد الاستعمار، وتُروّج التهم والإشاعات وتُلصق بالعلماء والزعماء الحقيقيين، وتُصنع زعامات مزيفة تخدم مصالح المحتل.
- أن تُفرض مناهج تعتمد على الكذب والبهتان، وتشويه الإسلام وعقائده وتاريخه بالأكاذيب والأساطير.
- أن يُتّهم العلماء والدعاة بالعنف والتطرّف.

وبعد أن نهي (عليه السلام) عن نوع من البخس، وهو التطفيف في الكيل والوزن، وبخس الناس أشياءهم، تدرّج في الدعوة، فنهاهم عن أمر عام، وهو أعمّ بخسًا: عثيانهم في الأرض فسادًا.

¹ الدعوة إلى الله في سورة هود، 713.

4- ﴿وَلَا تَعْتَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾:

قال الله تعالى على لسان شعيب (عليه السلام): ﴿وَلَا تَعْتَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾، أي لا تسعوا في الأرض فسادًا، أو لا تنشروا الفساد، أو لا تقطعوا الطريق على الناس بالتعرض لهم من سرقة أو ابتزاز مقابل المرور أو الإنفاق، أو بإسماهم ما يكرهون إذا مروا، أو نحو ذلك من صور لا تنتهي¹.

وقد وردت الكلمة لبني إسرائيل كما في سورة البقرة، وقيلت لمدين كما في سورة العنكبوت. وفي الأعراف قال لهم شعيب (عليه السلام): ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾، بمعنى عدم الإخلال بما أودع الله في الأرض من قوانين وتوازنات.

﴿وَلَا تَعْتَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾، أي لا تتمادوا في الفساد، والمقصود النهي عما كانوا عليه من التمادي في الفساد². وقد جاء في "الكشاف" أن العثي في الأرض نحو السرقة والغارة وقطع السبيل³. وجاء في "روح المعاني" أن العثي يعم تنقيص الحقوق وغيره؛ لأنه عبارة عن مطلق الفساد⁴. فلا استمرار على المعاصي يُفسد الأديان والعقائد، ويهلك الدين والدنيا، والحرث والنسل⁵.

تدرّج شعيب (عليه السلام) من الخصوص إلى العموم، ومن السيء إلى الأسوأ، فبدأ بالنقص في المكيال والميزان، ثم تدرّج إلى البخس وهو أعم، إذ لا يكون في الكيل والميزان فقط، بل في غيرها،

¹ تفسير سورة هود، ص311.

² تفسير سورة هود، المصدر السابق، ص312.

³ على طريق التفسير البياني، (3/ 320).

⁴ روح المعاني، (12/ 116).

⁵ تفسير السعدي، ص490.

ثم ارتقى لما هو أعم وأعظم وهو العثو في الأرض فسادًا، فبدأ بنقص الحقوق وانتهى بالعدوان والإفساد¹.

قال الطاهر بن عاشور -رحمه الله-: "سلك في نهيهم عن الفساد مسلك التدرّج؛ فابتدأ بنهيهم عن نوع فساد فاشٍ فيهم، وهو التطفيف، ثم ارتقى فنهاهم عن جنس ذلك النوع، وهو أكل أموال الناس، ثم ارتقى فنهاهم عن جنس أعلى للفساد الشامل لجميع أنواعه، وهو الإفساد في الأرض كلّها، وهذا من أساليب الحكمة في تهيئة النفوس لقبول الإرشاد والكمال"².

﴿وَلَا تَعْتَوُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾: قاعدة عظيمة في منع نشر الفساد في الأرض، فقد حذّره شعيب (عليه السلام) من العثو، وهو أشد الفساد؛ أي لا تتمادوا فيه، من قتل وشرك وظلم وإهلاك للحرث والنسل³. ولا تُخربوا الأرض بالمعاصي، فإن المعاصي تترك الديار العامرة بلا وقع⁴. فنعم الله كثيرة، والأرض صالحة للعيش الكريم السعيد، فلا تفسدوها بموالة الشيطان واتباع الشهوات والملذّات والأهواء⁵.

إن المتدبر في القرآن الكريم يجد أن الله نهي عن الفساد، وحذّر منه، وبيّن أنه - سبحانه وتعالى - لا يحب الفساد ولا المفسدين، قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ﴾، وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾.

¹ على طريق التفسير البياني، (3/ 321).

² التحرير والتنوير، (5/ 585).

³ تفسير القرآن الثري الجامع، (4/ 112).

⁴ تفسير السعدي، (1/ 762).

⁵ التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، نخبة من كبار علماء القرآن وتفسيره بإشراف الأستاذ الدكتور مصطفى مسلم،

كلية الدراسات العليا والبحث العلمي، جامعة الشارقة، الإمارات العربية، 2010م، (3/ 95).

ونهى الأنبياء في القرآن عن الفساد في الأرض بعد أن كانت صالحة، وأوضح القرآن أن الإفساد صفة من صفات المنافقين، وحث الله هذه الأمة أن يكون فيها مصلحون لما أفسد الناس، قائمون بدين الله، يدعون من ضلّ إلى الهدى، ويصبرون على أذاهم، ويصبرونهم من العمى¹، ويرشدونهم إلى الاقتداء بمنهج الأنبياء والمرسلين في محاربة الفساد والدعوة إلى الإصلاح الشامل.

لقد تصدّى شعيب (عليه السلام) لصور وأشكال الفساد وأنواعه المختلفة التي كانت في عصره؛ كالفساد العقدي، والأخلاقي، والاجتماعي، والاقتصادي، والسياسي، والإعلامي، وقام بمواجهته بالحكمة والعقل والمنطق، على منهج الله وشرعه ووحيه سبحانه وتعالى.

فقد انغمس قوم شعيب (عليه السلام) في الشرك وعبادة غير الله، فدعاهم إلى التوحيد، وأصيبوا بعلة اجتماعية خطيرة انعكست على حياتهم الاقتصادية، كنقص المكيال والميزان، وبخس الناس أشياءهم، والإفساد في بلادهم؛ فسار شعيب على منهج الأنبياء والمرسلين، الذي هو في حقيقته المنهج الإلهي في إحقاق الحقوق، ومحاربة الظلم والفساد والبخس.

ثالثاً: قوله تعالى: ﴿بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ ۚ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾ [هود: 86]:

هذه تتمّة كلام شعيب (عليه السلام) لقومه، وقد ركّز في الآيتين السابقتين، بعد التوحيد وعبادة الله، على عدم نقص المكيال والموازين، وأكد وجوب وفائها بالقسط. وبعد ذلك جاءت هذه الآية لتبيّن أن العاجلة لا ينبغي أن تُنسى الناس الآخرة الباقية، فهو هنا يُذكّرهم بما يبقى².

¹ الإصلاح والإفساد في ضوء القرآن الكريم، توفيق زبادي، دار المقاصد للنشر، 2016م، ص44.

² تفسير سورة هود، 324.

1- ﴿بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾:

أ. ﴿بَقِيَّةُ اللَّهِ﴾: كلمة "بقيّة" كلمة جامعة لمعاني كلام العرب، منها الدوام، وهي مؤذنة بضدّه وهو الزوال. فأفادت أن ما يقترون متاعاً زائلاً، وما يدعوهم إليه حظُّ باقٍ غير زائل، وبقاؤه دنيوي وأخروي.

- فأما كونه دنيويّاً: فلأن الكسب الحلال ناشئ عن استحقاق شرعيّ فطري، فهو حاصل من تراضٍ بين الأمة، فلا يحق المأخوذ منه على الآخذ، ولا يعاديه، ولا يتربص به الدوائر. وبهذا يتجنّب الفساد وتبقى الأمة في أمن من توثّب بعضها على بعض. ومن أجل ذلك قرّن المال بالدماء في خطبة الوداع، إذ قال النبي ﷺ: «إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ»؛ فكما أنّ إهراق الدماء بدون حق يفضي إلى التقاتل والتفاني بين الأمة، فكذلك انتزاع الأموال بغير وجهها يفضي إلى التوثّب والثوران، فتكون معرضة للابتزاز والزوال.

- وأيضاً فلأن نوال المال بدون رضا الله عن وسيلة أخذه يُعدّ كفراناً للنعم، ويُعرّض صاحبه لعقاب الله بسلبه. قال ابن عطاء الله: "من لم يشكر النعم فقد تعرّض لزوالها، ومن شكرها فقد قيدها بعقلها"¹.

- وأما كونه أخرويّاً: فلأنّ الله نهى عن التطفيف مقارناً للوعد بالجزاء على تركه، وذلك الجزء من النعيم الخالد، كما في قوله تعالى: ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا﴾ [مريم: 76]².

¹ التحرير والتنوير، (5/ 588).

² التحرير والتنوير، المصدر السابق، (5/ 588).

كلمة "بقية الله" مضافة إلى اسم الجلالة تعظيمًا لشأنها. ومعنى "البقية": ما يبقى عند الله، إمّا هو وإمّا أجره. واللافت في الآية هو رسم "بقيت" بالتاء المفتوحة، للدلالة على سعة معناها وامتدادها وبقائها؛ فالرسم متسق مع المعنى، وهو -فيما نرى- توقيفي؛ إذ القرآن محفوظ بجميع صور الحفظ، ومن ضمنها رسمه، فليس هذا الرسم متروكًا لأذواق الناس¹.

وإضافة "بقية" إلى اسم الجلالة تفيد التشريف والتكريم، وهي إضافة على معنى اللام، لأن البقية من فضل الله، أو ممّا أمر به².

ب. (بَقِيَّةُ اللَّهِ): أي أنّ الله تعالى يُذهب عمّا يراعي حقوق غيره مصارف السوء³.

ج. (بَقِيَّةُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ): أي إنّ ما يُلقيه الله لكم من الحلال بعد إبقاء الحقوق بالقسط، خيرٌ وأكثر بركة ممّا تُبقونه لأنفسكم من التطفيف والبخس والفساد في الأرض⁴.

د. (خَيْرٌ لَّكُمْ): أي خير لكم من التطفيف والبخس والإفساد، لأن خيريته تشمل الدنيا والآخرة⁵.
- في الدنيا: إذا أوفيتهم وتركتم البخس والإفساد، حسنت سيرتكم، وطابت الأحداث عنكم، فقصدكم الناس في تجارتهم ومكاسبهم، فصار ذلك خيرًا لكم بسبب ديمومة التجارة والأرباح وتوسّع

¹ تفسير سورة هود، ص314.

² التحرير والتنوير، (5/589).

³ تفسير الشعراوي، (11/6609).

⁴ فتح القدير، (3/568-569).

⁵ تفسير البحر المحيط، (4/337).

المعاملات والتحلّي بالأمانة¹. فالتعامل الصالح يُورث ثقة الناس، وينفي ما قد يُتوهّم من سوء الظن، وقد سُوهّد أن التاجر الصادق يبارك الله له، والخائن يُمحَق بركته².

- وفي الآخرة: فإن الله عز وجل يوفيههم أجورهم لاتباعهم الصالحات، وقد وُصفت الصالحات بأنّها "الباقيات"³. وأوامر الله -عند اتباعها- يبقى للعباد أثرها وخيرها في الدنيا والآخرة⁴.

هـ. (إن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ): أي لا يستشعر هذه المعاني إلا من كان مؤمناً، ولا يُكتب أجر هذا الوفاء بالمكيال إلا للمؤمنين. فمن وقى بلا إيمان، فلا أجر له في الآخرة، وإنما له جزاء دنيوي فحسب، وهو ما قصده؛ فلا بخس ولا ظلم⁵.

وقد عُلق الثواب على الإيمان، أي لا يكون ذلك لكم خيراً عند الله إلا بشرط الإيمان والتوحيد، فلا ينفع عمل بدون إيمان⁶. فالإيمان بالله عز وجل، وتوحيده، وإفراده بالعبادة، هو نجاة للعبد في الدنيا والآخرة، وهو الدافع للالتزام بأوامره واجتناب نواهيه سبحانه وتعالى.

¹ الدعوة إلى الله في سورة هود، ص718.

² الدعوة إلى الله في سورة هود، المصدر السابق، ص718.

³ البحر المحيط، (5/252).

⁴ الدعوة إلى الله في سورة هود، ص718.

⁵ تفسير سورة هود، ص315.

⁶ البحر المحيط في التفسير، محمد يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي الغرناطي، دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى،

1420 هـ، ص372.

2- ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾:

أعلمهم شعيب (عليه السلام) بأنه قد أدى ما عليه من النصح والإرشاد إلى الخير، فإن أعرضوا، فما هو عليهم بحفيظ¹. فكما أخبر عن نفسه بقوله: (وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ)، أي لستُ بحافظٍ لأعمالكم ووكيلاً عليها، وإنما الذي يحفظها هو الله تعالى، وأما أنا فمبليغ لما أرسلتُ به².

إنَّ الرسل الكرام (عليهم السلام)، ومن بعدهم من الدعاة والمصلحين، لا يملكون سلطاناً على من يدعونهم، إلا سلطان الحجّة والإقناع، فالإنسان يختار ما يشاء ويتحمّل نتيجة هذا الاختيار³.

وفي شرح الكلمات:

- (وما): نافية تعمل عمل "ليس"، ولذا دخلت الباء على خبرها.
- (أنا): اسمها، والمقصود به نبيّ الله شعيب (عليه السلام) أنه ليس حفيظاً عليهم.
- (عليكم): "على" تفيد الاستعلاء، أي ليس لي عليكم قهراً ولا نفوذاً ولا سلطة. وتقديم "عليكم" على "بحفيظ" للاهتمام.
- (بحفيظ): الباء دخلت على خبر "ليس" للتوكيد. و"الحفيظ" صيغة "فعل"، أي شديد الحفظ، دقيق الرقابة، أو من أدنى درجات الحفظ إلى أعلاها؛ أي لستُ مهيمناً عليكم ألزمكم بما أعتقده حقاً وشرعاً⁴.

¹ الدعوة إلى الله في سورة هود، ص 372.

² تفسير السعدي، ص 419.

³ تفسير سورة هود، ص 316.

⁴ تفسير سورة هود، ص 315.

فالأية تدلّ على حُسن محاورة شعيب (عليه السلام)، الذي وُصف بخطيب الأنبياء. وكلامه يدل على الترغيب وحُسن الجدل؛ فهو يقول: افعلوا ذلك بمحض إرادتكم، فأنتم غير مُجبرين، وإنما هو لصالحكم¹، دون إكراه أو إلزام².

يقول أبو السعود -رحمه الله-: "لستُ أنا الذي أحفظكم من القبائح، أو أحفظ عليكم أعمالكم فأجازيكم، وإنما أنا ناصحٌ مُبلِّغ، وقد أعذرتُ إذا أذرتُ"³.

و"الحفيظ" أيضاً من معانيها: المجير، المحصي، المحاسب، المراقب. وانظر إلى تقديم ﴿عَلَيْكُمْ﴾، وما يشعر به من نفي الاستعلاء؛ فشعيب (عليه السلام) يُقنعهم أنه لا يستعلي عليهم، ولا يتكبر بنصحه، وإنما هو أمينٌ على البلاغ، ودالٌّ على الخير⁴.

فهو يُنفي عن نفسه أن يكون رقيباً عليهم أو حسيباً لهم، ويسند ذلك إلى الله تعالى؛ فهو سبحانه ربّه وربّهم. وقد سبق ذكر اسم الجلالة في صدر الآية الكريمة: ﴿بَقِيَّةُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾⁵.

لقد بيّن شعيب (عليه السلام) لقومه الواقع الفاسد الذي هم فيه، ثم بيّن لهم الواقع السليم الذي يجب أن ينتقل إليه المجتمع، لكنه أكّد لهم أنه لا يملك إجبارهم، وأن عليهم تحمّل مسؤولية هذا الاختيار.

¹ نماذج من بلاغة القرآن الكريم، ص208.

² نماذج من بلاغة القرآن الكريم، ص210.

³ إرشاد العقل السليم، (3/ 232).

⁴ نماذج من بلاغة القرآن الكريم، ص212.

⁵ نماذج من بلاغة القرآن الكريم، المصدر السابق، ص212.

هذا المعنى تكرر في مواضع عدّة من القرآن الكريم، منها:

- قوله تعالى: ﴿لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ﴾ [الغاشية: 22].
- وقوله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة: 256].
- وقوله تعالى: ﴿أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: 99]¹.

رابعاً: قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ [هود: 87]:

بهذه الآية تبدأ الجولة الثانية من الحوار بين شعيب (عليه السلام) وقومه، بعد أن انتهت الجولة الأولى بدعوته وتوجيهاته. والردّ الوارد هنا هو ردّ متوقّع من أهل الغفلة والعناد، وهو ردّ يحمل بصمات المكذبين في الأمم السابقة.

استخدموا السخرية في قولهم: ﴿أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ﴾، وكأنّ الصلاة جنون أو سذاجة تُفضي إلى ترك موروث الآباء. وأصرّوا على التقاليد البالية بقوله: ﴿أَنْ نَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾، وهي من أشهر حجج الأمم السابقة التي تجعل التقليد أسمى من التوحيد، ثم عبّروا عن العقلية الرأسمالية المتمردة على كل قيد، فقالوا: ﴿أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ﴾، أي الحرية المطلقة للمال، دون اعتبارٍ لأخلاق أو ضوابط، حتى يتمكنوا من السيطرة على اقتصاد الناس والمجتمعات².

¹ إعجاز القرآن الكريم في مجالات العلوم الاجتماعية، د. رفعت السيد، ص 90.

² تفسير سورة هود، ص 317.

1- ﴿قالوا يا شعيب أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا﴾:

﴿قالوا يا شعيب﴾: أي قال قوم شعيب في ردهم على دعوته، وهي دعوة مملوءة بالحق والحرص والحكمة، ولكن ردهم جاء مشحوناً بالسخرية والحقم والعصبية.

- ﴿يا شعيب﴾: النداء هنا ليس نداء محبة أو تقرب، بل نداء استخفاف. رغم أن شعيباً كان مبعثاً قبل نبوته كما هو حال كل الأنبياء، فلا يختار الله رسوله إلا من كان كاملاً، فاضلاً، عاقلاً¹.
- ﴿أصلاتك﴾: هم تركوا جوهر الدعوة وهو التوحيد، وركزوا على ما يخالف عاداتهم في ترك ما عليه الآباء أو في حرية رأس المال². وعبروا عن الدين والمنهج كله بكلمة "صلاتك"، إما استخفافاً بها، أو لإدراكهم أهميتها، والأول أرجح حسب السياق التاريخي والنصي³. ونسبوا الصلاة إليه لإظهار الاستخفاف بشخصه الكريم، وحاشاه⁴.
- ﴿تأمرك﴾: أي تدفعك وتطلب منك أن تدعونا لترك ما يعبد آباؤنا. وتعظيم الآباء واتباعهم داء قديم في الأمم⁵. لكنهم لا يفهمون أو لا يريدون أن يفهموا أن الصلاة من مقتضيات العقيدة، وأن التوحيد لا ينفك عن تنفيذ شرائع الله في المعاملات والمال وسائر شؤون الحياة⁶.

¹ تفسير سورة هود، المصدر السابق، ص 317.

² تفسير سورة هود، المصدر السابق، ص 317.

³ تفسير سورة هود، المصدر السابق، ص 317.

⁴ تفسير سورة هود، ص 318.

⁵ تفسير سورة هود، المصدر السابق، ص 318.

⁶ في ظلال القرآن، (4/1920).

وفي زماننا من يسير على نهج قوم شعيب، ويستنكر الربط بين العقيدة والأخلاق، وبخاصة أخلاق المعاملات. فيتساءلون: ما للإسلام وسلوكنا الشخصي؟ أو العري في الشواطئ؟ أو زي المرأة في الطريق؟ أو كأس الخمر؟ أو غير ذلك من مظاهر الانفلات باسم "الحرية". ولا يختلف هذا عن قول أهل مدين ﴿أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا﴾.

2- ﴿أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ﴾:

- وهم هنا ينكرون بشدة أن يتدخل الدين في الاقتصاد، وأن تتصل المعاملات بالعقيدة أو حتى بالأخلاق! فيسألون: ما للدين والمعاملات الربوية؟ ما للدين والغش والسرقة طالما لم تُجرّم قانوناً؟ بل يتهمون على من يدعو إلى الأخلاق في الاقتصاد، ويعتبرونها تخلفاً¹.
- لا ينبغي لنا أن نترفع على قوم مدين ونحن في جاهلية جديدة تدّعي العلم والمعرفة، وتتهم من يربط الدين بالحياة بالتخلف والجمود. فالدين لا يستقيم إذا بقي التوحيد في القلب، وتركنا شرائع الله لنخضع لقوانين البشر².
- دين الله شامل: يشمل الصلاة، والصوم، والحج، والزكاة، ويشمل كذلك الحكم، والسياسة، والاقتصاد، وشؤون المجتمع كلّ³.

¹ في ظلال القرآن، المصدر السابق، (4/ 1920).

² منهج الأنبياء في الدعوة إلى الله، محمد سرور بن نايف زين العابدين، دار الأرقم، الكويت، ط3، 1409هـ، 1988م، ص381.

³ تفسير أبي السعود "إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم"، أبو السعود محمد العمادي الحنفي، تحقيق: عبد القادر أحمد عطا، دار المصحف ومكتبة ومطبعة عبد الرحمن محمد، القاهرة، 2008، (5/ 125).

- قوم شعيب اعترضوا بأسلوب تهكمي: ﴿أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا...﴾ وبلغوا بذلك أقصى درجات الانحراف والضلال، فلم يكتفوا برفض الوحي بل تهكموا بالعقل ذاته، فجعلوا من الصلاة أمرًا بالجنون والوسوسة، وهذا منتهى الضلال¹.
- لقد رأوا أن صلاته من أفعال المجانين، وأنها توحى له أن ينهى عن التصرف في الأموال كيف شاءوا! وهذا هو طغيان المال الذي يدفع أصحابه للربا، والاحتكار، والغش، والتلاعب، تحت شعارات كاذبة مثل "الحرية الاقتصادية"².
- يقول الشيخ محمد متولي الشعراوي -رحمه الله- إن أهل مدين هزؤوا بشعيب كما هزئ كفار قريش برسول الله ﷺ. وقالوا له ساخرين: ﴿أصلاتك تأمرك﴾، لأنهم جهلوا أن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر. قال تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [العنكبوت: 45]³.
- فغاية الصلاة أن تحقق التقوى والعفاف، وتزكي النفس وتنهى عن الرذائل. وأي صلاة لا تنهى صاحبها عن المنكرات فهي صلاة ناقصة⁴.
- ويضيف الشعراوي -رحمه الله- بأن الصلاة هي الركن الوحيد الذي لا يسقط أبدًا. قد يُعفى المرء من الزكاة أو الصيام أو الحج، أما الصلاة فلا تسقط بحال. حتى المريض يصلي برمش عينه، وإن عجز فبقلبه، وحتى في الحرب، يصلي المسلم صلاة الخوف⁵.

¹ التفسير الموضوعي، (4/ 88).

² تفسير الشعراوي، (11/ 6615).

³ منظومة القيم في الإسلام، مأمون أحمد الوردى، دار طيبة الدمشقية، 2018م، ص201.

⁴ مع الأنبياء في الدعوة إلى الله، محمد عبد القادر أبو فارس، دار المأمون للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 2013م، ص356.

⁵ تفسير الشعراوي، (11/ 6612).

- كما أن الصلاة هي الفريضة الوحيدة التي فُرضت على النبي ﷺ مباشرة دون واسطة، في السماء، عند سدرة المنتهى، بخلاف بقية الشرائع التي جاء بها جبريل -عليه السلام-. وهذا لفرط أهميتها¹.
- الصلاة تكرارٌ يوميٌّ لخضوع العبد لله، وركن جامع لأركان الإسلام: فالشهادة تتكرر فيها، والقبلة تُستقبل، والوقت يُضحى به، والجوارح تمتنع عن الشهوات. فهي لبّ الدين وعموده.
- ولهذا سخر قوم شعيب منها، لأنها كانت الرابط بين العقيدة ووجوب أداء الحقوق. وقد واجهوا دعوته للعدل في الميزان والكيل بالسخرية، بدءًا من قولهم ﴿أصلاتك تأمرك...﴾، ثم تابعوا التهكم قائلين...

3- ﴿إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾:

هذه الجملة في ظاهرها مدح، ولكن في باطنها تهكم واضح. إذ كيف يُعقل أن يُخاطب نبيّ كريم عُرِفَ بالحلم والرشد بهذه الطريقة بعد أن سُخر منه؟! والمعنى هنا: إن كنت تظن نفسك حليمًا رشيدًا، فهل تأمرنا بترك ما كان عليه آباؤنا؟! أو بمنعنا من التصرف بأموالنا؟!² ونظير هذا الاستهزاء ما حكاه الله تعالى عن فرعون حين قال عن موسى (عليه السلام): ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ [الزخرف: 52]، فهو أيضًا تهكم لا مدح. وقد فُسِّرَت عبارة ﴿إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ [هود: 87] في بعض التفاسير أنها كانت مدحًا حقيقيًا من بعض العقلاء في القوم، ولكن السياق يدل على غير ذلك، لأن هذا الثناء لا يتناسب مع مضمون الاعتراض والتهكم الذي بدأوا به³.

¹ أحسن القصص، د. زاهية الدجاني، دار التقريب بين المذاهب الإسلامية، 2008م، ص90.

² تفسير سورة هود، ص318.

³ الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان، ابن قيم الجوزية، دار الكتب العلمية، 2007، ص166.

وقال بعض المفسرين: هذا من باب "التعريض الذكي"، كأنهم يقولون: إن كنت حليماً رشيداً فعلاً، فكيف تأمرنا بهذه الأوامر؟! فيما أن تكون أوامرك خطأ، أو أن وصفك بالحلم والرشد غير صحيح (484). كما قالوا ﴿أَصْلَاتُكَ تَأْمُرُكَ﴾ [هود: 87]، فالصلاة - وهي مظهر الرشد - صارت متّهمة في زعمهم بأنها تُحرّض على ما هو خطأ! وهذا من التلبيس العجيب الذي يردّ به كثير من الناس الدعوة الربانية، حين يعرضونها في صورة التناقض مع العقول والمصالح، وهم في حقيقتهم يُعارضون الوحي بعقولهم القاصرة وشهواتهم الجامحة.

خاتمة هذه الجولة من الحوار:

- الآيات الكريمة تُبرز موقفاً متكرراً في تاريخ الرسالات: مواجهة الدعوة بالإعراض، والسخرية، والربط المغلوط بين الدين والمصالح، والتهمك من الأنبياء بوصفهم مجانين أو مغرّبين أو متآمرين على المجتمع.
- وهي جولة من الجدل والمراوغة لا تُواجه الحجة بالحجة، بل تُقابل النصيحة بالاستخفاف، وتُقدّم العادات الجاهلية والشهوات الرأسمالية على شرع الله وميزان العدالة.
- وتظهر في هذا المشهد أخلاق شعيب (عليه السلام) الذي واجه كل ذلك بالحكمة والموعظة الحسنة، وبأسلوب خطاب متزن، يربط بين التوحيد والعدل، وبين الإيمان والسلوك، وبين الدين والحياة

وقال أبو سفيان بن عبيدة: العرب تصف الشيء بضدّه للتطير والتفاؤل، كما قيل للديغ: سليم، وللغلاة: مفازة. وقيل: هو تعريض، أرادوا به السبّ، وأحسن من هذا كله ما يدلُّ عليه ما قبله من السياق، من قولهم: ﴿إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾؛ أي إنك أنت الحليم الرشيد حقاً، فكيف تأمرنا أن نترك ما يعبد آباؤنا؟ ويدل عليه قوله: ﴿أَصْلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾، إذ أنكروا عليه - لما رأوا من كثرة صلواته وعبادته - أن يكون حليماً رشيداً وهو يأمرهم بترك ما يعبد آباؤهم، وما بعده أيضاً يدل عليه، من قوله: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ بَيْتَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقْنِي مِنْهُ رِزْقًا

حَسَنًا ﴿ هود: 88 ﴾، أي: أفلا أنهاكم عن الضلال؟ وهذا كله يدل على أنهم قالوه على وجه الحقيقة، وأنه اعتقادهم فيه.

وصوب هذا الوجه الإمام الرازي - رحمه الله - فقال: "كان مشهوراً عندهم بأنه حلیم رشید، فلما أمرهم بمفارقة طريقتهم قالوا له: إنك لأنك الحلیم الرشید المعروف بالطريقة في هذا الباب، فكيف تنهانا عن دين ألفيناه عن آبائنا وأسلافنا؟" والمقصود: استبعاد مثل هذا العمل ممن كان موصوفاً بالحلم والرشد. وهذا الوجه أصوب الوجوه.

وقال البغوي - رحمه الله -: "وقيل: هو على الصحة؛ أي إنك يا شعيب فينا حلیم رشید، لا يُحتمل بك شق عصا قومك ومخالفة دينهم، كما قال قوم صالح (عليه السلام): ﴿قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا﴾ (هود: 62)"¹.

ورد شعيب (عليه السلام) على مقالته بعد الاستماع إليهم، متجاهلاً سخرتهم واستهزاءهم، ووجه كلامه إلى تأكيد صدق رسالته وصحة نبوته، وإلى تنزيه دعوته عن تحقيق أي كسب مادي؛ فقد رزقه الله رزقاً طيباً حلالاً يكفيه ويغنيه، وهو لا يريد بدعوته إلا الإصلاح العام في المجتمع².

¹ تفسير البغوي، (4/ 195).

² التفسير الموضوعي، (4/ 88).

خامساً: قوله تعالى: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۖ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنهَأَكُم عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتِطَعْتُ ۗ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ ۗ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: 88].

أعلن شعيب (عليه السلام) وضوح دعوته، وكونه على بينة من ربه، فدعاهم (عليه السلام) إلى النظر في مؤيدات دعوته، والبراهين الدالة على صدقه، ليقف القوم على خطئهم وفساد حججهم، عساهم أن يعدلوا عما كانوا عليه من التعامي عن البينات والهدى، إلى التسليم بالرسالة والإذعان لها بالقبول. وساق حجته (عليه السلام) على سبيل الفرض والتقدير، مجارةً لهم في أسلوبهم، وليقضي على ما في قلوبهم من شكٍ وريبة، كما قصه علينا في قوله:

1- ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾:

— قوله: ﴿يَا قَوْمِ﴾: نداء لجذب اهتمامهم وإثارة انتباههم، ونسبهم إليه إشعاراً بالقرب والقربة¹.
 — قوله: ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾: ردٌّ على استفهامهم باستفهام؛ فهم قالوا: "أصلاتك تأمرك؟"، وهو يقول: "أرأيتم؟" أي: أفكرتم في احتمال أن أكون على بينة من ربي تشهد لي بأني صادق فيما أبلغكم عنه؟ أفصدقوني؟ فكروا وأخبروني. والهمزة للاستفهام ومعناها التعجب، والرؤية بصرية أو بصيرية، والثانية أرجح².

— قوله: ﴿إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾: أي: على أمرٍ جلِّي واضحٍ من عند ربي³.

¹ تفسير سورة هود، ص 321.

² تفسير سورة هود، ص 321، نوح، الصلابي، ص 164.

³ تفسير سورة هود، المصدر السابق، ص 321.

والبيّنة: الدلالة الواضحة، عقلية أو حسّية¹. فأخبرهم (عليه السلام) أن الله عز وجل قد أقام الحجج البيّنات، والبراهين الواضحات فيما يدعوهم إليه من عبادة الله، والبراءة من عبادة الأوثان والأصنام، وفيما نهّاهم عنه من إفساد المال².

وفسر الحسنُ البيّنةَ بالآية الدالّة على صدقه (عليه السلام)³. ولقوّة هذه البيّنة التي أيده الله تعالى بها، ربّب عليها أمره لقومه بإيفاء الكيل والميزان، كما جاء في سورة الأعراف: ﴿فَدَجَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ [الأعراف: 85].

يقول الشيخ محمد رشيد رضا - رحمه الله -: "ولو لم تكن البيّنة التي أيده الله تعالى بها شعبيًا ملزمة للحجّة، قاطعة لألسنة العذر ومكابرة الحق، لما ربّب عليها قوله: ﴿فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾، فإن عطف هذا الأمر بالفاء لا يصحّ إلا إذا كان مبنياً على ما هو سبب له، وهو البيّنة على صدق وجوب طاعته"⁴.

والبيّنة من ربه تدل على نبوّته ورسالته، وهو على يقينٍ أنه رسولٌ من عند الله، وأنه على حقٍّ قاطع، وهم على باطلٍ واضح⁵.

¹ المفردات في غريب القرآن، ص 88.

² الدعوة إلى الله في سورة هود، ص 375.

³ البحر المحيط، (3/ 336).

⁴ تفسير المنار، (7/ 525).

⁵ القصص القرآني، (2/ 21).

فشعيب (عليه السلام) يُقدّم لقومه حجةً مقطوعاً بما أنها من عند الله، بدلالاتها الناصعة القاطعة، وعجز البشر عن مثلها، يشهد الله له من خلالها بأنه رسولٌ صادقٌ حقاً، يُبلِّغ عن ربه. وفي هذا دفعٌ لاتهمه بالتوهم أو الكذب، فالمعجزة حجةٌ قاطعة، وآيةٌ دامغة.

2- ﴿وَرَزَقْنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾:

هذا ردُّ على جزئية ﴿أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ﴾ التي وردت في ردِّهم، فهو يقول: إنه يملك مالا، وقد رزقه الله مثلهم رزقا طيبا، لكن منضبطا فيه بشرع الله وأحكامه¹.

وقيل: أراد بالرزق النبوة. وقيل: أراد الرزق الحلال. والآية تحمل المعنيين، إلا أنّ المناسب للمقام حمل الرزق على ما آتاه الله من الحلال الخالي من التطفيف والبخس.

وأضاف الرزق إلى الله تعالى، الذي أبلغهم وحيه، فأعرضوا عنه إلى ما تمليه أهواؤهم، لبيان فداحة الجرم وخطر الذنب.

وأخبر عن ماهية الرزق، وأوصفه بما يرغّب فيه ويشدّ الأنظار إليه، فنوّن "الرزق" لتعظيمه، وألحق به الوصف المناسب فقال: ﴿حَسَنًا﴾ للإعلام بآته مألّ حلال طيب، خالٍ من التطفيف، لم يُظلم فيه أحد².

لقد تجردت نفس شعيب (عليه السلام) عن الأهواء والمطامع، فلم يكن لاهتئا وراء جمع المال من كلّ طريق وسبيل، ولم يكن فقيرا معدما يخترع الآراء النظرية فيما ليس له به خبرة، ولا مطمع له فيما ينهاهم عنه من البخس في الكيل والوزن، ليتأثر به دونهم، فقد أغناه الله عنه وعن كسبهم³.

¹ تفسير سورة هود، ص 321.

² روح المعاني، الألوسي، (12/ 119).

³ الدعوة إلى الله في سورة هود، ص 377.

ولقد رزقه ما يكفيه ويغنيه، ويزيد هذا وضوحًا وإعلانه (عليه السلام) الالتزام الكامل بما يدعوهم إليه، وعدم مخالفته لهم إلى غيره¹، فقال:

3- ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنهَآكُمْ عَنْهُ﴾:

ومعنى الآية الكريمة: أنا أوّل الممثلين لما أمركم به، وأوّل المنتهين عمّا نهاكم عنه، فدلّيل صدقي أنّ فعلي لا يخالف قولي. والمرء لا يحدع نفسه، فإذا كان ما أمركم به وأنهاكم عنه سفهًا وغيًّا وضلالًا، فكيف يليق بي أن أطبّقه على نفسي قبل غيري؟

و"المخالفة" هنا بمعنى المحاكمة والمنازعة. فالأنبياء (عليهم السلام) أوّل من التزم بالشرائع السماوية، وطبّقوها على أنفسهم قبل غيرهم، ولذلك عيب على الواعظ ألا يلتزم بما وعظ به.

قال تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: 44]. وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: 2-3]².

وفي "الصحيحين" من حديث أسامة بن زيد (رضي الله عنه)، أن النبي ﷺ قال: "يُجَاءُ بِالرَّجُلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُلْقَى فِي النَّارِ، فَتَنْدَلِقُ أَقْتَابُهُ فِي النَّارِ، فَيَدُورُ بِهَا كَمَا يَدُورُ الْحَمَارُ بِرَحَاهُ، فَيَجْتَمِعُ عَلَيْهِ أَهْلُ النَّارِ فَيَقُولُونَ: يَا فُلَانُ، أَلَسْتَ كُنْتَ تَأْمُرُنَا بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَانَا عَنِ الْمُنْكَرِ؟ فَيَقُولُ: كُنْتُ أَمْرُكُم بِالْمَعْرُوفِ وَلَا آتِيهِ، وَأَنْهَآكُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَآتَيْهِ"³. وبالتالي معنى "فتندلق أقتابه" أي: تتدلّى أمعاؤه⁴.

¹ الدعوة إلى الله في سورة هود، المصدر السابق، ص 377.

² نماذج من بلاغة القرآن، ص 18.

³ البخاري، رقم 3267، مسلم، رقم 2989.

⁴ التدبر والبيان في تفسير القرآن بصحيح السنن، محمد بن عبد الرحمن المغراوي، مكتبة مشكاة الإسلامية، لبنان، 1435هـ، 2014م، (15/ 326).

وعن أنس (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله ﷺ: "أريت ليلة أُسري بي رجالاً تُقرض شفاههم بمقاريض من نار، كلما قُرِضت رجعت، فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء خُطباء من أُمَّتِكَ، كانوا يأمرُونَ الناسَ بالبرِّ وَيَنْسَوْنَ أَنفُسَهُمْ، وهم يتلونَ الكتابَ، أفلا يعقلون؟"¹. وقال الشاعر: لا تَنَّهُ عن حُلُقٍ وتَأْتِي مِثْلُهُ عَارٌّ عَلَيْكَ إِذَا فَعَلْتَ عَظِيمٌ فابدأ بنفسك فأنهها عن غيها فإذا انتهت عنه فأنت حكيم²

إن شُعيبًا (عليه السلام) بين لقومه أنه إذا نهاهم عن شيء، انتهى هو عنه، وأن فعله لا يخالف قوله. وفعل المسلم أن يكون منتهيًا عما ينهى عنه غيره، مؤتمراً بما يأمر به غيره³. وهذا دليل الصدق، وهو حسن القدوة للناس.

وهذا عمر بن الخطاب (رضي الله عنه)، لما كانت سنة المجاعة في زمنه، منع أهله، وقال: "لا والله، لا يذوق أهل عمر الطعام حتى يذوقه الناس، ولا يأكل أهل عمر اللحم حتى يأكله الناس"، حتى قيل: إنه صار في وجهه لون سواد من كثرة ما يأكل الزيت مع الخبز⁴.

وقد ضرب شعيب (عليه السلام) نموذجًا فريدًا لقومه، للاقتداء والتأسي به، للسير على منهج الله وشرعته وصراطه المستقيم. ولم يفعل إلا بما أمرهم به، ولا انتهى إلا عما نهاهم عنه. فاختار لهم ما اختاره لنفسه، وحرص على مرضاة الله عز وجل في سائر شؤون حياته، وبين لهم هدفه من دعوته.

¹ البيهقي في الشعب رقم 1773، وابن أبي شيبة، رقم 36576، صححه الألباني، سلسلة الأحاديث الصحيحة، رقم 291.

² نماذج من القرآن الكريم، ص 219.

³ التدبر والبيان في تفسير القرآن بصحيح السنن، (15/ 326).

⁴ فبهدهم اقتده، قراءة تأصيلية في سير وقصص الأنبياء عليهم السلام، عثمان الخميس، دار إيلاف الدولية، الكويت، الطبعة الأولى، 1431هـ - 2010م، ص 275.

4- ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ﴾:

إن خطاب شعيب (عليه السلام) لقومه قد جمع شعب الإيمان كلها؛ فالمؤمن هو الذي يريد الإصلاح ويدعو إليه، ويعتمد على حول الله وقوته في تحقيق ما يريد، وليس هناك أعظم من التوكل على الله تعالى والثقة بفضله والإنابة إليه¹.

لقد كانت إرادة شعيب (عليه السلام) في الإصلاح عظيمة، وقد ظهر ذلك في صدق إيمانه، وفعاليته، وجديته في التعامل مع أمور الدعوة، وصبره وجهاده، وسمو هدفه، ورغبته في هداية الناس، ونشر الخير بينهم، والسعي في تنوير عقولهم، وتطهير نفوسهم، وإصلاح قلوبهم. فمن أراد شيئاً أخذ بأسبابه².

كان شعيب (عليه السلام) يملك رؤية، وإرادة، وأدوات تنفيذ تستمدتها من وحي الله له. ففي هذه الآية الكريمة: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ﴾، بين (عليه السلام) هدفه من دعوته، في أمره ونهيه، وهو إصلاحهم وإصلاح أمرهم، واضعاً لذلك حدّاً وهو ما بلغته استطاعته، وتمكنت منه طاقته. فهو سيبدل غاية جهده وطاقته لحملهم على الأرشد والأقوم في دينهم ودنياهم، أو ما يصلح أمر المعاد والمعاش. وسيبدل قصارى جهده بدعوتهم إلى الخير، وتحذيرهم من الشر، ترغيباً وترهيباً، إعداراً وإنذاراً، لئلا ينالهم من الله عقوبة منكّلة بمخالفتهم أمره، ومعصيتهم رسوله³.

وقد علّق الدكتور عبد الكريم زيدان -رحمه الله- على الآية، فقال: "فعلى الداعي المسلم أن تكون له إرادة جازمة للإصلاح في ضوء معاني الإسلام ومناهجه في الإصلاح، وأن تكون إرادته للإصلاح

¹ قصص القرآن الكريم، فضل حسن عباس، دار النفائس، الطبعة الثالثة، 2010م، ص 153.

² السنن الاجتماعية في القرآن الكريم، محمد أمحزون، دار طيبة، 2008م، (1/ 297).

³ الدعوة إلى الله في سورة هود، ص 379.

كاملة، وثابتة، ودائمة، وأن يسعى لتحقيق هذه الإرادة في الواقع، بتغيير المنكرات والمفاسد والانحرافات التي يُبصرها في المجتمع. وأن يكون سعيه هذا بقدر استطاعته التي يجب أن يعرف مقدارها بميزان الشارع، لتكون استطاعته حقيقية لا متوهمة، وعلى أساسها يكون مقدار ما يُكلّف به شرعاً من سعي وفعل لتحقيق الإصلاح الإسلامي المنشود. وعلى الداعي أن يعرف جيداً أن الاستطاعة على الإصلاح ليست شيئاً واحداً، وإنما هي أنواع متعددة، تختلف باختلاف نوع الإصلاح المطلوب، ونوع الجزئية المطلوب منه إصلاحها في ظرف معين، ومكان معين، وتختلف باختلاف الأشخاص والأحوال. إن مسألة الإصلاح بقدر الاستطاعة هذه المسألة يجب أن يفهمها الداعي في ضوء الضوابط التالية:

- يزن مقدار استطاعته بالميزان الشرعي.

- يعرف لأي نوع من الإصلاح تصلح استطاعته القيام به.

- ما هي الأولويات في سلم ودرجات الإصلاح ومراحلها التي يجب أن يُقدّم لها قدرته واستطاعته، ويستنفذها فيها قبل غيرها.

وبعد هذا كله، يتقدم بكل جدٍ، ويسعي منظم، معتمداً على الله في بلوغ هدفه في الإصلاح، وشعاره في ذلك: ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: 88]¹.

¹ المستفاد من قصص القرآن، ص172.

أ. شمولية مفهوم الإصلاح عند شعيب (عليه السلام):

الإصلاح الشامل هو جوهر الرسالات السماوية. ولذلك حاز نبي الله شعيب (عليه السلام) كل دوره في الإصلاح، فكانت معالم الإصلاح في منهجه عليه السلام تتمثل في أمور مهمة، منها:

- الدعوة إلى الإصلاح العقدي:

بدأ شعيب (عليه السلام) بدعوتهم إلى عبادة الله وحده، وإفراده سبحانه بالألوهية، وإلى الدينونة له وحده، ومن ثم إفراده بالسلطان في أمر الحياة كلها. فدعوته تستند إلى قاعدة إفراد الله بالحاكمية، ومنها تنبثق مناهج الحياة وقواعد السلوك والخلق والتعامل، ولا تستقيم إلا إذا استقامت هذه القاعدة. وكان يُدكِّرهم بوجوب إقامة حياتهم على منهج الله، وترك الإفساد في الأرض بالهوى بعد أن أصلحها الله لعباده¹.

- الدعوة إلى الإصلاح التشريعي:

الإصلاح التشريعي يقتضي أن تتجه الأحكام إلى علاج واقع الناس المختل، ومدِّهم بالنظم والتشريعات التي تلي حاجاتهم، وترسم لهم طريق الخير، بحيث تقوم هذه الأحكام على جلب المصالح الحقيقية المشروعة، ودرء المفاسد، والموازنة بينها عند التعارض².

ومن الإصلاح التشريعي دعوة الناس إلى استقاء المنهج من الله تعالى، إذ كل ما شرعه الله مصلح قطعاً، واتباع رسله فيه الصلاح والفلاح في الدنيا والآخرة. ولذلك قال لهم شعيب: ﴿إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ﴾، أي: ما استقمتم على أمر الله، ثم حذرهم قائلاً: ﴿وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾.

¹ التفسير الموضوعي في دعوة شعيب عليه السلام للإصلاح من خلال القرآن، د. راشد سعد العليمي، ص 645.

² التفسير الموضوعي في دعوة شعيب عليه السلام للإصلاح من خلال القرآن، المصدر السابق، ص 645.

ويظهر الإصلاح التشريعي كذلك في نهيه عن التطفيف في الكيل والميزان، والنقص والزيادة التي تخلُّ بالأمانة والعدالة، وتقع في دائرة الظلم وأكل أموال الناس بالباطل¹. فالقضية هنا ليست اقتصادية فحسب، بل قضية شريعة ومعاملات منبثقة عن قاعدة العقيدة والتوحيد².

- إصلاح الذات وإظهار القدوة:

القدوة الحسنة من أنجح وسائل التأثير في الدعوة. ولذلك جاء التذكير بقوله تعالى: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنهَأَكُمُ عَنْهُ﴾، فالداعية يجب أن ينزه نفسه عن مواطن الشبهة، ويطابق قوله عمله، ويلتزم بذلك بكل صرامة، ويأخذ بالعزائم لا بالرخص، لأنه ليس كأحد من الناس³.

- الدعوة بالقول الحسن والحوار المعتقل:

كان شعيب (عليه السلام) يرد على شبّهات قومه بلين ورفق، فلم يلتفت إلى استهزائهم، بل مضى في بيان ما هو عليه من الهدى والاستقامة، ودحض حججهم وإبطال دعاويهم، مستخدمًا القول الحسن والحوار الهادئ، وكان مقصده هداية الناس لا الانتصار للنفس⁴.

- ربط الأحكام بمقاصد التشريع:

الإصلاح هو مقصد شعيب (عليه السلام) الأكبر، وهو مراد الله الذي شرع الشرائع لأجله. وقد قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾ [الأعراف: 170].

¹ التفسير الموضوعي في دعوة شعيب عليه السلام للإصلاح من خلال القرآن، المصدر السابق، ص 646.

² التفسير الموضوعي في دعوة شعيب عليه السلام للإصلاح من خلال القرآن، المصدر السابق، ص 646.

³ التفسير الموضوعي في دعوة شعيب عليه السلام للإصلاح من خلال القرآن، المصدر السابق، ص 650.

⁴ التفسير الموضوعي في دعوة شعيب عليه السلام للإصلاح من خلال القرآن، المصدر السابق، ص 652.

ومقاصد الشريعة تتمثل في حفظ الضروريات الخمس: الدين، والنفس، والنسل، والعقل، والمال، وتحقيق المصالح، ودرء المفاسد، وإقامة العدل من جميع جوانبه¹. ولذلك، لا بد أن تكون قيمة العدل حاضرة في كل مسارات الإصلاح، مقرونة بالحكمة، والرحمة، والمصلحة المشروعة.

ب. مقومات الإصلاح: حيث تشير قصة شعيب (عليه السلام) إلى أبرز مقومات الإصلاح، ومن أهمها:

– الإيمان:

كل الأنبياء والمرسلين دعوا إلى الإيمان بالله وأركانها، ومنهم شعيب (عليه السلام). وقد اقترن الإصلاح بالإيمان في القرآن الكريم، وبين أن هدفهم في الإصلاح مرتبط بتوفيق الله والتوكل عليه والإنابة إليه، كما في قوله: ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: 88]. وقال تعالى: ﴿وَمَا نُزِّلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الأنعام: 48].

فما أحوجنا إلى إيمانٍ بمفهومه الصحيح الشامل الذي دعا إليه الأنبياء والمرسلون، وورد في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وفهمه الصحابة والتابعون وتابعوهم بإحسان، وما أحوجنا إلى إيمان خالص راسخ يُعيد لنا عزنا ومجدنا².

¹ التفسير الموضوعي في دعوة شعيب عليه السلام للإصلاح من خلال القرآن، المصدر السابق، ص 653..

² الإصلاح والإفساد في ضوء القرآن، ص 429.

- العلم:

اعتمد علم شعيب (عليه السلام) على الوحي، كونه رسولاً من رب العالمين، وجاء بأحكام الله وتشريعاته في شؤون الحياة. وقامت دعوته الإصلاحية على علمٍ مستمدٍّ من وحي الله، وعلى استخدام العقل والمنطق في تبليغ الرسالة والوصول إلى قلوب الناس بالمواعظ والحكم. فدعا إلى العقيدة الصحيحة بعلم، وأصلح المعاملات الاقتصادية والاجتماعية بعلم، وأجاب عن الأسئلة التي يحتاجها الناس في عصره، فأمن به بعضهم.

إن العلم هو أهم مقومات الإصلاح في قصة شعيب (عليه السلام)، وكذلك في كل دعوة إصلاحية ربانية، ولهذا أمر الله به، بل أوجبه قبل القول والعمل، فقال تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [محمد: 19]: وقد بَوَّب البخاري لهذه الآية بقوله: "باب: العلم قبل القول والعمل"¹.

قال الله تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ ← هذه مرتبة العلم، ثم قال: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾، وهذه مرتبة العمل. فالعلم شرط في صحة القول والعمل، ولا يُعتبران إلا به، فهو مُقَدَّم عليهما، لأنه مصحح للنية، المصححة للعمل².

وقد كان شعيب (عليه السلام):

• على علمٍ بالله وأسمائه وصفاته، كما في قوله:

○ ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ [الأعراف: 85].

○ ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ [الأعراف: 87].

¹ البخاري مع الفتح، (1/ 159).

² فتح الباري، (1/ 160).

- ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الأعراف: 89].
- ﴿عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ [الأعراف: 89].

- ﴿إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ [هود: 90].
- وعلى علمٍ بالوحي وبما أخبره الله به من وقائع الأقسام السابقة كنوح وهود وصالح ولوط، ومن حقائق اليوم الآخر.
- وعلى علمٍ بالعلوم المتعلقة بالقلوب والجوارح، من الإيمان بالله، والاستغفار، والدعوة إلى التوبة، وإقامة الصلاة، والنهي عن البخس في الميزان، وبيان الأحكام العادلة. قال عبد الله بن مسعود (رضي الله عنه): "تعلّموا تعلّموا، فإذا علمتم فاعملوا"¹. وقال أبو الدرداء (رضي الله عنه): "لا تكون تقيًّا حتى تكون عالمًا، ولا تكون بالعلم جميلًا حتى تكون به عاملاً"². فعلى من أراد الإصلاح في شعوبهم أن يعتنوا بالعلم، فهو من أبرز مقومات الإصلاح.

وللعلم النافع أسباب ووسائل، منها:

- الدعاء: قال تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: 114].
 - الاجتهاد: قال الشافعي:
- | | |
|-----------------------------------------|----------------------------|
| سأنبئك عن تفصيلها بيان | أخي لن تنال العلم إلا بسنة |
| وصحبة أستاذٍ وطولُ زمانٍ ³ . | ذكاء وحرصٌ واجتهادٌ وبلغة |

¹ جامع بيان العلم وفضله، ابن عبد البر، (1/ 195).

² جامع بيان العلم وفضله، المصدر السابق، (2/ 7).

³ الإصلاح والإفساد في ضوء القرآن، ص 442.

• تقوى الله: ﴿إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال: 29]¹. قال الإمام مالك للشافعي (رحمهما الله): "إني أرى الله قد جعل في قلبك نورًا، فلا تُطفئه بظلمة المعصية"². وقال الشافعي: شكوتُ إلى وكيعٍ سوء حفظي فأرشدني إلى ترك المعاصي وأخبرني بأن العلم نورٌ ونور الله لا يُهدى لعاصي.

• الإخلاص، وترك الكِبَر، والعمل بالعلم.

فالعلم شرفٌ في الدنيا والآخرة، ومنهجٌ أصيل في حياة الأنبياء والمرسلين، وجميع مشاريعهم الإصلاحية قامت على العلم، كإبراهيم ويوسف وسليمان وداود وشعيب (عليهم السلام). وقد كان المسلمون سببًا في إصلاح العقائد والمناهج الأخلاقية والسياسية والاقتصادية، حين كانوا على نهج الإسلام عقيدةً وشرعةً وأخلاقًا³.

- العمل الصالح:

من مقومات الإصلاح في قصة شعيب (عليه السلام) العمل الصالح؛ فقد التزم بالصلاة والعبادات والشرائع والأحكام المتعلقة بشرع الله، وكان قدوةً في العمل، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَأَكُمُ عَنْهُ﴾ [هود: 88].

فالعمل الصالح عند شعيب والأنبياء والمرسلين عليهم السلام، ومن سار على نهجهم من المصلحين والصالحين، هو ثمرة من ثمرات الإيمان، وله آثار عظيمة، منها:

• إصلاح النفس وسعادتها.

¹ تفسير ابن كثير، (11 / 338).

² ديوان الشافعي، محمد بن إدريس الشافعي، مكتبة الكليات الأزهرية، 2015م، ص 88.

³ الإصلاح والإفساد في ضوء القرآن، ص 441.

- تحقيق النصر والتمكين.
- رفع صاحب العمل الصالح.
- الثناء الحسن في الدنيا.
- الهداية.
- دليل صدق التوبة.
- الأجر غير المقطوع.
- الدرجات في الجنة.
- وراثة الأرض.

فهذه بعض ثمار العمل الصالح التي ينالها الفرد وتنعكس آثارها على المجتمع، وتؤثر في حركة الإصلاح العامة.

- أولو الألباب:

تبين قصة شعيب (عليه السلام) أن الإصلاح الإسلامي الشامل من مقوماته أن يتولى قيادته أولو الألباب، وأصحاب الإرادات والعزائم العظيمة. ومن صفاتهم التي تؤهلهم لقيادة مشروع إصلاحي كبير:

- القوة في الإيمان.
- القوة في العلم.
- القوة في العبادة.
- القوة في الدين.
- الجِدِّ والصرامة.

- الاطلاع الواسع على فقه الإصلاح، مع استيعاب عميق له، مثل فقه الموازنات، والأولويات، وفقه الواقع، والتعبير عنه¹.

وقد قام الدكتور توفيق علي زبادي بدراسة موسعة في رسالته "الإصلاح والإفساد في ضوء القرآن الكريم"، فمن أراد التوسع فليرجع إليها.

- الصبر:

من أهم مقومات الإصلاح في قصة شعيب (عليه السلام): الصبر، كما قال تعالى على لسانه: ﴿فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ [الأعراف: 87].

والصبر هو زاد المصلحين في طريقهم الطويل، ومن فضائله:

- تعليق الفلاح به: كما في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: 200]².
- مضاعفة الأجر: ﴿أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا﴾ [القصص: 54].
- تعليق الإمامة في الدين به وباليقين: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْتَدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: 24].
- ظفرهم بمعية الله: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: 153].
- نيل الصلوات والرحمة والهداية: ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: 157].
- جعل الصبر عوناً وعدة: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ [البقرة: 45].

¹ الإصلاح والإفساد في ضوء القرآن، ص 465.

² الإصلاح والإفساد في ضوء القرآن، المصدر السابق، ص 523.

• تعليق النصر به: ﴿بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ [آل عمران: 125].

• جعل الصبر جنة من كيد العدو: ﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ [آل عمران: 120].

• تسليم الملائكة عليهم في الجنة بسبب صبرهم: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد: 24].

• المغفرة والأجر الكبير: ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُم مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [هود: 11].

• محبة الله لهم: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: 146].

• أن خصال الخير لا يلقاها إلا الصابرون في موضعين من كتاب الله:

- ﴿وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: 35].
- ﴿ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَن آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلْقَاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ﴾ [القصص: 80].

وقد نبأ النبي ﷺ بذلك الزمان الصعب، فقال: "يأتي على الناس زمان، الصابر فيهم على دينه كالقابض على الجمر".

فكان صبر شعيب (عليه السلام) وحرصه على الإصلاح، ودعوته للناس إلى دين الله، من أهم مقومات نجاحه في دعوته الربانية.

- اليقين:

من مقومات المشروع الإصلاحي لشعيب (عليه السلام): اليقين الراسخ في دعوته الإصلاحية، فلم يكن لديه أدنى شك في صلاحها واستقامتها وصفائها وعظمتها. ولهذا، عندما قال له قومه: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ﴾ ﴿٨٨﴾ قَدْ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا

أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رُبْنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴿٨٩﴾ [الأعراف: 88-89].

وإن هذه باختصار أهم مقومات الإصلاح من خلال قصة شعيب (عليه السلام).

5- ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾:

عندما قال شعيب (عليه السلام): ﴿إِنْ أُريدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ﴾، أي: ليس لي من المقاصد إلا أن تصلح أحوالكم وتستقيم منافعكم، وليس لي مصلحة شخصية، وإنما بحسب استطاعتي. ولما كان في ذلك نوع تزكية للنفس، دفعه بقوله:

أ- ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ﴾: أي ما يحصل لي من التوفيق لفعل الخير والانفكاك عن الشر إلا بالله تعالى، لا بحولي ولا بقوتي¹. فقد تبرأ (عليه السلام) من الحول والقوة، وأسند الأمر كله إلى ربه وربهم، فجاء القصر هنا مفيداً للتوكيد، ولبيان أن قبول دعوته إنما هو توفيق من الله تعالى، فالأمر كله موكل إليه سبحانه. ويمكنك أن تلمح في هذا تهديداً للكافرين، كأنهم إن رفضوا الرسالة فقد عرضوا أنفسهم لغضب الله وعقابه². إن شعيباً (عليه السلام) يقرّر حقيقة أن التوفيق للخير وإصابة الحق بيد الله وحده، وبتأييده ومعونته، فهو القادر على إنجاح مساعي الإصلاح لما يعلم من نيته، ولما يجزي به على جهده³.

• جملة ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ﴾ في محلّ الحال من ضمير ﴿أُريدُ﴾⁴.

¹ تفسير السعدي، المصدر السابق، ص491.

² نماذج من بلاغة القرآن الكريم، ص222.

³ في ظلال القرآن، (4/ 1921).

⁴ التحرير والتنوير، (5/ 591).

• هذه الكلمات غدت شعارًا سائرًا يردده الناس، وبخاصة أهل الإصلاح، في كل عصر ومصر¹.

• ولهذا قال: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾، فإني أتوكل عليه وأرجع إليه لا إلى غيره. وكان الخليفة الصالح عمر بن عبد العزيز -رحمه الله- يخطم كتبه إلى عماله بقوله تعالى: ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾².

ب- ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾: أي اعتمدت عليه في أموري، ووثقت بكفائته³. والتوكل علامة صدق الإيمان، وهو يتضمن ملاحظة عظمة الله وقدرته، وشدة الحاجة إليه، وهذا من الأدب العظيم مع الخالق، ويدل على محبة العبد لربه⁴، ولذلك قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾.

• بين شعيب (عليه السلام) مصدر قوته الحقيقي، وهو توكله على الله وقدرته وهيمنته على الكون. وقد حذر قومه من رفض دعوته، والإصرار على العناد والاستكبار.

• إن شعيبًا (عليه السلام) كان أقوى الناس في زمانه، لأنه كان متوكلًا على الله، والتوكل على الله معيار الإيمان، كما في قوله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: 23].

• التوكل من أعظم ثمرات الإيمان ومطالبه⁵، وهو عبادة من أعظم العبادات القلبية، ومن أعظم الأخلاق الإيمانية، ومقام من مقامات الموقنين⁶، بل هو من معالي درجات المقربين.

1 تفسير سورة هود، ص 322.

2 التفسير الموضوعي، (4/ 89).

3 تفسير السعدي، ص 491.

4 التحرير والتنوير، (2/ 372).

5 تفسير سورة هود، ص 213.

6 السنن الإلهية ودورها في البناء الحضاري، ص 72.

• التوكل هو: علم القلب بكفاية الربّ، والانقطاع عن الخلق، والتوجّه إلى الله وحده، فلا يرجو سواه، ولا يقصد إلا إياه، ولا يلتذّ إلا بجانبه، وإذا طلب، لا يطلب إلا منه، وإذا رغب، لا يرغب إلا إليه، ويعلم أن ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، سبحانه وتعالى.

ج- ﴿وَالَيْهِ أُنِيبُ﴾: في أداء ما أمرني به من أنواع العبادات، فبذلك أتقرب إليه بسائر الخيرات. ويهذين الأمرين: الاستعانة به، والإنابة إليه، تستقيم أحوال العبد، كما قال تعالى: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾، وقال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾¹.

- المنيب إلى الله هو المسرع إلى مرضاته، الراجع إليه كل وقت، المتقدّم إلى محابته².
- ﴿وَالَيْهِ أُنِيبُ﴾: أي إليه وحده أرجع في شأني، وإليه وحده أتوجّه بنيتي وعملي ومسعائي³.
- والإنابة تعني الرجوع إليه، والتوبة، والطاعة، والإقبال عليه بالقلب والعمل⁴.

ثم أضاف شعيب (عليه السلام) إلى وعظه ودعوته تهديدهم بعذاب الله، مع إظهار شفقتة عليهم، وحرصه على نجاتهم، وألا يُصيبهم ما أصاب الأمم المهالكة من حولهم، فجمع بين التحذير والشفقة في أسلوب بالغ التأثير. فهو بحقّ: خطيب الأنبياء⁵.

¹ تفسير السعدي، ص 491.

² الخريطة الإيمانية، مجموعة من الباحثين، ص 142.

³ في ظلال القرآن، (4/ 1921).

⁴ تفسير الطبري، (10/ 208).

⁵ التفسير الموضوعي، (4/ 89).

سادساً: قوله تعالى: ﴿وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمٌ لُوطٍ مِّنْكُمْ بِبَعِيدٍ﴾ [هود: 89]

هذا هو النداء الرابع لشعيب (عليه السلام): ﴿يَا قَوْمِ﴾، وفيه يتوَدَّد لقومه ويتألفهم، ولكنه يخاطبهم بوضوح وحسم، دون تردد، بل يضمن نداءه فحوى التهديد والتحذير من أن يصيبهم مثل ما أصاب من قبلهم، ويختم بقوله: ﴿وَمَا قَوْمٌ لُوطٍ مِّنْكُمْ بِبَعِيدٍ﴾، لا زماناً ولا مكاناً. فاعتبروا.

1- ﴿وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي﴾:

الواو للاستئناف أو لعطف نداء على نداء، وموضوع على موضوع¹.

ويخاطبهم شُعَيْب (عليه السلام) بأنه منهم، حريصٌ عليهم، مشفقٌ على أبنائهم، مهتمٌ بمصالحهم في الدنيا، وسلامتهم في الآخرة بكل صورة، عطفٌ وحرصٌ وشفقة على نجاتهم وهدايتهم².

- ﴿لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي﴾ أي: لا يحملتكم عدائي وبعضي ومفارقة ديني على الإصرار على ما أنتم عليه من الكفر بالله، وعبادة الأوثان، وبخس الناس حقوقهم في المكيال والميزان، وترك التوبة والإجابة³.

¹ تفسير سورة هود، ص 324.

² إعجاز القرآن الكريم، رفعت السيد العوضي، ص 110.

³ تفسير الطبري، (10/ 209).

2- ﴿أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ﴾:

استخدم شُعَيْب (عليه السلام) أسلوب الترهيب والوعيد¹، فذكّرهم:

— بما أصاب قوم نوح من الغرق، مع طول.

— وقوم صالح من الرجفة، مع ترفههم وتشيدهم القصور، ونحتهم من الجبال بيوتاً فارهين².

3- ﴿وَمَا قَوْمِ لُوطٍ مِّنْكُمْ بِبَعِيدٍ﴾:

وما أعظم العبرة، وأبلغ الموعظة، عندما تكون آثار العقوبات ماثلة للأعين، ترى رأي العين، فتخلع القلوب لهولها، وتذيب الأبصار لشدة الخوف من وقوعها؛ لأن قوم لوط قريبو العهد منهم، فلا يبعدون عنهم زماناً ولا مكاناً. ففي الترتيب الزمني أتوا بعدهم، وفي الموقع الجغرافي كانت بلادهم قريبة من بلاد مدين، وما حلّ بهم من هلاك لا تزال صورته عالقة بالقلوب، ماثلة للأبصار، لأنهم كانوا جيراناً لهم³. ولأن القرب في الزمان والمكان يزيد من المعرفة، ويُكمل الاطلاع على الأحوال، فكأنه يقول: اعتبروا بأحوالهم، واحذروا من مخالفة الله، حتى لا ينزل بكم مثل ذلك العذاب⁴. فالعذاب الذي نزل بقوم لوط ذاع وانتشر بين الناس، وتناقله المسافرون والركبان، وآثاره لا تزال باقية حتى اليوم، في أخفض مكان في العالم عن سطح البحر، وهو البحر الميت أو "بحيرة لوط"⁵.

قال الشيخ محمد الطاهر بن عاشور — رحمه الله — والمراد بالبعد: بُعد الزمن والمكان والنسب؛ فزمن لوط (عليه السلام) غير بعيد من زمن شُعَيْب (عليه السلام)، والديار قريبة من ديارهم؛ إذ منازل

¹ تاريخ الأنبياء، محمود عبده نور الدين، ص208.

² تفسير الطبري، المصدر السابق، (10/ 209)، نماذج من بلاغة القرآن الكريم، ص224.

³ الدعوة إلى الله في سورة هود، ص380.

⁴ السراج المنير، الشريبي، (2/ 75).

⁵ التفسير الموضوعي، (4/ 89).

شُعَيْب عند "عقبة أيلة" المجاورة لـ"معان" مما يلي الحجاز، وديار قوم لوط بناحية الأردن إلى البحر الميت. وكان مدين بن إبراهيم (عليهما السلام) - وهو جد القبيلة المسماة باسمه - متزوجًا بابنة لوط¹.

ونلاحظ من خلال الآية الكريمة أن شُعَيْب (عليه السلام) لمس قلوب قومه لمسةً تاريخيةً، فذكرهم بمن كان قبلهم من الأقوام الكافرة، ودعاهم إلى التفكير بما جرى لهم، لعل ذلك يدعوهم إلى تغيير موقفهم. فهو يصارحهم بخوفه عليهم من أن يعذبهم الله كما عذب قوم نوح وهود وصالح ولوط، وما عليهم إلا أن يؤمنوا بالله لئلا يصيبهم ما أصابهم. وقد استخدم شُعَيْب (عليه السلام) علم التاريخ، ومعرفته بتاريخ النبوات، في تحذيره ونُصحه لقومه، فبيّن لهم ما حلّ بالأُمم التي رفضت البينات، وأن الله أغرق قوم نوح، وأهلك عادًا بريح صرصر، وأهلك ثمود بالطاغية، وأهلك قوم لوط بأن جعل عاليها سافلها، وأمطر عليهم ﴿حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ﴾ (٨٢) مُسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بَبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾ [هود: 82-83]، ويبدو أن قوم شُعَيْب كانت لديهم ثقافة دينية، فذكرهم بها.

والآية الكريمة تشير إلى سنةٍ من سنن الله الثابتة، وإلى عدله المطلق، بأن الله لا يعذب أحدًا بغير ذنب، ولا يهلك قومًا بغير جرم أسلفوه، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُرِيدَ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ﴾، وهذا يعني أن تدميرهم كان عدلًا، لأنهم استحقوه بأعمالهم، وسُنّة الله مطّردة في جميع الأمم، عدلًا منه تعالى². قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾، أي إن عذاب الله لا يقتصر على الأمم السابقة، بل سنته تعالى في أخذ كل الظالمين واحدة، فلا ينبغي أن يظن أحد أن هذا الهلاك قاصر على أولئك الظالمين السابقين، لأن الله لما حكى أحوالهم، بيّن أن كل من شاركهم في

¹ التحرير والتنوير، (5/ 592).

² مؤمن آل فرعون، بشير الخياط، كلية الدعوة الإسلامية في جامعة أم القرى، السودان، 2011م، ص211.

أفعالهم التي أدت إلى هلاكهم، فلا بد أن يشاركونهم في ذلك الأخذ الأليم الشديد؛ فالآية تحذير من عاقبة الظلم، فلا يغترّ الظالم بالإمهال¹.

إن في التاريخ عبراً، والقصاص القرآني خلاصة التاريخ الإنساني، وفي الإشارات القرآنية معانٍ مهمّة تعين في التفسير وحسن الفهم؛ فقله ﴿وَمَا قَوْمٌ لَوْطٍ مِّنْكُمْ بِيَعِيدٍ﴾ يفيدنا في التصور الجغرافي، والبحث الأثري، والدعوة إلى الاهتمام بهذه العلوم الحسيّة. ونلاحظ خطاب شُعَيْب (عليه السلام) العقلاني، الممزوج بالمبادئ، المتحكم في السلوك، الموجّه للشعور والانفعال².

وبعدما استخدم شُعَيْب (عليه السلام) أسلوب الترهيب والوعيد، انتقل إلى الترغيب، وبيّن لهم سبيل الخلاص من العذاب، فختم كلماته بحثّهم على الاستغفار والتوبة، كما فعل الأنبياء قبله³.

سابعاً: قوله تعالى: ﴿وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ [هود 60]:

استمر شُعَيْب (عليه السلام) في دعوته لقومه، وهنا أمرهم أن يستغفروا ربهم ويتوبوا إليه، ولم يقل في هذه الآية: "يا قوم"، اكتفاءً بما سبق وما سيأتي⁴.

1- ﴿وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ﴾:

الواو عاطفة، عطفت أمراً على نهي، وهي أيضاً استئنافية. ﴿وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ﴾ أي: اطلبوا المغفرة من الله سبحانه، والألف والسين والتاء للطلب، وعبر بلفظ "الرب" لأنه الأليق بالمقام، مقام

¹ موسى كليم الله، الصلاحي، ص 689.

² تفسير سورة هود، ص 327.

³ التفسير الموضوعي، (4/ 89).

⁴ تفسير سورة هود، ص 327.

الاستغفار والتوبة وقبولهما؛ فهو الرب الذي يرِيَّ عباده بالعفو والمغفرة، ويمنحهم الفرصة تلو الأخرى¹.

وقد قُدم الاستغفار على التوبة لعدة أسباب:

– الأول: الترتيب الزمني؛ إذ الاستغفار يتعلّق بما مضى، والتوبة تتعلّق بما يُستقبل.
– الثاني: التقديم الرتبي؛ حيث إن التخلية مقدمة على التحلية، أي: استغفروا من الشرك، ثم ارجعوا إلى الطاعة.

– الثالث: أن طلب السلامة مقدّم على طلب الغنيمة².

وإليك شيئاً من التفصيل:

﴿واستغفروا﴾، قُدم الاستغفار على التوبة لأن الاستغفار إنما يكون من الذنوب التي فعلها العبد، وأما التوبة فلاحقة له، ومن شروطها عدم العُودة إلى ما أسلف من المعصية. وجاء في "البحر المحيط": أمر بالاستغفار من الذنوب، ثم التوبة، وهما معنيان متباينان؛ لأن الاستغفار طلب المغفرة، وهي الستر، أي: لا يبقى للذنب تبعه، أما التوبة فهي الانسلاخ من المعاصي، والندم عليها، والعزم على عدم العُودة إليها³.

وفي تفسير الرازي - رحمه الله - : إن فائدة هذا الترتيب أن المراد استغفروه من سالف الذنوب، ثم توبوا إليه مما يُستأنف، فالاستغفار طلب من الله لإزالة ما لا ينبغي، والتوبة سعي من الإنسان

¹ تفسير سورة هود، المصدر السابق، ص 327.

² روح المعاني نقلاً عن نبي الله صالح، الصلابي، ص 88.

³ البحر المحيط في التفسير، (5/ 201).

لإزالة ما لا ينبغي. فذكر الاستغفار أولاً للدلالة على أن المرء لا ينبغي أن يطلب الشيء إلا من مولاه، فهو القادر على غفرانه، ثم التوبة لأنها جهد الإنسان في إصلاح نفسه، والاستعانة بفضل الله مقدّمة على الاستعانة بسعي النفس¹.

وقال عبد الحميد محمود طهماز: ﴿وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ﴾ أي: اسأله مغفرة ما مضى من ذنوبكم، ثم توبوا إليه، أي: اندموا على ما فات، وأقلعوا في الحال، واعزموا على عدم العودة في المستقبل، فلا يُقال إن الاستغفار هو التوبة، بل بينهما تباين².

فأصل معنى الاستغفار هو طلب المغفرة، أي: الستر. ومعنى التوبة: الرجوع. ويُطلق الأول على طلب ستر الذنب والعفو عنه، والثاني على الندم والعزم على عدم الرجوع، والقلب يميل لحمل الأمر الثاني على الإخلاص في التوبة، والاستمرار عليها³.

وقال الطاهر بن عاشور - رحمه الله - : الاستغفار طلب المغفرة من الذنب، أي: طلب عدم المؤاخذه بما مضى من الشرك، وهو هنا كناية عن ترك عقيدة الشرك؛ لأن استغفار الله يستلزم الاعتراف بوجوده، ويستلزم اعتراف المستغفر بذنب من جانبه، وذنوب الإشراف متقرّرين في جميع الشرائع، فكان الأمر بالاستغفار جامعاً لهذه المعاني تصريحاً وكناية⁴.

وفي التوبة: الإقلاع عن الذنب في المستقبل، والندم على ما سلف، والعزم على عدم العودة إليه، فيكون الأمر دعوة إلى الدوام على التوحيد، ونفي الشرك.

¹ تفسير الرازي، (18 / 315).

² التفسير الموضوعي، (4 / 13).

³ حاشية الصّاوي على تفسير الجلالين، أحمد الصّاوي المالكي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1995م / 2، (193).

⁴ التحرير والتنوير، (5 / 555).

وقد قال عبد الرحمن العوفي - رحمه الله - : كثيراً ما يقرن الله تعالى الاستغفار بذكر التوبة، فيكون الاستغفار حينئذٍ طلب المغفرة باللسان، والتوبة هي الإقلاع بالقلب والجوارح؛ لأن دواء الذنوب الاستغفار¹.

﴿وَأَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ﴾، طلب شعيب (عليه السلام) من قومه أن يستغفروا من ذنوبهم، ويرجعوا إلى الله تعالى، ودعوته لقومه تدل على معرفته العميقة بمن يغفر الذنوب؛ لذلك دعاهم إلى طلب المغفرة من ربهم، أي: من الخالق، المالك، المتصرف، الذي من أسمائه: الغفور، الغفار، غافر الذنب. إن "الغفار" سبحانه هو الذي يُظهر الجميل، ويستر القبيح من الذنوب، ومن جملة القبائح التي سترها الله: إسباغ الستر على الذنب في الدنيا، والتجاوز عن العقوبة في الآخرة.

ف"الاستغفار" هو طلب الغفران، والغفران هو ستر الذنب والعتو عنه². لقد علّمنا شعيب (عليه السلام) من قصته أن الله غفور، يغفر الذنوب، ويتوب على كل من تاب إليه.

2- ﴿ثُمَّ تَوُوبُوا إِلَيْهِ﴾:

والتوبة مأخوذة من "تاب" أي رجع وترك الذنب. قال الراغب الأصفهاني رحمه الله: التوبة في الشرع ترك الذنب لقبحه، والندم على ما فرط منه، والعزيمة على ترك المعاودة، وتدارك ما أمكنه تداركه من الأعمال بالإعادة، ويتبع ذلك التوبة النصوح، وهي توثيق العزم على ألا يعود المذنب بمثل الذنب الذي اقترفه، لتورث صاحبها الفلاح عاجلاً وآجلاً.

¹ الدعوة إلى الله في سورة هود، ص 264.

² موسوعة نضرة النعيم، مجموعة من الباحثين، 2018م.

إن قوم شعيب (عليه السلام) علوا في الأرض واستكبروا، وظلموا الناس في المكيال والموازين، وبخسوهم حقوقهم، وصدّوهم عن سبيل الله، فطلب منهم شعيب الاستغفار والتوبة لسلامتهم في الدنيا والآخرة. فالتوبة ملازمة للإنسان المفطور على الخير والشر؛ إذ قد يرتكب المعاصي والمخالفات مع وسوسة الشيطان له، فيأتي باب التوبة مفتوحاً للإنسان رحمةً من الله تعالى ليغفر له الذنوب والمعاصي ويرجع إلى الله.

إن شعيب (عليه السلام) دعا قومه إلى التوبة، والله عز وجل من أسمائه التواب، والتوبة من شرع الله الخالدة، وهي من الأحكام الشرعية للإنسان طوال الزمان والعصور، وقد دعا إليها الأنبياء والرسل.

لقد حثّ النبي ﷺ على الاستغفار والتوبة، وأمر بالالتزام بهما، وكان ﷺ قدوةً للأمة فالتزم الاستغفار آناء الليل والنهار، وبيّن فضل الاستغفار، ودعا المسلمين إلى طلبه قولاً وفعلاً لما له من منافع كثيرة في الدنيا والآخرة¹. وكان رسول الله ﷺ الذي غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، يستغفر كل يوم مئة مرة².

وقال ﷺ: "من لزم الاستغفار جعل الله له من كل ضيق مخرجاً، ومن كل هم فرجاً، ورزقه من حيث لا يحتسب"³. وكان ﷺ يستغفر الله ويتوب إليه يوميًا، فقال: "إني أستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة"⁴.

¹ شرعة الأنبياء، الزحيلي، ص 104.

² مسند أحمد، (4 / 211).

³ سنن ابن ماجه، رقم 3819، سنن أبي داود، (1 / 348).

⁴ البخاري، باب الاستغفار، (7 / 145).

. ﴿ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ﴾ أي بعد استغفاركم، توبوا إليه. واستخدم شعيب (عليه السلام) حرف الجر "إلى" وبعده الضمير العائد إلى الرب الذي يريكم ويزكيكم ويرزقكم سبحانه، و﴿إِلَيْهِ﴾ تشعر برحلة الإياب بعد الغياب عن الرب التواب، وفي قوله ﴿ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ﴾ أي توبوا إلى التواب؛ فإن الله عز وجل هو التواب على من تاب إليه من عباده المذنبين، التارك مخالفاته بإنابته إلى طاعته بعد معصيته، وتوبة الله على عبده أن يرزقه ذلك، وأن يؤوب من غضبه عليه إلى الرضا عنه، ومن العقوبة إلى العفو والصفح عنه¹.

فإن الله عز وجل هو التائب على التائبين أولاً بتوفيقهم للتوبة، والإقبال بقلوبهم إليه، وهو التائب على التائبين بعد توبتهم: قبولاً لهم وعفواً عن خطاياهم². ووصف الله سبحانه بـ"التواب" لكثرة من يتوب على خلقه³.

. تعريف التوبة: قال الإمام القرطبي رحمه الله: "التوبة هي الندم من القلب، وترك المعصية في الحال، والعزم على ألا يعود إلى مثلها، وأن يكون ذلك حياءً من الله"⁴. وقال ابن كثير رحمه الله: "التوبة النصوح أن يُقْلَع عن الذنب في الحاضر، ويندم على ما سلف في الماضي، ويعزم على ألا يفعل في المستقبل، ثم إن كان الحق لآدمي ردّه إليه"⁵.

¹ تفسير سورة هود، ص 203.

² تفسير سورة هود، ص 203.

³ تفسير السعدي، (5/300).

⁴ والله الأسماء الحسنى، ص 582.

⁵ تفسير القرآن العظيم، (2/392).

وقال الراغب الأصفهاني رحمه الله: "التوبة ترك الذنب لقبحه، والندم على ما فرط منه، والعزيمة على ترك المعادة، وتدارك ما أمكنه أن يتدارك من الأعمال بالإعادة، فمتى كملت هذه الأربعة، كملت شروط التوبة"¹.

وقد عرّفها الإمام ابن قيم الجوزية رحمه الله قائلاً: "لا يكون الإنسان بمجرد الإقلاع والعزم والندم تائباً، حتى يوجد منه العزم الجازم على فعل المأمور والإتيان به، وهذه حقيقة التوبة، وهي اسم لمجموع الأمرين. ولهذا علّق سبحانه الفلاح المطلق على فعل المأمور وترك المحذور بها، فقال: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: 31]. فكل تائب مفلح، ولا يكون مفلحاً إلا من فعل ما أمر به وترك ما نهى عنه. وقال تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الحجرات: 11]. وتارك المأمور ظالم كما أن فاعل المحذور ظالم، وزوال اسم الظلم عنه إنما يكون بالتوبة الجامعة للأمرين"².

فالإمام ابن القيم يرى أن التوبة لا يكفي فيها ترك المنهي عنه، بل لا بد من العزم الأكيد على فعل المأمورات والإتيان بها³.

¹ المفردات في غريب القرآن، ص76.

² مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، ابن قيم الجوزية، تحقيق محمد حامد الفضي، دار الفكر، بيروت، لبنان، 1412هـ، (1/ 305-306).

³ التوبة في ضوء القرآن الكريم آمال بنت صالح، دار الزمان للنشر والتوزيع، 2012م، ص21.

وعرّفها الإمام الغزالي رحمه الله بأنها: "عبارة عن معنى ينتظم في ثلاثة أمور مرتبة على: (1) محلّ، و(2) حال، و(3) عمل. فالعلم هو معرفة الذنوب وعظم خطرهما، والحال هو تألم النفس من ذلك الضرر، وهو ما يسمى بالندم، والعمل هو ترك الذنب وتدارك ما يمكن تداركه في المستقبل"¹.

مما سبق، نستنتج أن التوبة هي: معرفة العبد لقمح الذنوب وضررها عليه، فيُقَلِّع عنها مخلصًا في إقلاعه عن الذنب لله تعالى، نادمًا على ما بدر منه في الماضي من المعاصي قصدًا أو جهلاً، عازمًا عزماً أكيداً على عدم العودة إليها في المستقبل، والقيام بفعل الطاعات والحسنات، متحللاً من حقوق العباد بردها إليهم، أو حاصلاً على براءتهم منها².

وإن شعيب (عليه السلام) دعا قومه للتوبة، ورغبهم فيها بقوله: ﴿إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾، فأبعد عنهم اليأس والقنوط، ودعاهم إلى الرب الرحيم الودود.

3- ﴿إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾:

مبتدأ الختام بـ"إِنَّ" المؤكدة، ثم كلمة "الرب" المفيدة للتربية، خاصة الذي أوجدتهم من العدم، وتعهدهم ورزقهم، ودبّر أمرهم العام، ودبّر الشؤون الخاصة من الأنبياء والمرسلين ومن سار على نهجهم. وإضافة "الرب" إلى ياء المتكلم تُشعر بقرب المولى سبحانه من عباده. وابتدأ الحديث بنفسه لينقله إليهم، وكأنهم استعظمو أن يكون جرمهم مما يقبل الاستغفار منه، فأجيبوا بأن الله رحيم ودود. وفي الآية دلالة على كمال يقين شعيب (عليه السلام) بما تضمنته الجملة من أن الله رحيم ودود، وهذا يدل على كمال معرفته وعلمه وإيمانه بربه سبحانه وتعالى.

¹ إحياء علوم الدين لحجة الإسلام، أبو حامد محمد محمد الغزالي، دار الكتب العلمية، بيروت، دون تاريخ، (3/4)، بتصرف.

² التوبة في ضوء القرآن الكريم، ص21.

والتعبير بالربوبية في قوله ﴿رَبِّي﴾ مناسب لمعنى الجملة؛ لأن لفظ "الرب" مشعر بالعبادة والرعاية والحفظ للمربوب، وهذا ما يستدعي أن يكون قريباً مجيباً. وفي إضافته ياء المتكلم إشارة إلى أن شعيب (عليه السلام) أعلم بالله من غيره، فهو ربه. وفيه أيضاً تعريض للمخاطبين بأن آلهتهم التي يدعون لا تسمع ولا تجيب ولا ترحم ولا تنفع ولا تضر، ولا تملك موتاً ولا حياة ولا نشوراً.

- ﴿إِنَّ رَبِّي﴾ معتزاً بربه، يقول لهم: فأنا اتخذته رباً وإلهاً.
- ﴿رَحِيمٌ﴾ واسع الرحمة. ﴿وَدُودٌ﴾ يتحجب إلى عباده وهو غني عنهم، ويتودد إليهم بإحسانه، وهم المحتاجون إليه¹.
- اسم الله (الرحيم): عادةً عندما يتحدث العلماء عن أسماء الله الحسنى، يتحدثون عن "الرحمن الرحيم" معاً. وهذان الاسمان الكريمان مشتقان من الرحمة على وجه المبالغة، وهي الرِّقَّة والتعطف، وإن كان اسم "الرحمن" أشد مبالغة من اسم "الرحيم"، لأن بناء "فَعْلَان" أشد مبالغة من "فَعِيل"، وبناء "فَعْلَان" للسعة والشمول.

وقد اتفق أهل العلم على أن اسم "الرحمن" عربيٌّ لفظه، وفي الحديث القدسي: «أنا الرحمن، خلقتُ الرحم وشققتُ لها اسماً من اسمي»².

فقد دل هذا الحديث على الاشتقاق، وكانت العرب تعرف هذا الاسم. قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ﴾ [الزخرف: 20]. وجاء في أشعارهم قول الشاعر:

وعجَّلتم علينا إذ عجَّلنا عليكم
وما يشاء الرحمن يعقِد ويُطَلِق³.

¹ تفسير سورة هود، ص328.

² السلسلة الصحيحة، الألباني، ص520.

³ النهج الأسمى في شرح أسماء الله الحسنى، محمد الحمود الجندي، مكتبة الإمام الذهبي، 2009م، (1/ 6).

وقد ورد اسم "الرحمن" في القرآن الكريم سبعا وخمسين مرة¹، منها قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: 5].

وأما اسم الله "الرحيم" فقد ورد 114 مرة، منها قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: 143]، إلى غير ذلك من الآيات.

فمن أعظم صفات ربنا تبارك وتعالى صفة الرحمة، وحين يلقي المؤمن التحية على أخيه يقول له: السلام عليكم ورحمة الله. فالحمد لله الذي كتب على نفسه الرحمة. والحمد لله الذي سبقت رحمته غضبه. والحمد لله الذي وسعت رحمته كل شيء. هذه الصفة وردت في القرآن الكريم في أكثر من 160 موضعا باشتقاقها وتصريفاتها². ويقول سبحانه وتعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: 156].

فمن رحمة الله عز وجل أنه خلق مائة رحمة، كما أخبر بذلك نبيه صلى الله عليه وسلم، منها رحمة واحدة بها يتراحم الناس والبهائم والدواب، حتى إن الدابة لترفع حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه. كما قال رسول الله ﷺ: «إن الله خلق يوم خلق السماوات والأرض مائة رحمة، كل رحمة طباق ما بين السماء والأرض، فجعل منها في الأرض رحمة، فيها تعطف الوالدة على ولدها، والوحش والطير بعضها على بعض، فإذا كان يوم القيامة أكملها بهذه الرحمة»³.

¹ مع الله، سلمان العودة، ص 47.

² مع الله، المصدر السابق، ص 47.

³ صحيح مسلم، رقم، 2753.

فهذه من الرحمة التي خلقها الله سبحانه وتعالى وترأها في عباده من البشر والحيوانات والطيور وغيرها. أما الرحمة التي هي صفته سبحانه وتعالى فهي شيء آخر عظيم، وهي وراء كل تقدير أو إدراك أو ظن أو تصور. ولو علم العباد قدر رحمة الله عز وجل ما قنط من رحمته أحد¹.

أما الفرق بين "الرحمن" و"الرحيم" فمن أقرب وأحسن ما يمكن أن يقال: إن "الرحمن" يتعلق بالذات الإلهية، فالرحمن اسم دال على آثار هذه الصفة في المخلوقين، ولهذا قال سبحانه وتعالى: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: 43]، ولم يقل "رحمانًا"، وإنما تُذكر هذه الصفة في حق الله عز وجل فحسب.

فحينما نقول "رحيم" فكأننا نشير إلى ملاحظة وإدراك الرحمة الإلهية الربانية العظيمة، التي يقرؤها المتأمل في مشاهد لا يُحصى لها عدد ولا قدر، مما يراه ويسمعه. إن الرحمة الإلهية تتجلى في مشهد الركب الصالح الطيب من الأنبياء والمرسلين (عليهم الصلاة والسلام) الذين بعثوا إلى هذه البشرية رحمة وهداية لها، كما قال سبحانه وتعالى عن سيدهم وآخرهم وإمامهم محمد ﷺ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: 107].

فهو رحمة للعالمين في تعليمهم وإرشادهم وهدايتهم وحفظ مصالحهم الدينية والدنيوية. وقد كان صلى الله عليه وسلم مثلاً للرحمة في خُلُقهِ وسلوكه حتى مع خصومه وأعدائه. وقد قال صلى الله عليه وسلم للمشركين بعدما انتصر عليهم وفتح مكة: «وما ترون أني فاعل بكم؟» قالوا: خير، أخ كريم، وابن أخ كريم. قال: «أذهبوا فأنتم الطلقاء»².

¹ مع الله، سلمان العودة، ص 49.

² السيرة النبوية، ابن هشام، (2/ 412).

ولما قيل له: يا رسول الله، ادعُ على المشركين، فقال ﷺ: «إني لم أبعث لعاناً، وإنما بعثت رحمة»¹.

ودعا ﷺ لأقوام من الكفار، كما كان في الحديث الصحيح عن أبي هريرة (رضي الله عنه) قال: قدم الطفيل بن عمرو الدوسي وأصحابه على النبي ﷺ فقالوا: يا رسول الله، إن دوساً عصت وأبت، فادعُ الله عليها. فقيل: هلكت دوس. قال رسول الله ﷺ: «اللهم اهدِ دوساً وأتِ بهم»².

فأسلموا وآمنوا بالله عز وجل. وحين تقارن بين آيات الرحمة وآيات العقاب في القرآن الكريم، تجد أن الله تعرّف إلى عباده بالرحمة والرأفة واللطف في العموم الأغلب. وتأمل قوله تعالى: ﴿تَبَيَّنْ عِبَادِي أَيُّ أَنَا الْعَفُورُ الرَّحِيمُ * وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾ [الحجر: 49-50]. كيف قال: ﴿تَبَيَّنْ﴾ ليمهد لهذا الخبر الجميل، ثم قال: ﴿عِبَادِي﴾ فنسبهم إلى ذاته الكريمة توددًا وتحببًا، كما قال في مواضع كثيرة من القرآن والسنة. ثم وصف وأكد بقوله: ﴿إِنِّي أَنَا الْعَفُورُ الرَّحِيمُ﴾. فهي مؤكداً لغوية عديدة على رحمته ومغفرته. ولما ذكر العقاب لم يجعله صفة له، بل قال: ﴿وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾، ولم يقل: «إني أنا المعذب أو المنتقم»³.

إن الرحمة تتجلى في الكون، وما وضع الله تبارك وتعالى فيه من السنن والقوانين التي بموجبها أصبح مناسباً للحياة فيه، وأصبح من مظاهر الجمال والرحمة والسعادة للبشر الشيء العظيم⁴.

إن تجليات اسم الله "الرحيم" و"الودود" لمست قلب وعقل وروح شعيب (عليه السلام)، ولذلك عبّر بقوله العظيم: ﴿إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾.

1 أخرجه مسلم، رقم 2599.

2 أخرجه البخاري، رقم 2779.

3 مع الله، ص 51.

4 مع الله، المصدر السابق، ص 51.

إن رحمة الله تعالى حين تُفتح فلا تُمسك لها، فهي تتمثل في عطاء سخّي كريم لا يعد ولا يحد، مما نعلمه ومما لا نعلم، مما نحصي ومما لا نحصي. قال تعالى: ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [فاطر: 2].

عندما يؤمن الإنسان بالله بأنه الرحمن الرحيم، وبرحمته التي وسعت كل شيء، ويستقر هذا الإيمان ويتمكن في قلبه ويوجه عقله ويطهر قلبه، يحدث له تحوّل كامل في تصوره ومشاعره واتجاهاته وموازينه وقيمه في هذه الحياة جميعاً، فتُفتح له أبواب الله عز وجل، ويسلك طريقه إلى الله بقوله وفعله وقلبه. وقد يذهب الإنسان عن ربه مع المذاهب المادية ومع السلوك الرديء، ثم يقوده المرض إلى ربه، فتتجلى رحمت الله تبارك وتعالى على هذا العبد بحيث يتجه هذا القلب إلى الله عز وجل¹.

لـك الحمد مهـما استـطال البلاء	ومهمـا اسـتبد الألم
لـك الحمد إن الرزايـا عطاء	وإن المصـيبات بعـض الكرم
لـك الحمد إن الرزايـا ندى	وإن الجـراح هـدايا الحبيب
لـك الحمد يا رامياً بالقدر	وهي كاتباً بعـد ذلك الشفاء ²

وتأمل في رحمة الله سبحانه وتعالى الكريم في مثل هذه المواقف التي يؤوب العباد فيها إلى ربهم جل وعز، بعد عمر طويل استمتعوا فيه بألوان المتع التي لا ترضيه، ثم عادوا إليه مقهورين بصوت الخوف

¹ مع الله، المصدر السابق، ص52.

² مع الله، المصدر السابق، ص53.

أو الذل أو المرض أو العجز، فيقبلهم سبحانه ويفتح لهم أبوابه، ويعطيهم من الإيمان الذي هو أعظم عطاء، ما يخدمون به حياتهم بمعانٍ من الرضا والطمأنينة إليه.

إن الرحمة تتجلى وتظهر أكثر ما تكون في الدار الآخرة، حينما ينزل الله بفضله القضاء والحكم بين عباده، وتتجلى الجنة والنار. قال تعالى: ﴿وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴿١٢﴾ وَإِذَا الْجَنَّةُ أُنزِلَتْ ﴿١٣﴾﴾ [التكوير: 12-13].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «حاجت النار والجنة، فقالت النار: أثمرت بالمتكبرين المتجبرين. وقالت الجنة: فما لي لا يدخلني إلا ضعفاء الناس وسقطهم وعجزهم. فقال الله للجنة: أنت رحمتي، أرحم بك من أشياء من عبادي. وقال للنار: أنت عذابي، أعدب بك من أشياء من عبادي»¹.

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن الله يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة. فيقولون: لبيك ربنا وسعديك، والخير بين يديك. فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى يا رب، وقد أعطيتنا ما لم تُعطِ أحداً من خلقك. فيقول: ألا أُعطيكم أفضل من ذلك؟ فيقولون: يا رب، وأي شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: أحل عليكم رضواني، فلا أسخطه بعده أبداً»².

فتأمل هذا النعيم المقيم، وهذه الرحمة التي لا حد لها، حين يتفضل الله عز وجل على عباده فيسكنهم هذه الجنة العظيمة بكل ما فيها من أنواع المسرات وبهجة العيون والقلوب والأبصار، بل النظر إلى

¹ البخاري، رقم 4569، مسلم، رقم 2846.

² البخاري، رقم 6549، مسلم، رقم 2829.

وجبه الكريم في جنات عدن. ولذا يقول سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ
أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: 53].

فيناديهم وهو الغني عنهم، وهم الفقراء إليه، ألا يقنطوا من رحمته، وألا تأخذهم ذنوبهم بعيداً عنه:

منطرخاً أمام بابك الكبير أصـرخ في الظلام أستجير

يا راعي النمال في الرمال وسامع الحصى في قرار الغدير¹.

إن من الدروس المهمة في قصة شعيب (عليه السلام) أن يقدم الداعية إلى الناس جانب الترغيب
في رحمة الله الواسعة، وأن يعرفهم سعة الرحمة الإلهية، ويحدوهم إليها، ويفتح لهم أبواب الطمع والرجاء
فيها، لئلا تزل بهم القدم إلى ما هي عليه من لباس القنوط، فيندفعون وراء المغريات وأسباب
الضعف، غير عابئين بما يترتب على ذلك من فساد القلب وظلمة النفس².

وكثيراً ما أقف مدهوشاً أمام دعاء عمر بن عبد العزيز -رحمه الله- حيث يقول: «اللهم إن لم أكن
أهلاً أن أبلغ رحمتك، فإن رحمتك أهل أن تبلغني. رحمتك وسعت كل شيء، وأنا شيء، فلتسعي
رحمتك يا أرحم الراحمين»³.

وقد قرر أهل العلم، كما عليه الشيخ عبد الرحمن السعدي -رحمه الله- وغيره، أن الشريعة كلها
مبناها على الرحمة في أوامرها ونواهيها، وثوابها وعقابها، وحلالها وحرامها⁴.

¹ مع الله، ص 54.

² مع الله، ص 55.

³ حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، أحمد بن عبد الله الأصفهاني أبو نعيم، دار السعادة، مصر، 2007م، (5/ 299).

⁴ تفسير السعدي، ص 143.

فيا من تعرّف إلى عباده بالرحمة، لا تحرمنا من رحمتك، ولا تكلنا إلى سواك، ولا تؤاخذنا بذنوبنا، ولا تفضحنا بعيوبنا¹.

• اسم الله الودود:

قال تعالى على لسان شعيب (عليه السلام): ﴿إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾.

ورد اسمه سبحانه "الودود" مرتين في كتاب الله عز وجل، وذلك في قوله سبحانه: ﴿وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ [هود: 90]، وقوله عز وجل: ﴿وَهُوَ الْعَفُورُ الْوَدُودُ﴾ [البروج: 14].

وقال الطبري -رحمه الله-: "ودود" ذو محبة لمن أناب وتاب إليه، يوده ويحبه². وقال في قوله ﴿وَهُوَ الْعَفُورُ الْوَدُودُ﴾: يقول تعالى ذكره: وهو ذو المغفرة لمن تاب إليه من ذنوبه، وذو المحبة له³.

وقال الشيخ السعدي -رحمه الله-: الودود هو المحب المحبوب، بمعنى "وادّ ومودود"⁴. وقال أيضًا: فهو الذي يحب أنبياءه ورسله وأتباعهم ويحبونه، فهو أحب إليهم من كل شيء، قد امتلأت قلوبهم من محبته، ولهجت ألسنتهم بالثناء عليه، وانجذبت أفئدتهم إليه ودًا وإخلاصًا وإنابة من جميع الوجوه⁵.

وقال أيضًا: ولا تعادل محبة الله من أصفياته محبة أخرى، لا في أصلها ولا في كقيتها ولا في متعلقاتها. وهذا هو الفرض والواجب: أن تكون محبة الله في قلب العبد سابقة لكل محبة عالية،

¹ مع الله، ص 55.

² تفسير الطبري، (16 / 12).

³ تفسير الطبري، (89 / 30).

⁴ الحق الواضح المبين، ص 69.

⁵ تفسير السعدي، (631 / 5).

وكل محبة وبقية المحاب تبع لها. ومحبة الله هي روح الأعمال، وجميع العبودية الظاهرة والباطنة ناشئة عن محبة الله¹.

والله عز وجل ودود لعباده الصالحين، يحبهم ويقربهم، ويرضى عنهم، ويقبل أعمالهم. ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: 54]. وهذه مودة خاصة، ومن وُدّه لهم أن يرزقهم محبة الناس ويحببهم إلى خلقه.

وأما المودة العامة لخلقها، فإشارة إلى قربه من عباده ومحبة الخير لهم، لأن هذا الاسم الكريم دعوة لإشاعة الود، واسمه "الودود" بين الناس، وخاصة الأزواج والقرباة والجيران والمعارف والأزهار والشركاء، وتصفية القلوب، وإزالة الشحناء، وغسل الضمائر، وتجنب الحسد والتباغض والتناحر². وما أطف اقتران اسم "الودود" بالرحيم وبالغفور، فإن الرجل قد يغفر لمن أساء إليه ولا يحبه، وكذلك قد يرحم من لا يحب. والرب تبارك وتعالى يغفر لعبده إذا تاب إليه، ويرحمه ويحبه مع ذلك، فإنه ﴿يُحِبُّ التَّوَّابِينَ﴾. وإذا تاب إليه أحبه ولو كان منه ما كان³.

إن شعيباً (عليه السلام) عاش مع أسماء الله الحسنى وآمن بها، وتذوق مرها وآثارها وظلالها في حياته، وتعرّف على ربه، ودعا الناس إلى الإيمان بالله عز وجل، وبين لهم أنه عظيم الرحمة كثير المودة للمستغفرين التائبين. وبقي قوم شعيب مصرّين على كفرهم وفسادهم واستكبارهم، مع أنهم

¹ الحق الواضح المبين، ص 69-70.

² مع الله، ص 196.

³ جلاء الأفهام في فضائل الصلاة والسلام على خير الأنام، ابن قيم الجوزية، دار عطاءات العلم للنشر، 2021م، ص 447.

سمعوا أدلة الحق الواضح البين على أحسن وجه وأبلغه، فقابلوا كلامه المحكم وحججه القاطعة بالإعراض، وتظاهروا بالغباء في الفهم، ولوّحوا له مهتدين متوعدين¹.

ثامناً: قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بَعِزِينَ﴾ [هود: 91].

هذا رد قوم شعيب (عليه السلام) عليه، وهو رد سلمي يؤكد إصرارهم على الباطل².

1- ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ﴾:

تأمل مناداتهم له بقولهم "يا شعيب"، وأداة النداء "يا" لمناداة البعيد، فهم يريدون أنه بعيد لا يعبؤون به ولا بكلامه. وتأمل أيضاً مناداتهم له باسمه "شعيب" جفاءً وغلظةً، مع أنه (عليه السلام) يناديهم تقرباً وتلطفاً بقوله: ﴿يَا قَوْمِ﴾. فهم يقابلون ذلك بكل كبر وتحكم وعناد. وكذلك فإنهم يقيسون القيم في الحياة بمقياس القوة المادية الظاهرة³. ونادوه باسمه استخفافاً، وإظهاراً لإنكار نبوته (عليه السلام)⁴.

2- ﴿مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ﴾:

وردتهم هذا هو استهانة بشعيب ونصحه لهم؛ فهم لا يلقون لما يقوله بالأ، ولا يعرفون له اهتماماً. فهم لم يعبئوا به، مع إقرارنا أن شعيباً (عليه السلام) هو خطيب الأنبياء (عليهم السلام)، فكلامه

¹ التفسير الموضوعي، (4/ 90).

² تفسير سورة هود، ص 329.

³ نماذج بلاغة القرآن الكريم، ص 227.

⁴ الدعوة إلى الله في سورة هود، ص 727.

بليغ فصيح، فهو المفلق بالحجة الواضحة والمنطق السليم، فكلامه (عليه السلام) يفهمه من هو أقل درجة في الفهم وأدنى مقامًا في الإدراك¹.

- ﴿مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ﴾: ما ندرك كثيرًا مما تدعوننا إليه وتعرضه علينا. وهو ادعاء منهم غير صحيح؛ فمن لا يريد شيئًا يلجأ إلى دعوى عدم فهمه. وما الذي غمض على قوم شعيب (عليه السلام)؟ أهو التوحيد؟ أم النهي عن التطفيف؟ أم النهي عن الفساد؟ ما العسير على الفهم كما زعموا؟! إنهم لا يريدون أن يعلموا ولا أن يعملوا. ولاحظ كلمة "كثيرًا"، فهي تعني معظم ما قلت وأكثره وأغلبه.
- ﴿مِمَّا تَقُولُ﴾: ولم يقولوا "مما تدعوننا إليه"، وكأنها مجرد أقوال يدلي بها شعيب².

وقد يكون قولهم ﴿مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ﴾ من باب الحقيقة. يقول الشوكاني -رحمه الله-: المعنى أنك تأتينا بما لا عهد لنا به من الأخبار بالأمر الغيبية كالبعث والنشور، ولا نفقه ذلك ولا نفهمه كما نفهم الأمور الحاضرة والمشاهدة، فيكون "الفقه" على هذا حقيقة لا مجازًا³.

فإذا كان قصدهم "لا نفهم كثيرًا من قولك" لأن كلامك فوق طاقة فهمنا، يكون جاريًا على الحقيقة. وإذا كان المراد بكلامهم الاستهانة به والاستهزاء والسخرية، فيكون "الفهم" هنا جاريًا على التعريض، ويكون فيه كناية. وما أجمل ما قاله أبو السعود -رحمه الله-: الفقه هو معرفة عرض المتكلم من كلامه. أي: ما نفهم مداركه، وإنما قالوه بعدما سمعوا دلائل الحق المبين على أحسن وجه وأبلغه، وضائق عليهم الخيل، وعيت بهم العلل، فلم يجدوا إلى محاورته سبيلًا سوى السدود عن منهاج الحق، والسلوك إلى سبيل الشقاء. كما هو ديدن المفحم المحجوج، يقابل البينات بالسب

¹ نماذج بلاغة القرآن الكريم، ص 227.

² تفسير سورة هود، ص 330.

³ فتح القدير، (2/ 520).

والإبراق والإرعاد، فجعلوا كلامه المجتمع على قانون الحكم والمواعظ وأنواع العلوم والمعارف، من قبيل ما لا يفهم معناه ولا يُترك فحواه¹. فلأنهم عجزوا عن مجارة فصاحته وبلاغته، عقّوده، وادعوا عدم فهمهم لكلامه².

وكثيراً ما نشاهد في عصرنا الحاضر أمثال الملا من قوم شعيب (عليه السلام)، ممن طغى حب المال على نفوسهم، وسيطر على أفكارهم، فلا يفهمون إلا ما يُسمى في العصر الحاضر "لغة المال"، وهي في الحقيقة لغة الشرع والجشع والطمع، فإذا ما حدثتهم بلغتها أنصتوا إليك بكل ذرة في أجسادهم، وأما إذا حدثتهم حديثاً آخر أعرضوا عنك، وأغلقوا دونه أسماعهم وعقولهم، ورأوا فيما تحدثهم به مضيعة لوقتهم³.

قال الرازي -رحمه الله- في قوله تعالى: ﴿مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ﴾، وفيه مسائل:

المسألة الأولى: لقائل أن يقول: إنه (عليه السلام) كان يخاطبهم بلسانهم، فلم قالوا: ﴿مَا نَفَقَهُ﴾؟ وذكر العلماء عنه أنواعاً من الجوابات:

- الأول: أن المراد "ما نفهم كثيراً مما تقول"؛ لأنهم كانوا لا يُلقون إليه أفهامهم لشدة نفرتهم من كلامه، وهو كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ﴾ [الأنعام: 25].
- الثاني: أنهم فهموه بقلوبهم، ولكنهم ما أقاموا له وزناً، فذكروا هذا الكلام على وجه الاستهانة، كما يقول الرجل لصاحبه إذا لم يعبأ بحديثه: "ما أدري ما تقول".

¹ إرشاد العقل السليم، أبي السعود، (3/ 235).

² نماذج من بلاغة القرآن الكريم، ص 229.

³ التفسير الموضوعي، (4/ 90).

• الثالث: أن هذه الدلائل التي ذكرها ما أقنعتهم في صحة التوحيد والنبوة والبعث، وما يجب من ترك الظلم والسرقة، فقولهم ﴿مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ﴾ أي: لم نعرف صحة الدلائل التي ذكرتها على صحة هذه المطالب.

المسألة الثانية: من الناس من قال: "الفقه" اسم لعلم مخصوص، وهو معرفة غرض المتكلم من كلامه، واحتجوا بهذه الآية، وهي قوله ﴿مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ﴾، فأضاف الفقه إلى القول، ثم صار اسمًا لنوع معين من علوم الدين. ومنهم من قال: إنه اسم لمطلق الفهم. ويقال: "أوتي فلانٌ فقهًا في الدين" أي: فهمها. وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «من يُرد الله به خيرًا يفقهه في الدين»¹، أي: يفهمه تأويله².

3- ﴿وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا﴾:

"إنَّ" واسمها وخبرها مؤكَّد باللام ليزيد الموقف تأكيدًا. والرؤية في ﴿لَنَرَاكَ﴾ رؤية بصرية، أو بصرية عقلية، أو هما معًا. فهم يرونه بعيونهم، وهذا تؤكدُه حساباتهم للقوى وعواملها بمقاييسهم وعقولهم. و"ضعيف" أي: مجرد من أسباب القوى المادية التي يقدرونها أو يقدرسونها³. فكأنهم يرونه - بالحساب البشري- لا يملك قوة كافية لفرض دعوته، فهو إذن ضعيف⁴. فاستضعفوه، ولم ينظروا إليه بمنظار الحقائق والقيم والمبادئ، ولو فعلوا ذلك لوجدوه غنيًا قويًا، لا يقاربه أحد في الغنى والقوة، ويكفيه أنه مع الله، يمنحه الله القوة، ومن كان كذلك لا يكون ضعيفًا⁵.

¹ صحيح البخاري، (1/ 217)، رقم 71.

² التدبر والبيان في تفسير القرآن، (15/ 338).

³ تفسير سورة هود، 330.

⁴ أنبياء الله، أحمد بهجت، ص 195.

⁵ القصص القرآني، (2/ 23).

- ﴿وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا﴾: أي نراك قليل المال، لا قوة لك، فالمال في نظرهم هو القوة، وما كان (عليه السلام) من أصحاب الثراء الواسع والغنى الكبير¹.
- ﴿وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا﴾: أي في نفسك، لست من الكبار والرؤساء، بل من المستضعفين².

4- ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجِمْنَاكَ﴾:

أي: لولا عشيرتك التي تنتمي إليها، لقتلناك رجماً بالحجارة. وقد هدّده أيضاً بالإخراج من البلاد³ كما مر معنا.

"رهط الرجل" عشيرته الذين يستند إليهم ويتقوى بهم. والمراد بقوله ﴿لَرَجِمْنَاكَ﴾ أي: ظاهرًا بالحجارة، وهي من شر القتلات. وكانوا إذا قتلوا إنساناً رجموه بالحجارة. وإنما جعلوا رهطه مانعًا من إنزال الضربة؛ لأنهم كانوا على دينهم، فتركوه احترامًا لهم⁴.

- ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجِمْنَاكَ﴾: دليل على أن رهط شعيب (عليه السلام) كان له قيمة اجتماعية كبيرة ووزن اجتماعي ثقيل، وأنه كان ينتسب إلى عشيرة ذات نسب شريف عزيز في "مدين"، وذات قوة وتأثير فيهم⁵.

قال الشيخ الشنقيطي -رحمه الله-: بيّن تعالى في هذه الآية الكريمة أن نبيه شعيبًا (عليه السلام) منعه الله من الكفار، وأعز جانبه بسبب العواطف العصبية والأواصر النسبية من قومه الذين هم

¹ التفسير الموضوعي، (4 / 90).

² تفسير السعدي، ص 492.

³ التفسير الموضوعي، (4 / 90).

⁴ الدعوة إلى الله في سورة هود، ص 729.

⁵ القصص القرآني، (2 / 24).

كفار. وهو دليل على أن المتمسك بدينه قد يعينه الله بنصره قريبه الكافر، كما بيّنه تعالى في مواضع أخرى، كقوله في صالح وقومه: ﴿قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ [النمل: 49].

ففي الآية دليل على أنهم لا قدرة لهم على أن يفعلوا بصالح (عليه السلام) إلا في حال الخفاء، وأنهم لو فعلوا به ذلك سرقة وخفية، لكانوا يخلفون لأوليائه الذين هم عصبته أنهم ما فعلوا به سوءًا ولا شهدوا ذلك ولا حضروه، خوفًا من عصبته. فهو عزيز الجانب بسبب عصبته الكفار.

وقد قال تعالى لنبينا ﷺ: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى﴾ [الضحى: 6]، أي: آواك بأن ضمك إلى عمك أبي طالب، وذلك بسبب العواطف العصبية والأواصر النسبية، ولا صلة له بالدين البتة. فكونه جل وعلا يمتن على رسول الله صلى الله عليه وسلم بإيواء أبي طالب له، دليل على أن الله قد يُنعم على المتمسك بدينه بنصره قريبه الكافر.

ومن ثمرات تلك العصبية النسبية قول أبي طالب:

والله لن يصلوا إليك بجمعهم	حتى أوسد في التراب دفينه
فاصدع بأمرك ما عليك غضاضة	وأبشر بذاك وقر منه عيونه
ونمنعه حتى نُصرع حوله	ونذهل عن أبنائنا والحلائل

ولهذا لما كان نبي الله لوط (عليه السلام) -وعلى نبينا الصلاة والسلام- ليس له عصبية في قومه الذين أرسل إليهم، ظهر فيه أثر عدم العصبية. بدليل قوله تعالى: ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ [هود: 80].

فهذه الآيات القرآنية تدل على أن المسلمين قد تنفعهم عصابة إخوانهم الكافرين.

ولما ناصر بنو المطلب بن عبد مناف بني هاشم، ولم يناصرهم بنو عبد شمس بن عبد مناف، عرف النبي صلى الله عليه وسلم لبني المطلب تلك المناصرة التي هي عصبية نسبية لا صلة لها بالدين، فأعطاهم من خمس الغنيمة مع بني هاشم، وقال: "وبنو المطلب لم نفترق في جاهلية ولا في إسلام"¹. ولم يُعطِ بني عبد شمس وبني نوفل من خمس الغنيمة، مع أن الجميع أولاد عبد مناف بن قصي.

وقال أبو طالب في عبد شمس وبني نوفل:

جزى الله عنا عبد شمس ونوفلاً عقوب شر عاجل غير آجل
في ميزان قسط لا يُبخس شعيرة له شاهد من نفسه غير عائل

فهذه الآيات القرآنية تدل على أن الله قد يُعين المؤمن بالكافر لتعصبه له، وربما كان ذلك له أثر حسن على الإسلام والمسلمين. وقد يكون من ممن الله على بعض أنبيائه المرسلين -صلوات الله عليهم-². وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر»³.

5- ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾:

أي: ليس لك قدر في صدورنا، ولا احترام في أنفسنا، وإنما احترمنا قبيلتك بترك أذاك⁴.

¹ مسند أحمد، (4/ 81)، البخاري، رقم 3140.

² أضواء البيان، (3/ 47/ 48).

³ البخاري، رقم 6606.

⁴ تفسير السعدي، ص 492.

وما كان شعيب (عليه السلام) يعتز بعشيرته، ولا يعتمد عليهم، ولا يحتمي بهم، وقد مرَّ معنا أن أعلى اعتزازه كان بالله تعالى واعتماده عليه وحده، عندما قال: ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: 88]. ولهذا ردَّ عليهم منكرًا قولهم هذا، وموِّجًا لهم عليه¹.

تاسعًا: قوله تعالى: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظَهْرًا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [هود: 92].

هذه الآية ترد على ما جاء في سابقتها مباشرة من قيم عشائرية، إذ قالوا: "لولا رهطك لكان لنا معك شأن". فهو يرد على هذه النبوة والعصبيية، فسألهم: هل عشيرتي والقبيلة والرهط أعز عندكم من الله؟! فعجبًا لكم².

1- ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ﴾:

وكلام شعيب (عليه السلام) وردوده تدل على التواضع الجَم، والتزام الأدب في الحوار، واجتناب الغرور، والبعد عن الكبر والتعالي. وذلك ميزة من ميزات حوار شعيب (عليه السلام) مع قومه، الذي تميز بالصدق في القول، والتحري في الحقيقة، والبعد عن الكذب والخداع، والتزام الموضوعية، وإبراز الدليل والبرهان الساطع، والالتزام بالمنطق السليم، ولين الجانب، وسماحة القول، وعفة اللسان. لأن هدفه (عليه السلام) هو جلاء الحقيقة والوصول إليها وإقناع الجميع بها³.

¹ التفسير الموضوعي، (4/ 91).

² تفسير سورة هود، ص 333.

³ نماذج من بلاغة القرآن الكريم، ص 233.

ونلاحظ في رد شعيب (عليه السلام) ثقة في الله، وعز الإيمان. وانظر إلى حرصه (عليه السلام) على استمالة قلوب قومه بنداثة لهم ﴿يَا قَوْمِ﴾، رغم غلظتهم وفضاظة أسلوبهم¹. وتأمل هذا الاستفهام الإنكاري ﴿أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ﴾، وهو توبيخ لهم، وإنكار عليهم، وتقريع شديد لهم. و"الرهط": هم الأقارب وعصبة شعيب، ولذا أضافهم إلى نفسه بقوله: "أرهطي". وتأمل ما يحويه لفظ الجلالة "الله" من عز وجبروت، فهو سبحانه محيط بكل شيء، عالم بما يقولون، قادر عليهم، فهو الجبار سبحانه، القوي العزيز المتعال².

يقول الشوكاني -رحمه الله-: فقد تضمن كلامهم أن رهطه أعز عليهم من الله، فاستنكر شعيب عليهم ذلك، وتعجب منه، وألزمهم ما لا مخلص لهم عنه ولا مخرج لهم، بصيغة الاستفهام. وفي هذا من قوة المحاجة ووضوح المجادلة، وإلزام الخصم الحجة ما لا يخفى³.

إن شعيباً (عليه السلام) يبين لقومه: من هو الأولى بالمراعاة والاعتبار والإعزاز؟ أرهطي وعشيرتي، أم الله رب العالمين؟ إنه يرفض ميزانهم وعرفهم الجاهلي القائم على اعتبار الموازين والقيم المادية الجاهلية، التي تكرم العشيرة بذاتها دون نظر إلى ما يتوفر فيها من قيم وحقائق صحيحة صادقة. ويدعوهم إلى الميزان الإيماني الصادق، الذي يزن الناس والأشخاص والرهط وزناً إيمانياً، ويكرمهم على أساس ما يتوفر لهم من إيمان وهدى. ويقول لهم: أيهما الأولى بالاعتزاز؟ أرهطي أم الله ربكم؟ وكيف جعلتم رهطي أعز عليكم من الله؟!

¹ نماذج من بلاغة القرآن الكريم، المصدر السابق، ص 234.

² نماذج من بلاغة القرآن الكريم، ص 234.

³ فتح القدير، (2/ 520).

وكيف جعلتم الله ربكم وراءكم ظهرًا؟! نسيتموه، ولم تجعلوا له قيمة ولا اعتبارًا. إنه يدعوهم إلى جعل الاعتبار لله، وإلى تكريم من كرمه الله، وإهانة من أهانه الله، ورفع من رفعه الله، ووضع من وضعه الله. لكن أتى لهم الاستجابة لدعوته واستعمال مقياسه وميزانه وهم الكفار الجاهلون¹.

2- ﴿وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظَهْرًا﴾:

أي: اتخذتم الله ودين الله وراء ظهوركم، تعالى الله عما يظن المجرمون ويفعلون. أي: إنكم في الاعتبار والتقدير جعلتم الله كما قال الله عن اليهود في سورة البقرة: ﴿نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ﴾ [البقرة: 101]². وقال الرازي -رحمه الله-: فالمعنى أنكم نسيتموه، وجعلتموه كشيء منبوذ وراء الظهر لا يُعبأ به³.

إن أساس البلاء: عدم تقدير الله عز وجل حق قدره. وكما أن فساد مقاييس البشر أنهم يعظمون ما لا يستحق التعظيم، ويغضون من قدر ذي القدر والشأن والعظمة سبحانه وتعالى. والمؤمن يقدر ربه، ويتوكل عليه، والله محيط بكل شيء، لا يخرج شيء عن إحاطته وقدرته وعلمه وتدبيره. وهذا الإحساس بإحاطة الله عز وجل يعطي المؤمن شعورًا بالطمأنينة والأمن والاستقرار⁴.

ولهذا قال سبحانه وتعالى:

3- ﴿إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾:

¹ القصص القرآني، (2/ 24).

² تفسير سورة هود، ص 333.

³ التفسير الكبير، (18/ 51-52).

⁴ تفسير سورة هود، ص 335.

وختم بالتأكيد، وأضاف كلمة "رب" إلى ضميره (عليه السلام) للتشرف والاعتزاز بالله ربه سبحانه، كل الاعتزاز، واثق به كل الثقة، ومتوكّل عليه كل التوكّل. ومعنى "محيط": مقتدر، ولا يخرج عن إحاطة قدرته شيء ولا قوة¹.

﴿إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾: فلا يخفى عليه شيء منكم، ولا نجاة لكم من سطوة عذابه وانتقامه².

﴿إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾: لا يخفى عليه من أعمالكم مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، فسيجازيكم على ما عملتم أتم الجزاء³.

ثم ألقى شعيب (عليه السلام) إليهم كلمته الأخيرة، بصيغة الإنذار الأخير لهم، فقال:

عاشراً: قوله تعالى: ﴿وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُجْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾ [هود: 93].

هذا هو النداء الأخير من شعيب (عليه السلام) لقومه، والحديث الأخير بعد مرافعته الطويلة ومجادلته الممتدة وأخذ وردّ وهم معرضون مصرّون؛ فالآن تأتي لحظة المفاصلة⁴.

1- ﴿وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ﴾:

خاطبهم بالتلطف النهائي والحاكم بعد واو العطف والاستئناف.

¹ تفسير سورة هود، المصدر السابق، ص 334.

² التفسير الموضوعي، (4 / 91).

³ تفسير السعدي، ص 492.

⁴ تفسير سورة هود، ص 335.

- ﴿اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾: اعملوا على مواقفكم، مواقِعكم، وثوابتكم، وعلى شاكلتكم من فكر ومعتقد ومعهود ومألوف ومستقر راسخ لديكم، وما دأبتم عليه من عمل واعتياد.
- ﴿إِنِّي غَامِلٌ﴾: ولم يكرر «على مكاني» كما قال لهم؛ لأن المقصود أنتم تعملون على باطلكم، وأنا أعمل بما أكرمني به الله من حق وهدى، ولن يوقفني عن دعوتي وعبادتي وعملي وفق تعاليم ديني تعنتكم وإصراركم على باطلكم¹.
فكلُّ مسؤول عن عمله وكسبه واختياره².

2- ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ﴾:

أي: سيُفضَّح ويُهان بسبب كسبه واختياره³.

- ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾: دون فاء عاطفة؛ «سوف» للتأجيل مع الإخبار بأن ثمة فسحة في الأمر ليتداركوا، لا للتراخ، بل ليتسع لهم الأمل في الرجوع إلى رحمهم، فإن تأخروا علموا حين المعاينة. العلم النافع هو الذي يأتي في الوقت المناسب ليُمكنَ من التحوّل عن الباطل إلى الحق فتنجو⁴.
- ﴿مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾: أي: يفضحه ويُهينه بسبب سوء كسبه واختياره⁵. اختير «الخزي» من أوصاف العذاب لأنهم كانوا بباطلهم منتفشين مستكبرين متباهين، فسيتحوّل حالهم من الانتفاش إلى الانتكاسة والخزي⁶.

¹ تفسير سورة هود، المصدر السابق، ص 335.

² التفسير الموضوعي، (4 / 91).

³ التفسير الموضوعي، المصدر السابق، (4 / 92).

⁴ تفسير سورة هود، ص 336.

⁵ التفسير الموضوعي، (4 / 92).

⁶ تفسير سورة هود، ص 337.

- ﴿وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ﴾: سُبَّيْنٌ لَهُمْ أَيْضًا مَنْ هُوَ الْكَاذِبُ، وفيه تعريض بكذبهم في ادعائهم القوة والقدرة على رجمه ووصفه بالضعف والهون¹. وبفضل الله كان شعيب (عليه السلام) يعلم من هو الكاذب؛ ومن اتخذ آلهته وهواه وجعل رب الوجود وراءه ظَهْرِيًّا فهو الكاذب². وقد أجاد الحجة وأقام البرهان في مواجهة أكاذيب المستكبرين من قومه.

3- ﴿وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾:

«وانظروا ما سيأتي من مفاجآتٍ ومن تدبيرٍ إلهي؛ إني منتظرٌ، مرتقبٌ معكم، وسنرى لمن ستكون النتائج والعاقبة، ومن هو المؤمن الذي سيخسر». «الرقيب» هنا بمعنى فاعل: أي "إني معكم راقب" كلُّهم مُرتقبٌ لما يجازيهم الله به إن كانوا كاذبين أو مخلصين³.

وهذا وإعادة منه بالوعيد بعد المفاصلة واختراق الطريق⁴، أي: انتظار العذاب والغضب، وانتظار الفتح والنصر؛ فالله خير الفاتحين. لقد أظهر ثقته الكاملة في الله وتحداهم بصراحة. ونلاحظ أن الزمن جزء من العلاج: من لم تقنعه العقل والمنطق والحجة ستقنعه الرجفة والصيحة ونزول العذاب. وتظهر ثقة شعيب (عليه السلام) في الله واستمداده القوة واليقين وحسن التوكل عليه سبحانه وتعالى.

¹ التفسير الموضوعي، (4/ 92).

² تفسير سورة هود، ص 337.

³ تفسير سورة هود، المصدر السابق، ص 337.

⁴ أنبياء في القرآن تركوا آثارا، ص 189.

الحادي عشر: قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا بُعْدًا لِمَدِينٍ كَمَا بَعَدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾﴾ [هود: 94-95].

حُتِمَتِ الآيَةُ السَّابِقَةُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى عَلَى لِسَانِ شُعَيْبٍ: ﴿وَارْتَقِبُوا إِلَيَّ مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾، وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ مَا هُوَ: قَدْ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ.

1- ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾:

لِوَاوٍ لِلْعَطْفِ وَتَصَحُّحٍ لِلِاسْتِنْفَافِ¹.

- «لَمَّا» ظَرْفُ زَمَانٍ بِمَعْنَى حَيْزٍ، مُتَضَمِّنًا مَعْنَى الشَّرْطِ، مَبْنِيًّا عَلَى السَّكُونِ فِي مَحَلِّ نَصْبٍ مُتَعَلِّقٍ بِالْجَوَابِ.
- وَهَذِهِ الْجُمْلَةُ مَعْطُوفَةٌ بِالْوَاوِ، كَأَنَّهُ قِيلَ: وَلَمَّا لَمْ يَتَعَطَّوْا وَاسْتَمَرُّوا فِي ضَلَالِهِمْ وَلَمْ يَنْتَفِعُوا بِالْوَعِيدِ، اسْتَمَرَ فِي دَعْوَتِهِمْ إِلَى أَنْ جَاءَهُمْ ﴿أَمْرُنَا﴾. وَتَأَمَّلْ قَوْلَهُ: ﴿أَمْرُنَا﴾، ﴿نَجَّيْنَا﴾، ﴿بِرَحْمَةٍ مِنَّا﴾، تَجَدُّدٌ مَا فِيهَا مِنَ التَّعْظِيمِ وَالتَّفْخِيمِ².
- الْمُرَادُ بِ﴿أَمْرُنَا﴾: جَاءَ الْأَجَلَ الَّذِي حَدَّدْنَاهُ لِلْكَافِرِينَ مِنْ قَوْمِ شُعَيْبٍ، وَالْمَجِيءُ يَعْبَّرُ بِهِ عَنِ الْقُرْبِ، وَأَضْيِيفُ «الْأَمْرُ» إِلَى النَّوْنِ لِلتَّعْظِيمِ وَالتَّهْوِيلِ. وَالْأَمْرُ هُنَا عَامٌّ، لَكِنَّهَا فِي هَذَا الْمَقَامِ بِمَعْنَى الْوَعْدِ وَبِمَعْنَى تَنْفِيذِهِ وَصُدُورِ الْأَمْرِ بِالْعِقَابِ³.

¹ تفسير سورة هود، ص 340.

² نماذج من بلاغة القرآن الكريم، ص 242.

³ تفسير سورة هود، ص 340.

2- ﴿نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا﴾:

- عبّر بلفظ ﴿نَجَّيْنَا﴾ لا بـ ﴿أُنَجِّنَا﴾؛ وفي تقديري تصوير للنَّجاة وتمليُّها للعين. فـ ﴿أُنَجِّنَا﴾ قد تدلّ على لقطهٍ سريعة، أما ﴿نَجَّيْنَا﴾ فتصوير وإطالة ليتأمل السامع هذه النجاة ويتروى في استعراضها، والله أعلم.
- ﴿شُعَيْبًا﴾: هو نبيُّ القوم الذين أهلكهم الله، وهم «مَدِين».
- ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾: نُجِّي الذين آمنوا معه؛ فهو رأس الناجين ورؤيسهم ورسولهم، والواو عاطفة مع تقدير «نَجَّيْنَا».
- ﴿بِرَحْمَةٍ مِنَّا﴾: بسبب رحمةٍ عظيمة كانت منا؛ تنكير «رحمة» للتعظيم¹.

3- ﴿وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ﴾:

- يلحظ أن المقام يتحدّث عن قوم شعيب، فذكر تعالى: ﴿وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ﴾ بصيغة «أخذت» للتأنيث الظاهر في التّصّ، كأنّ الصيحة كانت مُقَوِّمًا ومهيبًا، وقد أبرزت التأنيث هنا لما كان شأنهم أضعف من غيرهم، فبرزت علامة التأنيث في هذا السياق دون غيره².

4- ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾:

- لا تُسمع لهم حركةٌ ولا يُرى منهم صوت³.

¹ تفسير سورة هود، ص 341.

² نظم الدرر، (9/ 367).

³ تفسير السعدي، ص 492.

- وتأمل كيف عَطَفَتْ جملة ﴿فَأَصْبَحُوا﴾ على ما قبلها بـ«الفاء» إيداناً بالفورية والتعجيل؛ فكانت الصيحة فور وقوعها تسبب النتيجة الحتمية المشار إليها والنهاية المخزية لهؤلاء¹.
- ﴿فِي دِيَارِهِمْ جَائِحِينَ﴾: على ركبهم أو مطروحين دون حركة².
- قال ابن كثير -رحمه الله- وذكر أمثلة: إنهم أتتهم صيحة، وفي (الأعراف) ذكر رجفة لارتدادهم، وفي (الشعراء) وصفٌ بعذاب «يوم الظلة»، وهي صور متقاربة تصوّر حال الأمة يوم العذاب؛ فكل سياق يذكر ما يناسبه من تلك النقم، فهنا مناسبة ذكر الصيحة التي أسكنت هؤلاء وأخذتهم، وفي سياق آخر ذكر رَجْفَةَ الأرض، وهكذا. وهذا من الأسرار الدقيقة³.

5- ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾:

- كان أهل مدين لم يعيشوا في المدائن ولا يتمتعوا بما كانوا يتمتعون به؛ ما كان لهم مجبوحة ولا رخاء بعدما أخذت أسبابهم. لقد انقطع كل ما كانوا يستندون إليه من تجارة وعزّ وسلطة. إذا المهم الآن هو النتيجة: لو كان تاجر قد حقق ربحاً في صفقتين ثم أتته صفقة أدت إلى هلاك، فما قيمة الربح في مقابل العاقبة؟ أين الورثة؟ أين المتاجر؟ كل ذلك انقطع، فحالم صار بائساً⁴.

¹ نماذج من بلاغة القرآن الكريم، ص 245.

² جامع البيان، (12/108).

³ تفسير القرآن العظيم، (4/276-277).

⁴ تفسير سورة هود، ص 344.

6- ﴿أَلَا بُعِدًا لِمَدِينٍ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾:

هذه صيغة افتتاح أو دعاء بمعناه «أبعدهم الله»، لكن هنا وصف حال مدين؛ وقد تحوّل الوضع من دعاء إلى واقع. كما تُقال عن أعداءٍ أنهم «قتلوا» بعد أن كانوا أسيادًا، فاليوم صار حالهم هلاكًا لا مجرد دعاء¹.

¹ تفسير سورة هود، المصدر السابق، ص 344.

المبحث الرابع: شعيب (عليه السلام) في سورة الشعراء

قال تعالى: ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرِي ﴿١٧٩﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٠﴾ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأُولَى ﴿١٨٤﴾ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَاسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابٌ يَوْمَ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾﴾ [الشعراء: 176-191].

سورة الشعراء مكية، وآياتها مئتان وسبع وعشرون، وقد عاجلت أصول الدين من التوحيد والرسالة والبعث، شأنها شأن سائر السور المكية التي تهتم بجانب العقيدة وأصول الإيمان.

ولقد ابتدأت السورة الكريمة بموضوع القرآن العظيم الذي أنزله الله هدايةً للخلق، ولبسماً شافياً لأعراض الإنسانية. وذكرت موقف المشركين منه؛ فقد كذبوا به مع وضوح آياته وسطوع براهينه، وطلبوا معجزة أخرى غير القرآن الكريم عناداً واستكباراً.

ثم تحدثت السورة عن طائفة من الرسل الكرام (عليهم الصلاة والسلام) الذين بعثهم الله هدايةً بشرية. فبدأت بقصة كليم الله موسى (عليه السلام) مع فرعون الطاغية، وما جرى من المحاوراة والمداورة بينهما في شأن الإله جل وعلا، ونجاة موسى (عليه السلام) وإغراق فرعون. ثم قصة إبراهيم (عليه السلام) مع قومه وأبيه، وموقفه من عبادتهم للأوثان ودعوته إلى التوحيد. وتابعت السورة ذكر قصص الأنبياء: نوح، وهود، وصالح، ولوط، وشعيب (عليهم السلام).

وبيّنت سنة الله تعالى في معاملة المكذبين لرسوله. ثم عادت للتنويه بشأن الكتاب العزيز، تفخيماً
 لشأنه وبيانا لمصدره، قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٦﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٧﴾ عَلَى
 قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٨﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴿١٩٩﴾﴾ [الشعراء: 192-195].

ثم ختمت السورة بالرد على افتراء المكذبين في زعمهم أن القرآن من تنزيل الشيطان، ليتناسق البدء
 مع الختام في أروع تناسق والتئام.

وسميت سورة الشعراء بهذا الاسم لأن الله تعالى ذكر فيها أخبار الشعراء، وذلك رداً على المشركين
 في زعمهم أن سيدنا محمداً ﷺ، وأن ما جاء به من قبيل الشعر. فرد الله عليهم ذلك الكذب
 والبهتان بقوله: ﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا
 لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾﴾ [الشعراء: 224-226]. فظهر الحق وبان.

تفسير الآيات الكريمة

أولاً: قوله تعالى: ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾
 إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرًا ﴿١٧٩﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا
 عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٠﴾﴾ [الشعراء: 176-180].

1- ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ﴾:

وأصحاب الأيكة هم أهل مدين على الصحيح، وكان نبي الله شعيب (عليه السلام) من أنفسهم.
 وإنما لم يقل هنا "أخوهم شعيب"؛ لأنهم نسبوا إلى عبادة الأيكة، وهي شجرة، وقيل: شجر ملتف
 كالغيضة كانوا يعبدونها. فلما قال: ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ﴾ لم يذكر وصف الأخوة
 بينهم، للمعنى الذي نسبوا إليه، وإن كان أخاهم نسباً. ومن لم يفتن لهذه النكتة ظن أن أصحاب
 الأيكة غير أهل مدين، فزعم أن شعيباً (عليه السلام) بُعث إلى أمتين، ومنهم من قال إلى ثلاث

أمم. والصحيح أنهم أمة واحدة، وُصفوا في كل مقام بشيء. ولهذا وعظ هؤلاء وأمرهم بوفاء المكيال والميزان كما في قصة مدين سواء بسواء، فدل على أنهم أمة واحدة¹.

• ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ﴾: أي أصحاب الشجرة الكبيرة ذات الأغصان الملتفة، كذبوا المرسلين. ويبدو أنهم كانوا يعبدون هذه الشجرة الكبيرة، ولهذا نسبوا إليها². وقال السعدي -رحمه الله-: ﴿أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ﴾ أي: البساتين الملتفة الأشجار، وهم أصحاب مدين (678).

وقوم شعيب لم يكذبوا إلا شعبيًا، ولكنه ذكر أنهم كذبوا المرسلين؛ فالرسالة في أصلها واحدة، وهي دعوة إلى توحيد الله وإخلاص العبادة له، فمن كذب بها فقد كذب بالمرسلين أجمعين. فهذه دعوتهم جميعًا، والقرآن يؤكد هذا المعنى ويقرره في مواضع متعددة، لأنه كلية من كليات العقيدة الإسلامية، التي تختص بها الدعوات جميعًا، وتقسم بها البشرية كلها إلى صنفين: صف المؤمنين وصف الكافرين، على مدار الرسالات والقرون.

فينظر المسلم فإذا المؤمنون في كل دين، وكل عقيدة من عند الله، هم أمته منذ فجر التاريخ إلى مشرق الإسلام، دين التوحيد الأخير. وإذا الصف الآخر هم الكفار في كل ملة ودين. فإذا بالمؤمن يؤمن بالرسول جميعًا ويحترم الرسل جميعًا؛ لأنهم حملة رسالة واحدة هي رسالة التوحيد³. وأي أمة تكفر برسولها فكأنما كفرت بجميع الرسل.

¹ مقاصد القرآن الكريم ومحتوياته، ص 185

² تفسير القرآن العظيم، (6/ 168).

³ في ظلال القرآن، (5/ 2607).

إن لاستخدام كلمة ﴿كَذَّبَتْ﴾ هنا أهمية خاصة، وخصوصاً أنها وردت منذ البداية؛ فالتكذيب في المجال الروحي يعني عدم التصديق بما جاء في الرسائل السماوية. والتكذيب قد يكون مفتاحاً لصفات أخرى لأي قوم اتصفوا بعدم التصديق؛ فالإنسان الذي يكذب بالرسالات السماوية جبار في طبعه، قاسٍ في قلبه، مستكبر في تصرفاته، لأنه لا يمتلك صفة التعقل وميزة الحكمة التي تحجم الإنسان عادةً عن عمل السوء.

ويبدو أن انحراف القوم وتوجههم نحو الشر قد منعهم من رؤية الأمور في منظورها الصحيح، وغرس فيهم روح التحدي الذي بلغ ذروته لديهم¹.

ومن هذه الزاوية أتى شعيب (عليه السلام) برسالته السماوية لإصلاح ما أمكنه إصلاحه في تلك النفوس والعقول والقلوب التي انخرقت عن فطرتها وعن شرع الله عز وجل.

2- ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾:

الله تعالى: فتركوا ما يُسخطه ويُغضبه من الكفر والمعاصي².

• ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾: أي تخافون عاقبة ما أنتم فيه، وتستشعر قلوبكم خوف الله وخشيته.

وهذا التوجه إلى التقوى مُضطرد في هذه السورة، والاستفهام في ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ فيه عرضٌ مع حضٍ: ألا تتقون الله في توحيده وإفراده بالعبادة والطاعة والاستجابة لرسوله؟

¹ أحسن القصص، د. زاهية الدجاني، ص66.

² تفسير السعدي، ص792.

والتقوى هي الالتزام بشرع الله واجتناب نواهيه، وهي الترفع عن الدنيا وأغراضها، والسعي لنيل رضوان الله تعالى وتجنّب غضبه وعذابه¹.

وللتقوى فضائل وثمرات، منها:

- التقوى سبب لرحمة الله: قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: 156]. وقال عمر بن عبد العزيز - رحمه الله - لرجل: «أوصيك بتقوى الله الذي لا يقبل غيرها ولا يرحم إلا أهلها».
- هي وصية الله لكل أمة: قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ﴾ [النساء: 131]. وهي هدف عام بُعثت من أجله الرسل. عن أبي ذر قال: قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: «اتَّقِ اللَّهَ حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن»².
- الأتقياء أكرم الخلق عند الله: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: 13].
- المتقون هم أولياء الله: ﴿إِنَّ أَوْلِيَاءَهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ﴾ [الأنفال: 34]، وقال تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [التوبة: 62-63].
- التقوى حصن الخائف وأمان من المحاذير: ﴿فَمَنْ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الأعراف: 35]، وقال تعالى: ﴿وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الزمر: 61].

¹ أنبياء في القرآن تركوا آثاراً، ص 55.

² سنن الترمذي، رقم 1987، حسن صحيح.

- سبب العون والنصر والتأييد: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ [النحل: 128]، وقال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً ۚ وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: 36]. قال قتادة - رحمه الله -: من يتق الله يكن الله معه، ومن يكن الله معه فمعه الفئة التي لا تُغلب، والحارس الذي لا ينام، والهادي الذي لا يضل¹.
- سبب للرزق وتفريج الكروب وتيسير الأمور: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: 2-3]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾ [الطلاق: 4].
- سبب قبول العمل: ﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومَهَا وَلَا دِمَائُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنْكُمْ﴾ [الحج: 37]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: 27]. وهب أنك جاهدت وثابرت عمرك كله، أليس القبول شرطاً؟ وإلا كان هباءً منثوراً².
- الرخاء الاقتصادي معلق بالتقوى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف: 96].
- القرآن لا يهتدي به إلا المتقون: ﴿وَإِنَّهُ لَتَذِكْرٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [الحاقة: 48]، ﴿هُدًى بَيَّانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: 138]، ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: 2].
- التقوى تبعث في القلب نوراً يميز به الحق من الباطل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ [الأنفال: 29].
- السلامة من كيد الشيطان: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: 201].

¹ حلية الأولياء، أبي نعيم، (2/ 339).

² الخريطة الإيمانية، إعداد فريق من الباحثين، إعداد الدكتور مصطفى مخزوم، ص 285-291.

- النجاة من النار والفوز بالنعيم: ﴿ثُمَّ نُجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًا﴾
[مریم: 72]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَهَرَّ * فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾
[القمر: 54-55]¹.

ومن طرق اكتساب التقوى: معرفة حقيقتها، واستشعار نظر الله ومراقبته، ومحاسبة النفس، والتفكير في خلق الله وآياته، والاجتهاد في الطاعة، وقراءة القرآن وتدبر آيات الوعيد².

وأما علامات التحقق بالتقوى: شدة التعلق بالآخرة، واتباع الرسول صلى الله عليه وسلم والتسليم لأمره، وتعظيم شعائر الله، وكظم الغيظ والعفو عند الإساءة، وسرعة التوبة، وقيام الليل، والاستغفار بالأسحار، والإنفاق في سبيل الله، وتحري العدل حتى مع الأعداء، وترك بعض الحلال خشية الوقوع في الحرام. وإن آفات ترك التقوى: التهاون بالصغائر، والانشغال بالمفضول عن الفاضل، والتعرض لغضب الله وعقابه³.

ومن أفضل نماذج أهل التقوى: الأنبياء والمرسلون، ومن سار على نهجهم من الصالحين والمصلحين؛ كالصحابية الكرام: أبي بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وأبي عبيدة، وسعد بن أبي وقاص، وطلحة بن عبيد الله، ومعاذ بن جبل، وسعد بن معاذ، وغيرهم - رضي الله عنهم أجمعين -.

¹ الخريطة الإيمانية، المصدر السابق، ص 292.

² الخريطة الإيمانية، المصدر السابق، ص 295-297.

³ الخريطة الإيمانية، المصدر السابق، ص 297-302.

3- ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾:

لا يخون، ولا يخدع، ولا يغش، ولا يزيد شيئاً أو ينقص مما كُلف تبليغه¹. أي: إني لكم رسولٌ مبعوثٌ من عند الله، وأمينٌ على رسالة ربي، أبلغها لكم كما أتلقاها في الوحي عنه؛ لا أزيد فيها ولا أنقص منها. ويترتب على كونه رسولَ الله مبلغاً عن ربه أنكم مأمورون بطاعته.

4- ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾:

اتقوا عذاب الله، وأطيعوني فيما أَدْعُوكُمْ إليه؛ فإن لم تطيعوني، وأنا رسولٌ مبلِّغٌ عن الله، كنتم مستحقين لعقابه وعذابه. فليست القضية قضيتين، وإنما هي قضية الله ربِّي وربكم².

5- ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ، إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾:

أ. ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾: لما كان يتبادر إلى أذهان الأقوام المدعُوين إلى مبدأ أو فكرة أو علم أو جماعة اتهامُ الداعي بأن له مصلحةً شخصيةً، كان من الحكمة أن يعلن شعيب (عليه السلام) تجرّده من أي مصلحة؛ فدلّ قوله ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ على البراءة حتى من أدنى المطالب المالية³.

ب. ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾: ليس المعنى أنه لا يطلب أجراً مطلقاً (على سبيل المثالية البشرية)، بل أجري مضمون عند ربِّ العالمين؛ تكفل الله به للدعاة إلى دينه، فأجري على كفالة

¹ في ظلال القرآن، (5/ 2607).

² نبي الله هود عليه السلام، الصلابي، ص 264.

³ نوح عليه السلام وقومه في القرآن المجيد، الميداني، ص 64.

ربّ العالمين وحده، أثق أنه يمنحنيهِ. وبما أنّ أجري على رب العالمين، ولا أسألكم منه شيئاً قليلاً ولا كثيراً، فأعيد عليكم مقالي ملتصقاً بكامل التجرد من أي مصلحةٍ لِنفسي منكم.

ثانياً: قوله تعالى: ﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ * وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ * وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ * وَلَا تَعَثُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [الشعراء].

تفسير الآيات:

1- ﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ﴾:

• ﴿أَوْفُوا﴾: أمرٌ بالإيفاء؛ أي اجعلوا الشيءَ وافيّاً تامّاً، لا نقص فيه. و«المُخْسِر» فاعل الخسارة لغيره؛ أي المنقُص. فمعنى ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ﴾: لا تكونوا من المطففين¹.

قال الشعراوي -رحمه الله-: الكيل آلة تُقَدَّرُ بها المكيّلات (كالكيّلة، والقَدَح، والأزْدَب)، والميزان آلة تُقَدَّرُ بها الموزونات. ومعنى ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ﴾: المخسر هو الذي يتسبب في خسارة الطرف الآخر في مسألة الكيل؛ يأخذ بالزيادة ويُعطي بالنقصان².

2- ﴿وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ﴾:

أي: زنوا بالميزان السويّ العدل³. والقِسْطَاس المطلق بقدر طاقة البشر، وإحكام دقة الوزن مع مراعاة اختلاف الموزونات؛ فوزن الذهب غير وزن التفاح أو العدس... فعليك تحري الدقة ما استطعت لتحقيق هذا «القسطاس المستقيم».

¹ التحرير والتنوير، (8 / 406).

² تفسير الشعراوي، (17 / 10666).

³ التفسير الموضوعي، (6 / 184).

3- ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾:

نهى نبي الله شعيب (عليه السلام) عن بخرس الناس أشياءهم: من مكيلاتٍ وموزوناتٍ ومعدوداتٍ وسائر الحقوق. ويشمل البخرس الحيل والغش الذي يُنقص الحقوق، كما يشمل بخرس الحقوق المعنوية كالعلوم والفضائل. وكثيرٌ من ذلك فاشٍ في هذا الزمان؛ فكثير من التجار -إلا من رحم- مُطْفَفون مُحْسَرون، وكثير من أهل العلم والسياسة يبخرسون حقوق صنفهم، ويمكرون بغيرهم حسدًا وبغياً وغرورًا.

وأشدُّ صُور البخرس ما يراه الناس من رجال السياسة ودعاة الاستعمار؛ يشيعون ذكر مَنْ نبغ فيهم، ويقيمون له التماثيل، أمّا إذا نبغت العقول في البلاد التي احتلوها تجاهلوها أو شوّشوا عليها، وأبعدوها عن مواطن مواهبها، ليزيل عطاؤها وتخسر الأمة ثمراتها. وربما اشتروا ذلك النبوغ بالمناصب الكبيرة ليصرفوه عن خدمة أمتهم، فينطفئ الواجب تحت بريق السلطان والنفوذ¹. وقد سبق الحديث عن هذه الآية في «الأعراف»، ونعود هنا تأكيدًا.

4- ﴿وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾:

أي: لا تُكثروا في الأرض الفساد².

قال المكي الناصري -رحمه الله-: نهى عن الفساد في الأرض نهياً عاماً، يدخل فيه الإخلال بالأمن العام، وقطع الطريق، والاعتداء على الممتلكات والأرواح ذات الحرمة. فقوله هنا يحكي عن شعيب (عليه السلام): ﴿وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾، يلتقي مع قوله تعالى في المائدة: ﴿إِنَّمَا

¹ دعوة الرسل، العدوي، ص 155-156.

² تفسير الطبري، (14/180).

جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا... ﴿ [المائدة: 33] ¹. وإن «العنوة» أشدّ الفساد؛ والمعنى: لا تُكثروا الفساد بالعدوان على الضروريات، والأمور التي تقوم بها حياة الأمم والمجتمعات ². وتابع (عليه السلام) دعوته الإصلاحية لقومه ومجتمعه، والتأكيد على تقوى الله وعبادته وحده؛ فهي أساس كل صلاح ³.

ثالثاً: قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأُولِينَ * قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ * وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَطُتْكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ * فَاسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الشعراء: 184-187].

تفسير الآيات:

1- ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأُولِينَ﴾:

فمعنى ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾: احذروا جبروته؛ لأنه خلقكم، وضمن لكم الأرزاق، وضمن لكم قضاء الحاجات؛ حتى العاجز عن الحركة سخر له القادر، وجعل للغني شرطاً في إيمانه أن يُعطي جزءاً من سعيه للفقير ويوصله إليه وهو مطمئن ⁴.

ومعنى «الجبلَّة»: من «الجبل»، وكان له دور في حياة العربي، وعليه تدور كثير من تعابيرهم؛ ففيه صفات الفخامة والعظمة والرسوخ والثبات، فاشتقوا منه «الجبلَّة» وتعني الملازمة والثبات على شيء. ومن ذلك نقول: فلان «مجبول» على الخير، أي ملازمٌ له لا يفارقه، وفلان كالجبل لا

¹ التيسير، (4 / 398).

² المختصر في تفسير القرآن الكريم، عدنان زرزور، ص 374.

³ التفسير الموضوعي، (6 / 184).

⁴ تفسير الشعراوي، (17 / 10676).

تُرحزه الأحداث. ويقال: فلان «جِبَلَّة» أي ثقيل على النفس. وقد مدح الشعراء ممدوحهم بالثبات كالجبال. قال الشاعر في ممدوحه وقد حُمِلَ على نعشه:

ما كنتُ أحسبُ قبل نعشك أن أرى رَضْوَى¹ على أيدي الرجال يسيرُ

جبلٌ مشهور بين العرب بضخامته².

ومعنى ﴿الْجِبَلَّةُ الْأَوَّلِينَ﴾: الناس السابقون الذين جُبلوا على العناد وتكذيب الرسل؛ فالله خلقكم وخلقهم، وقد رأيتم ما فعل الله بهم لما كذبوا رسله؛ كتب الله النصرَ لرسله والهزيمةَ لمن كذَّبهم، فهؤلاء الذين سبقوكم من الأمم، فينزل بكم ما نزل بهم³.

• ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبَلَّةَ الْأَوَّلِينَ﴾: أي اتقوا الله الذي خلقكم وخلق الأمم السابقة، وسُموا «جِبَلَّة» لأنهم جُبلوا وحُلِقوا على الخصائص والطباع التي خصَّهم بها الخالق جل وعلا. يقال: «جِبِل فلانٌ على كذا» أي حُلِق. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبَلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾ [يس: 60]⁴.

¹ رضوى: جبل بالمدينة، لسان العرب.

² تفسير الشعراوي، (17 / 10677).

³ تفسير الشعراوي، المصدر السابق، (17 / 10677).

⁴ التفسير الموضوعي، (6 / 185).

وقال السعدي - رحمه الله -: أي الخليفة الأولين؛ فكما انفرد بخلقكم وخلق من قبلكم من غير مشاركة له في ذلك، فأفردوه بالعبادة والتوحيد، وكما أنعم عليكم بالإيجاد والإمداد بالنعم فاقبلوه بشكره¹.

ولكن القوم عاندوا الحق ولم يدعنا لدعوة الإصلاح، وردّوا على نبيهم بوقاحةٍ واستهتار²، فقالوا:

2- ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾:

أي: المخدوعين الذين سُحروا حتى أصيبوا بخللٍ واضطرابٍ في عقولهم³، فأنت تهذي بكلام المسحور الذي غايته أن لا يُؤخذ به⁴. و«مُسَحَّرٌ» أي سحره غيره؛ وهي صيغة مبالغة للدلالة على تكرّر وقوع السحر عليه⁵.

3- ﴿وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ﴾:

أي: ليس فيك فضيلةٌ اختصت بها علينا حتى تدعونا إلى اتباعك. وهذه شبهةٌ من قبلهم ومن بعدهم ممن عارضوا الرسل، وقد اتفقوا عليها لاشتراك قلوبهم في الكفر؛ فأجابهم الرسل: ﴿إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾.

• ﴿وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ﴾: جرأةٌ وظلمٌ وزور، وقد انطوا على خلافه؛ فما من رسول واجه قومه ودعاهم إلا وأظهر الله على يديه من الآيات ما به يتيقنون صدقه وأمانته،

¹ تفسير السعدي، ص 792.

² التفسير الموضوعي، (6 / 185).

³ التفسير الموضوعي، المصدر السابق، (6 / 185).

⁴ تفسير السعدي، ص 792.

⁵ تفسير الشعراوي، (17 / 10677).

خصوصاً شعيياً (عليه السلام) خطيب الأنبياء لحسن مراجعته قومه وجداله بالتي هي أحسن؛ فقد تيئن قومه صدقه وأن ما جاء به حق، لكن إخبارهم عن «ظن كذبه» كذب منهم¹.

قال العدوي -رحمه الله-: العجب لأولئك القوم؛ يعرفون أن شعيياً لم يكذبهم في أمور الدنيا، ثم يزعمون أنه يكذب على ربه في أمور الدين! فإذا كان لا يستحل الكذب على الناس، فكيف يستحل الكذب على الله تعالى؟ ثم كيف يلفتهم إلى أنه لم يسألهم أجراً على تبليغهم، وإنما يطلب الأجر من الله تعالى؟ وذلك شأن الصادق الذي يعمل عن اقتناع ويدعو وهو مؤمن بما يدعو إليه؛ وهذه أمانة الصدق ودليل الثقة بصاحب الدعوة. ومع ذلك يقولون: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾! وهل «المسحَّر» يدعو الناس على ذلك الأساس، ويرشدهم بذلك الأسلوب؟ وإذا كان شعيياً يدعوهم إلى أن يُعطى كل ذي حق حقه، فلا يُطَقَّف كيل ولا يُخَسَّر ميزان ولا يُيخَس أحد شيئاً من حقه؛ فإذا كانت هذه الدعوة دعوة «مسحَّر»، فكيف تكون دعوة العقلاء؟ وإذا كان ذلك الأسلوب أسلوب كاذب، فكيف يكون أسلوب الصادق المصدوق؟ ولماذا كانوا يقعدون بكل طريق يوعدون فيه ويصدون عنه؟ ولماذا توعدوه بالنفي هو والمؤمنون إن لم يعدوا إلى ملتهم؟ ما قيمة رجلٍ -على زعمهم- «مغلوبٍ على عقله» حتى يُتوَعَد بالنفي إن لم يرجع إلى ملتهم؟ أليس للناس عقولٌ تُعرف بها الدعوة المبنية على العقل والحزم، وتفرق بينها وبين دعوة من يزعمون جنونه أو كذبه؟ فإن كان مجنوناً فقضية جنونه تقضي عليه، وإن كان كاذباً فالكذب يفضحه يوماً ما².

¹ تفسير السعدي، ص 793.

² دعوة الرسل، ص 173-174.

لقد تمادوا في عنادهم، فسألوه متحدّين أن يُنزل عليهم العذاب¹، فقالوا:

4- ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾:

أي: قطعًا من العذاب تستأصلنا². فعنادهم عنادٌ جحودٍ واستكبار، وعلاجهما بالعُباء، وهو كعناد مشركي مكة حين قالوا: ﴿اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: 32]. وقابل (عليه السلام) عنادهم واستكبارهم باللجوء إلى الله تعالى ليقضي أمره فيهم³.

رابعًا: قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّيَ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ * فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُم عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾:

1- ﴿قَالَ رَبِّيَ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾:

أي: نزول العذاب ووقوع آيات الاقتراح ليس من شأنِي، ولا أستطيع إنزالها بكم، إنما وظيفتي التبليغ والنصح، وقد أدبته، أما من ينزل العذاب فهو ربي، العالم بأعمالكم، الذي يُجازي ويُحاسب⁴.

2- ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾:

¹ التفسير الموضوعي، (6/ 185).

² تفسير السعدي، ص 793.

³ التفسير الموضوعي، (6/ 185).

⁴ تفسير السعدي، ص 793.

أي: استمروا في التكذيب، وصار الكفر وصفًا لهم لا يُفارقهم، فلا تنفعهم الآيات، وليس لهم حيلة إلا العذاب¹.

3- ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾:

أظلتهم سحابة، فاجتمعوا تحتها مستبشرين بظلمها غير الظليل، ففوجئوا بالعذاب يجرقهم، فظلوا تحتها خامدين، وتركوا ديارهم إلى دار العذاب². ووصف العذاب بالعظيم لأنه أتى بعد استبشار بالراحة، ففوجئوا به، فكان ذلك أشد عليهم مما لو أتاهاهم بغتة، وهذا يُسمى "يأس بعد أطماع"، وهو أشد أنواع العذاب³. قال ابن كثير - رحمه الله -: إن الله تعالى وصف هلاكهم في ثلاث مواضع، كل موضع بما يناسب السياق:

- ففي الأعراف: ﴿فَأَخَذَهُمُ الرَّجْفَةُ﴾ [الأعراف: 91]، لأنهم قالوا: ﴿لِنُخْرِجَنَّكَ يَشْعَبُيْتُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا﴾ [الأعراف: 88].
- وفي هود: ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ﴾ [هود: 94]، لأنهم استهزؤوا بنبي الله فقالوا: ﴿أَصَلَوَاتِكَ تَأْمُرُك...﴾ [هود: 87].
- وفي الشعراء: لما قالوا ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا﴾، أتاهاهم العذاب كما استبعدوا، ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ﴾⁴.

فإن قيل: الهلاك ذكر مرة بالرجفة، وأخرى بالصيحة، وهنا بعذاب الظلة، فالجواب: أن ذلك كله اجتمع عليهم، كما قال ابن كثير - رحمه الله -، أظلتهم سحابة فيها لهب وشرر، ثم جاءت صيحة

¹ تفسير السعدي، المصدر السابق، ص793.

² تفسير السعدي، ص793.

³ تفسير الشعراوي، (17/ 10680).

⁴ تفسير القرآن العظيم، (6/ 170).

من السماء، ورجفة من الأرض، فزهقت الأرواح، وخمدت الأجساد¹. ومع كل هذه القصص والعبر، لا يزال أكثر الناس مصريين على عنادهم واستكبارهم².

خامسًا: قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾﴾ [الشعراء: 190-191]:

نزل بقوم شعيب العذاب الذي توعددهم به نبيهم، ولم يفلتوا منه. واللام في ﴿لآيَةً﴾ للعهد، تشير إلى قوله: ﴿فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ يَوْمَ عَظِيمٍ﴾، فتنفيذ صدق شعيب³، وردًا على قولهم: ﴿فَأْتِنَا بِآيَةٍ﴾.

1- ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾:

المعنى: في هلاك قوم شعيب عبرة للمعتبرين، وإنذار لمن يكذبك يا محمد ﷺ. وقد أكدت الجملة بـ"إن" واللام للدلالة على أهمية الخبر، و"اسم الإشارة" في ﴿ذَلِكَ﴾ يفيد عظم الشأن، وتنكير "آية" يفيد التعظيم⁴. أما قوله ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾، فالجملة الاسمية تدل على الثبات والاستمرار في الكفر، ولن يؤمن أكثرهم في علم الله⁵.

2- ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾:

¹ تفسير القرآن العظيم، (6/ 445).

² التفسير الموضوعي، (6/ 186).

³ النظم القرآني في قصة صالح عليه السلام، سعيد عبد الرحمن، ص 184.

⁴ النظم القرآني في قصة صالح عليه السلام، المصدر السابق، ص 185.

⁵ تفسير الطبري، (19/ 104).

أي: إن ربك يا محمد ﷺ هو المنتقم من أعدائه، الرحيم بأوليائه¹. وقد أكد الوصف بعدة مؤكدات: (إن)، واللام، وضمير الفصل (هو)، وتعريف المسند باللام. وإضافة "الرب" إلى ضمير الرسول ﷺ فيها تكريم وتشريف، وتعبير عن الرعاية والعناية الخاصة².

واختيار الاسمين الكريمين "العزیز" و"الرحيم" مناسب لسياق القهر والرحمة، ف"العزیز" يشير إلى غلبته على أعدائه، و"الرحيم" إلى رحمته بالمؤمنين³. وقد قُدِّم اسم "العزیز" على "الرحيم" لأن السياق في مقام الانتقام، وهو أنسب للتقديم. وذكر الزركشي وجهاً آخر: حيث نُفي الإيمان عن الأكثر، فدلّت الآية على أن الأقل قد آمن، فكانت العزة على الكافرين، والرحمة للمؤمنين، وهو تناسب بين الفريقين⁴. وهكذا حُتِمت قصة شعيب (عليه السلام) في سورة الشعراء باسمين كريمين: "العزیز الرحيم"، لتأمل فيهما:

- ﴿العزیز﴾: الذي له العزة الكاملة، لا يُنال ولا يُعَالَب، دانت له الخليفة.
- ﴿الرحيم﴾: صيغة مبالغة من الرحمة، تدل على الرأفة والتعاطف، وهو مقرون غالباً بـ"الرحمن" في أسماء الله الحسنى، للدلالة على عمق الرحمة وسعتها⁵.

¹ نبي الله صالح عليه السلام، الصلبي، ص154.

² نبي الله صالح عليه السلام، ص154.

³ البحر المحيط، (6/178).

⁴ البرهان في علوم القرآن، الزركشي، ص634.

⁵ والله الأسماء الحسنى، ص120

فختام القصة بهذين الاسمين يُلخّص مسارها: عذاب وهلاك للمكذّبين بعزته، ونجاة ورحمة للمؤمنين برحمته. فرحمته ناشئة عن عزّة وقوة، لا عن ضعف، واجتماع الوصفين دليل على أن عزة الله تمضي على سنن الرحمة¹.

سادساً: ذِكْرُ قِصَّةِ شُعَيْبٍ (عَلَيْهِ السَّلَام) فِي سُورَتَيِ الْحِجْرِ وَالْعَنْكَبُوتِ:

1- قصة شعيب (عليه السلام) في سورة الحجر:

قال تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَانتقمنا منهم ۖ وإيها لبيامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾﴾ [الحجر: 78-79].

جاءت قصة شعيب (عليه السلام) بعد قوم لوط (عليه السلام) التي انتهت بالهلاك، وأعقبها السياق بتعقيبات ثلاث في ثلاث آيات: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّا لَنَسِيبُ لِمُقيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الحجر: 75-77]

ثم ابتداء السياق في الآية التالية بقصة شعيب (عليه السلام) مع أصحاب الأيكة، فعطف قصة على قصة، وسلوك قوم على سلوك قوم، يجمعهم جميعاً الخروج عن أمر الله، وتكذيب الرسل، والعقاب في النهاية، مع كونهم من بيئة واحدة.

أ. ﴿وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ﴾: الواو للعطف على القصة السابقة، و"إن" مخففة من الثقيلة، بدلالة اللام في خبرها. و"كان" دخلت بعد "إن"، وهو غير معتاد إلا بعد ضمير اسم "إن" أو صريحه.

¹ والله الأسماء الحسنی، ص 120.

ب. ﴿أصحاب الأيكة﴾: "الأيكة" تعني العيضة أو البستان أو الجنة أو الحديقة.

فهل هم مدين؟ أم قوم أرسل إليهم شعيب بعد مدين؟ رجح ابن كثير - رحمه الله - أنهم قوم شعيب، ولكن الدكتور أحمد نوفل يرى أنهم قوم آخرون، أرسل إليهم شعيب بعد إهلاك مدين، واستدل بأن القصة في سورة الشعراء خلت من وصف ﴿قال لهم أخوهم﴾، واكتفي بقول: ﴿إذ قال لهم شعيب﴾، بخلاف الأقوام الأخرى التي ذكر فيهم هذا الوصف. ويظل هذا احتمالاً لا نقطع به¹.

ج. ﴿ظالمين﴾: اللام واقعة في خبر "إن" المخففة، و"ظالمين" خبر "كان" منصوب.

الظلم هو الخروج عن الحق، وأشد صورته هو الشرك بالله: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾، وقول الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ...﴾ يتكرر كثيراً، إذ أشد أنواع الظلم ظلم الإنسان لنفسه، كما قال تعالى: ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

قال السعدي - رحمه الله - إن هؤلاء هم قوم شعيب، وقد نعتهم الله وأضافهم إلى الأيكة، أي إلى البستان كثير الأشجار، ليذكرهم بنعمه عليهم، وأنهم لم يقوموا بها، بل كفروا بها. فجاءهم نبيهم شعيب (عليه السلام) فدعاهم إلى التوحيد وترك الظلم في المكيال والميزان، فعالجهم على ذلك أشد المعالجة، فاستمروا في ظلمهم لله والناس، ولهذا وصفهم الله بالظلم هنا². وتدل الآية على أن الظلم متجذر في الأقوام، ومن أعظمه ظلم الإنسان نفسه، وأشدّه أن يُشرك بالله³.

د. ﴿فَأَنْتَقِمْنَا مِنْهُمْ﴾: السياق لخص قصة أصحاب الأيكة في آيتين فقط: السابقة واللاحقة.

¹ تفسير سورة الحجر، أحمد نوفل، ص 365.

² تفسير السعدي، ص 558.

³ تفسير سورة الحجر، ص 366.

في السابقة الجريمة، وفي هذه العقوبة، ثم عطفها على قوم لوط في الختام بقوله: ﴿وَإِتَّهَمَا لِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾.

ف"فانتقمنا منهم" لم يُبيّن هنا ما هو الانتقام وصورته وتفصيله، لأنه محال على مواضع أخرى، مثل الأعراف وهود والشعراء. والانتقام هو الإهلاك، وليس مجرد العقوبة، بدلالة قوله ﴿وَإِتَّهَمَا لِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾، أي: في طريق ظاهرٍ يمرّ به الناس فيرون آثاره.

الإمام هنا قد يُراد به "الكتاب"، كما في ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [يس: 12]، أو "الطريق"، وكلا المعنيين محتمل، والسياق هو المحدّد.

قال السعدي - رحمه الله - : الإمام المبين هو الطريق الظاهر الذي يمرّ به الناس، فيُصرون الآثار فيعتبرون بها أولوا الألباب¹. وقال ابن عاشور - رحمه الله - : الانتقام مشتق من النَّقْم، وهو الإنكار على الفعل. ويُقال "نَقَم عليه" كما في هذه الآية، والانتقام يكون من الله عزيزٍ ذو انتقام، بعد طول إمهال، وهو عدل وحق².

2- قصة شعيب (عليه السلام) في سورة العنكبوت:

قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثْمِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [العنكبوت: 36-37]:

الآية تُبيّن أن الله أرسل إلى قبيلة مدين أخاهم في النسب، نبهم شعيبًا (عليه السلام)، فخاطبهم قائلاً: يا أهلي، وحيّدوا الله وأطيعوه، وانتظروا بعبادتكم له جزاء الآخرة، ولا تفسدوا في الأرض

¹ تفسير سورة الحجر، ص 269-270.

² تفسير سورة الحجر، المصدر السابق، ص 270.

بالعدوان والبغي¹. فكذبوا نبيهم فيما جاءهم به من الله، فأخذتهم زلزلة عنيفة، فأصبحوا في ديارهم ميّتين، جاثمين على ركبهم².

وقد دعاهم شعيب في هذه السورة إلى عبادة الله وحده، وإلى الإيمان باليوم الآخر، وهو الإيمان بأن الله يُعيد الناس بعد الموت، ليُحاسبوا على أعمالهم. فحثهم على أن "يرجوا" اليوم الآخر، أي يتطلّعوا إلى ثوابه، مما يدل على أنه بين لهم تفاصيله، لأن الإيمان بالآخرة يعطي الإنسان أملاً في العدالة الإلهية، ويجعله لا ينساق وراء الدنيا، بل يتوجّه إلى الله³. وقد جاءت القصة هنا موجزة جدًّا، وهي آخر ذكرٍ لقصة شعيب (عليه السلام) في السور، وقد انسجمت مع السياق الكلي لسورة العنكبوت التي ركزت على ثبات المؤمنين، وابتلاءات الرسل⁴.

سابعًا: ذِكرُ قومِ شُعيبٍ مع الأُمَمِ الهالِكَةِ:

تردّدت الإشارة إلى قوم شعيب (عليه السلام) ضمن قائمة الأمم الهالكة في أربع سورٍ من كتاب الله العزيز، وجاء هذا الذكر في سياق التذكير بمصارع الغابرين وتحذير من سار على طريقهم. وفيما يلي بيان هذه المواضع:

1- سورة التوبة:

¹ حكمة تشابه قصص الأنبياء في القرآن الكريم، د. الصديق علي أوهيبة، ص 297.

² حكمة تشابه قصص الأنبياء في القرآن الكريم، المصدر السابق، 297.

³ الارتباط الزمني والعقائدي بين الأنبياء والرسل، ص 194.

⁴ قصص القرآن الكريم، د. فضل حسن عباس، ص 11.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمُ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [التوبة: 70].

وقد جاءت هذه الآية في سياق تذكير المنافقين والكافرين بمصير الأمم السابقة الذين كذبوا رسلهم رغم وضوح البيّنات، وقد ذُكر فيها أصحاب مدين مع قوم نوح وعاد وثمود وقوم إبراهيم والمؤتفكات، للدلالة على وحدة المسار في التكذيب ووحدة المصير في الهلاك.

2- سورة الحج:

قال تعالى: ﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودٌ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكَذَّبَ مُوسَى فَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾﴾ [الحج: 42-44].

هنا يُسَلِّي الله نبيه محمداً ﷺ، بأن التكذيب ليس بجديد، بل هو سنة الجاحدين في كل زمان، وقد كُذِّب الرسل من قبل، ومنهم شعيب (عليه السلام) حيث ذُكر قومه "أصحاب مدين" مع بقية الأقسام. والآية تختم بلفتة عظيمة: ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾، أي إنكار الله عليهم بعذابه الشديد بعد الإمهال.

3- سورة ص:

قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمِ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِنَّ كُلَّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾﴾ [ص: 12-14].

وقد ذُكر قوم شعيب (عليه السلام) في هذه الآية تحت تسمية "أصحاب الأيكة"، كما سبق بيانه، وذكروا ضمن مجموعة الأحزاب الذين كذبوا رسلهم، فاستحقوا العقاب.

4- سورة ق:

قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودٌ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمِ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾﴾ [ق: 12-14].

وفي هذه الآية أيضًا، ورد ذكر "أصحاب الأيكة"، في سياق موحد مع بقية الأقوام المكذبين، للدلالة على عموم سنة الله فيهم، وأن التكذيب سبب مشترك في نزول العذاب.

وقد لاحظ المفسرون أن ذكر قوم شعيب (عليه السلام) في هذه المواضع جاء في معرض التذكير بمجموع الأقوام الهالكة المكذبة للرسول، وذلك بقصد إعلام النبي ﷺ والمؤمنين، وتسليةهم وتثبيتهم في وجه الاستهزاء والتكذيب الذي يواجهونه، بأن هذا شأن الأمم السابقة التي كذبت رسلها، فحقت عليها كلمة الله بالعذاب والهلاك¹.

¹ العقوبات الإلهية في القرآن الكريم، د. عبد الهادي الشهراني، ص 487.

المبحث الخامس: أسباب هلاك قوم شعيب (عليه السلام)

دعا شعيب (عليه السلام) قومه إلى توحيد الله وإفراده بالعبادة، بعد أن بلغوا شأواً في التمدنّ المادي، ووقعوا في الغفلة والانحراف الروحي، ففسد تعاملهم مع الناس، وغشّوا في الكيل والميزان، وقطعوا الطرق، وصرفوا الناس عن سبيل الله. فأرسل الله إليهم شعيباً (عليه السلام) بالحجة والبيان، لكنهم أصروا على الظلم والتكذيب، فاستحقت مدين سنة الله في الاستئصال. ومن أبرز أسباب الهلاك:

أولاً: الكفر بالله عز وجل:

يُعد الكفر بالله من أعظم أسباب هلاك الأمم، وهو الأصل في انحلالهم الديني والأخلاقي. فالكفر — في اللغة — بمعنى الستر والتغطية، ويُطلق على من يُخفي الإيمان الذي يجب عليه أن يُظهره.

وقد كفر قوم شعيب (عليه السلام) بالله وبرسالته، ورفضوا دعوته للتوحيد، بل وصفهم الله بالكفر صراحة، كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف: 90]. وإن هذا يدل على أنهم انحرفوا عن شرع الله، وجعلهم ذلك يتصفون بالظلم والاستكبار، فاستحقوا الصيحة والرجفة، ونزل بهم عذاب لا يُرد عن القوم الكافرين.

ثانياً: الشرك بالله:

من أعظم أسباب هلاك الأمم أيضاً: الشرك بالله عز وجل، وهو الذي جرّ على أمم كثيرة الهلاك في الدنيا قبل الآخرة. وقد كان قوم شعيب (عليه السلام) مشركين، يعبدون الأصنام، ويتمسكون بعقائد آبائهم الباطلة. وقد جاء في القرآن قولهم: ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ [هود: 87].

وهذا الردّ فيه سخرية واضحة من دعوة شعيب (عليه السلام)، واستهزاء بصلاته التي كانت تنهى عن المنكر والشرك. قال تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [العنكبوت: 45].

وقد علّق الحسن البصري - رحمه الله - على هذه الآية بقوله: "أي والله، إن صلاته لتأمرهم أن يتركوا ما كان يعبد آباؤهم"¹.

ورغم أن القرآن لم يُسمِّ الأَصْنَامَ التي كانوا يعبدونها، فقد أشار بعض المفسرين إلى أنهم عبدوا "الأئكة"، وهي شجر كثيف ملتف، وقد جاء ذكرهم باسم أصحاب الأئكة في أكثر من موضع من القرآن الكريم، وقد سبق بيان أن أصحاب الأئكة ومدين أمة واحدة²، والله أعلم.

ثالثاً: التَّكْذِيبُ:

أخبر الله سبحانه وتعالى عن هلاك المَكْذِبِينَ من الأمم السابقة في آيات كثيرة، وقد دلّت بعض تلك الآيات على مطلق التكذيب الذي كان سبباً لهلاكهم، كقوله تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ [آل عمران: 137]. وكقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ [الملك: 18].

ففي هذه الآيات ونظائرها، أُجْمِعَ التكذيب، فلم يُذكر ما تعلّق به تكذبيهم، غير أن آيات أخرى كثيرة وضّحت ما أُجْمِعَ في هذه الآيات، وفصّلت ما أُجْمِلَ، وبتتبع تلك الآيات يتبيّن أن تكذيب الهالكين دُكِرَ مقترناً إمّا بالرسول، أو بالآيات، أو بالبعث والنشور³.

¹ تفسير ابن كثير، (2/ 472).

² أسباب هلاك الأمم السالفة، ص 139.

³ أسباب هلاك الأمم السالفة، المصدر السابق، ص 189.

رَكَرَّ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ فِي حَدِيثِهِ عَنِ قِصَصِ الْأُمَّمِ الْهَالِكَةِ عَلَى هَذَا الْجَانِبِ مِنَ الصَّرَاحِ بَيْنَ أَهْلِ الْحَقِّ وَأَهْلِ الْبَاطِلِ، وَقَدْ وَرَدَتْ آيَاتٌ كَثِيرَةٌ تَدَلُّ عَلَى أَنَّ تَكْذِيبَ الرُّسُلِ كَانَ سَبَبًا فِي هَلَاكِ الْأُمَّمِ السَّابِقَةِ، وَهَذِهِ الْآيَاتُ وَاضِحَةٌ الدَّلَالَةِ وَصَرِيحَةٌ فِي الْعِلَاقَةِ بَيْنَ تَكْذِيبِ الرُّسُلِ وَبَيْنَ مَا حَاقَ بِهِمْ مِنَ الْهَلَاكِ وَالْدِمَارِ¹.

فَهُنَاكَ آيَاتٌ وَرَدَتْ فِيهَا تَسْمِيَةُ أُمَّمٍ بِأَعْيَانِهَا، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ (١٢) وَثَمُودٌ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ (١٣)﴾ إِنَّ كُلَّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابٌ (١٤) ﴿ [ص: 14-12].

وهذه الآيات ونظائرها واردة في سياق تسليية النبي ﷺ عما يلاقيه من قومه من التأكيد والإعراض؛ فالله سبحانه وتعالى يقصّ على نبيه قصص المكذبين من الأمم السالفة، وما واجهوا به رسلهم من التأكيد، وما صار إليه أمرهم من الهلاك، وفي ذلك تخفيفٌ عليه ﷺ عما يجد في نفسه من الألم والأسى بسبب تكذيب هؤلاء الكفرة. فليس بدعًا من الرسل أن يُكذَّب، فقد كُذِّبَ قبله رسلٌ، وفيه إنذارٌ وتحذيرٌ للمكذبين من قومه من أن يكون مصيرهم كمصير أسلافهم الذين كذبوا رسلهم فأخذهم الله بعاجل العذاب²، فقد جعل الله هلاكهم هو تكذيبهم بالرسل³.

وقد تقدّم الكلام على أنّ مدين وأصحاب الأيكة أمة واحدة، وهم قوم شعيب، والقرآن الكريم يذكرهم تارةً بهذا وتارةً بذاك. وقد وردت عدّة آيات في القرآن فيها ذكر تكذيبهم نبيهم شعيبًا، مع بيان ما انتهى إليه أمرهم من الهلاك والبوار. قال تعالى: ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ﴾

¹ أسباب هلاك الأمم السالفة، المصدر السابق، ص 190.

² أسباب هلاك الأمم السالفة، ص 192.

³ أسباب هلاك الأمم السالفة، المصدر السابق، ص 192.

[الشعراء: 176]، وحثمت القصة في هذا الموضوع أيضاً بذكر تكذيبهم، قال تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ﴾ [الشعراء: 189].

وقال تعالى: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْنُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [العنكبوت: 36-37].

وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَعْنُوا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ ﴿٩٢﴾﴾ [الأعراف: 92].

وقد حفلت الآيات الواردة في قصة شعيب مع قومه بنماذج رائعة من الوعظ والنصح والإرشاد، لكنها قوبلت بالإعراض والعناد من قبل المكذبين. فشعيب (عليه السلام) استهلّ دعوته - كسائر الرسل - بالدعوة إلى توحيد الله جلّ وعلا وترك عبادة الأصنام، ثم تناول ما شاع في قومه من الأخلاق الرذيلة، كنقص الميزان والمكيال، وظلم الناس.

وقد استخدم شعيب (عليه السلام) في دعوته الترغيب والترهيب، فتلطّف معهم وأحسن مراجعتهم، ثم توعدهم وحذّره من مصير من قبلهم. فكان أن قابلوا أساليبه في الدعوة بأساليب من التكذيب والإعراض، ولم يكتفِ هؤلاء المكذبون بذلك، بل أخذوا على عاتقهم صدّ الناس عن الإيمان بشعيب؛ فكانوا يرصدون الطرق إليه، ويتوعّدون من يأتيه مريداً الإيمان به. وكانت هذه الفعلة من جملة ما نهاهم شعيب عنه.

ومع هذا الصدّ عن دين الله، استجاب لشعيب رهطٌ من قومه، فأمنوا به وانضمّوا إليه تحت لوائه، ولكن قوم شعيب لم يتركوهم وشأنهم ليختاروا ما اطمأنت إليه نفوسهم. واتخذ المستكبرون من قوم شعيب سبيلاً وتدابير للتضييق على الطائفة المؤمنة، كما هو ذأب الطغاة في كل عصر ومصر.

واصل المكذبون تنفير الناس عن اتباع شعيب (عليه السلام) وتثبيطهم عن الاستجابة لدعوته،
مظهرين ما يترتب على اتباعه من الخسارة والعُبن - على زعمهم. وفي موقفٍ آخر، رموا شعيباً
بأنه مسحورٌ سُحر حتى غلب على عقله، ورموه بالكذب، وتحدّوه بإنزال العذاب عليهم، قال
تعالى: ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٤﴾ مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ
الصَّادِقِينَ ﴿١٥٥﴾﴾ [الشعراء: 153-154].

وكانت خاتمة المكذبين كما قال الله تعالى: ﴿فَأَخَذْتَهُمُ الرَّجْفَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٩١﴾ الَّذِينَ
كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَعْنُوا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ ﴿٩٢﴾﴾ [الأعراف: 91-92].

فلم يكن الذين اتّبعوا شعيباً هم الخاسرين، بل كان الذين كذّبوا هم الخاسرين، فقد أُهلكوا
واستؤصلوا، كأن لم يقيموا في ديارهم يوماً من الأيام¹. في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن
لَّمْ يَعْنُوا فِيهَا﴾، أي الذين أصرّوا على تكذيبه، وأمعنوا في ذلك إمعاناً حجبهم عن الحق، بادوا
كأنهم لم يُخلقوا في ديارهم هذه، وكأن لم تكن بها قوّة ومجتمع².

إنّ أصول الضلال التي تجمع بين الكافرين متماثلةً قديماً وحديثاً، وهي تكذيب الرسل، وهي سنّة
ماضية في المجرمين الذين تشابحت قلوبهم، وغلبت عليهم شقوتهم، فلم يستنبروا بنور الحق، ولم ينقادوا
لحملة الهدى والرشاد، فكذّبوا رسلهم وأنبياءهم، ولجّوا في تكذيبهم حتى عاجلهم العذاب، وجعلهم
الله عبرةً لأولي الألباب³.

¹ أسباب هلاك الأمم السالفة، ص 232

² فقه السنن الإلهية دراسة تطبيقية على سورة الأعراف، د. وفاء محمد طيب، ص 277.

³ السنن الاجتماعية في القرآن الكريم، د. محمد أمحزون، (3/ 325).

خامساً: استعجال العذاب:

من أسباب العقاب الإلهي للأمم - ومنهم قوم شعيب - استعجالهم العذاب، كما في قوله تعالى: ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّيَ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابٌ يَوْمَ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾﴾ [الشعراء: 185-189].

لقد انتقل قوم شعيب - عليهم لعائن الله - من مناقشة الحجّة إلى التحدي، فقالوا باستهزاء: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾، أي أنزل علينا قطعة من السماء إن كنت صادقاً. وقد مضت سنة الله في من يستعجل العذاب، كما فعل قوم نوح وعاد وثمود ولوط.

سادساً: الإسراف والتّرف:

الإسراف في اللغة ضد الاعتدال، ويكون بتجاوز الحد في الأمور الاقتصادية والاجتماعية والعقدية. وقد وقع قوم شعيب في ذلك إذ لم يلتزموا بشرع الله، وكذبوا رسله. وقد قال تعالى: ﴿وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾﴾ [هود: 116-117]. وقال تعالى أيضاً: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾﴾ [الإسراء: 16].

فالمترفون والمفسرفون والمجرمون متى ما ظهر ظلمهم وفسادهم ولم يُصلحوا، استحقوا العذاب والهلاك.

سابعاً: الاستكبار:

من أعظم أسباب هلاك قوم شعيب: الاستكبار، فقد بطروا الحق، واحتقروا المؤمنين، وتكبروا على الله وشرعه، كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأعراف: 88].

والمالئ: هم السادة والوجهاء الذين يتزعمون المعارضة ضد الرسل، وهم الذين غالبًا ما يقودون الكبر والاستعلاء ويمنعون الناس من الإيمان. وقد عدّ القرآن الاستكبار من أسباب سقوط الحضارات، لأنه يمنعها من مراجعة المسار وتصحيح الخطأ، ويجعلها ترفض الحق وتُعادي دُعائه.

ومن مظاهر الاستكبار في قصة شعيب:

1. دفع الحق: قالوا باستهزاء: ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتَّزِكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ [هود: 87]، وهذه من أخطر آثار الكبر، فالمستكبر يدفع الحق ولا يدعن له.
2. الاستعلاء على الناس واحتقارهم: كما قالوا له: ﴿وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ [هود: 91]. فهم يصفونه بالضعف، وأنهم لا يهابونه، ولولا مراعاتهم لعشيرته لرجموه!

وقال بعض العلماء: هذه المقالة في حق نبي كريم من أنبياء الله، وهي قمة الاستعلاء والجهل، فنالوا جزاءهم في الدنيا قبل الآخرة.

ثامنًا: الإجمام:

الإجمام هو الظلم بأنواعه، وأشدّه الشرك. قال تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ [النمل: 69].

وذكر الفيروز آبادي في "بصائر ذوي التمييز" أن الجرم له ستة معانٍ، أولها الشرك، فالمُجْرِمُ الأشد جرمًا هو المشرك، لأنه:

- أجرم في حق الله: فسوّى بينه وبين غيره في العبادة.
- وأجرم في حق نفسه: فأذّلّها لغير الله، وأوردها موارد الهلاك في الدنيا والآخرة.

ومن جرائم قوم شعيب عليه السلام:

- الشرك بالله.
- تكذيب نبوة شعيب.
- نقص المكيال والميزان.
- بحس الناس أشياءهم.
- الفساد في الأرض.
- محاولة صد المؤمنين عن إيمانهم.

ولأجل هذه الجرائم، نزل بهم عذاب الله الذي لا يُرد عن القوم المجرمين.

تاسعًا: المكُرُّ الإلهيُّ بأهلِ مدينَ ومَن سبقهم من الأممِ المُتمردة على توحيدِ الله وشرعه

في نهاية قصة شعيب (عليه السلام) في سورة الأعراف، يأتي الحديث القرآني عن الأمم التي تعرّضت لعذاب الله؛ فمنهم من غرق كقوم نوح، ومنهم من وقع عليه الرجس والغضب، ومنهم من أخذتهم الرجفة كقوم صالح، ومنهم من أمطر الله عليهم العذاب كقوم لوط، وقوم شعيب الذين أخذتهم الرجفة. وقد عبّ القرآن الكريم على هذا العذاب بآياتٍ محكمة، منها:

1- قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ﴾ [الأعراف: 94].

- ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عِبَادَةِ اللَّهِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الشَّرِّ، فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا.

- ﴿إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾ أي بالفقر والمرض وأنواع البلاء.
- ﴿لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾ أي يخضعون ويتذللون، فيعودون إلى الله ويسكنون للحق¹.
- 2- قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [الأعراف: 95]
- ﴿ثُمَّ﴾ أي بعد أن لم ينفع فيهم الابتلاء، وازداد طغيانهم.
- ﴿بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ﴾ أي وسعنا عليهم في الرزق والعافية.
- ﴿حَتَّى عَفَوْا﴾ أي كثروا، وانسطوا في النعم، ونسوا البلاء.
- ﴿وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ﴾ أي اعتبروه تقلبًا طبيعيًا، لا موعظة ولا استدراج.
- ﴿فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي في غفلتهم وأمنهم، حين ظنوا أن النعمة دائمة، ففاجأهم العذاب².

3- قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (٩٦) أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ (٩٧) أَوْ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يُلْعَبُونَ (٩٨) أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يُأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ (٩٩) [الأعراف: 96-99]

- لو آمنوا إيمانًا صادقًا واتقوا الله بترك المحرمات، لفتح الله عليهم بركاتٍ من السماء والأرض، بغير مشقة ولا تعب.

- ﴿فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أي عاقبهم على أعمالهم، وقلل أرزاقهم، وكثر ابتلاءاتهم، وهو بعض جزاء أعمالهم.

¹ تفسير السعدي، ص 363.

² تفسير السعدي، المصدر السابق، ص 364.

- ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ﴾ أي المكذّبين، ﴿أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا﴾ وهم في غفلتهم أو لهوهم؟
- ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ﴾ أي استدراجه، وإملاؤه لهم، وأنه قد يأخذهم على حين غرة.
- ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ الذين لم يوقنوا بعدل الله ووعيده¹.

لقد واجه شعيب (عليه السلام) مكرًا شديدًا من قومه، استخدموا فيه وسائل المنكر وأساليب التضليل، لإعاقة دعوته وصدّ الناس عنها، من خلال الشبهات، والافتراءات، والعراويل، وظلم الناس في مكائيلهم وموازينهم، وترصد من يستمع لدعوته.

وقد قرر القرآن الكريم أن سنّة الله لا تتبدّل ولا تتغيّر في الماكين، وأن المكر السيئ لا يحقّق إلا بأهله، فهو ثمرة العقل المخادع الماكر، ويهدف إلى إيقاع الأذى بالآخرين بوسائل خفية، بلا رادع أخلاقي أو ديني. وقد أكّدت الآيات أن المجتمعات لا تُبنى بالمكر السيئ، ولا تنهض الأمم على الخداع والاحتيال².

عاشراً: الفساد:

نهى الله قوم شعيب (عليه السلام) عن الفساد في مواضع عديدة، منها:

- قوله تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ [الأعراف: 56].
- وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْنُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [هود: 85].

¹ تفسير السعدي، ص 364.

² علم القرآن التنموي، جمال حسن الحمص، ص 83.

وقد نُهوا عن الفساد العقدي، والأخلاقي، والاجتماعي، والسياسي، والديني. وكان المملأ الفاسد هم قادة هذا الانحراف، وقد انتشر الفساد حتى أصبح ثقافة عامة بين الناس، فاستحقوا العقوبة الإلهية.

إن الفساد في الأرض لا يقع إلا من أفعال البشر، ولا تحلّ البلياء إلا بسبب هذا الانحراف. ورغم تنوع الأزمنة والبيئات، إلا أن الأمم الفاسدة تشترك في صفات عامة:

- قسوة لا ترحم.
- جحود لا يتعظ.
- انغماس في الدنيا.
- نسيان الله وحقوقه.

وبقاء الأمم على هذه الحالة يُشكّل بلاءً على العالم، وعلى عُمران الأرض، وعلى القيم العليا. وعندما تنزل بهم ضربات القدر، تكون أشبه بالحكم الإلهي القاطع على جرمٍ عظيم¹.

إنّ قصة شعيب (عليه السلام) في القرآن الكريم بيّنت لنا مظاهر الفساد التي وقع فيها قومه، ومنها: الفساد العقدي والوقوع في الشرك، ونقص المكيال والميزان وهو فساد اقتصادي، وبخس الناس أشياءهم وهو فساد اجتماعي، والإفساد في الأرض، والصدُّ عن سبيل الله، وعدم التفات قوم شعيب إلى مَنْ سبقهم من الأمم ومعرفة ما جرى لهم والاستفادة من الدروس والعبر، وتجاوزهم الحدّ والإسراف في الفساد. قال تعالى: ﴿وَلَا تَعْتَوُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾، وتعثوا من "عات" وهو أشد الفساد، فليل لهم: لا تتمادوا في الفساد حال فسادكم، لأنهم كانوا متمادين فيه².

¹ نظرات في القرآن، محمد الغزالي، ص 89.

² الفساد في الأرض وموقف الإسلام منه، أسامة كباره، ص 83.

لقد ارتكب قوم شعيب (عليه السلام) صوراً عديدة من الفساد العقدي والأخلاقي والاجتماعي والتعبدية... إلخ، فمضت سنة الله فيهم، إذ تغلغل الفساد في الملام المترفين وتابعتهم العامة، فنزل عليهم العذاب الرباني¹.

وكان قوم شعيب قد برزوا في الفساد الاقتصادي، واشتهروا بنقص المكيال والميزان، وهي آفة اقتصادية واجتماعية خطيرة ينتج عنها فساد وضرر جسيم على دين الناس ودنياهم. أمّا كونه يفسد دينهم، فلأن هذا العمل يخالف ويناقض النهج الذي أنزله الله عز وجل من عنده ليتعامل الناس بمقتضاه، ذلك النهج هو العدل في كل شيء. قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ﴾ [التورى: 17].

والميزان هو العدل، والموازين والمكاييل آلات لإقامة العدل، ولذا أمر الله بإيفائها ونهى عن نقصها. وأمّا كونه يفسد دنياهم، فلأنه يجلب الشدة بدل الرخاء، وغلاء الأسعار بدل رخصها، ويكون سبباً في الجذب والقحط والفاقة وظلم السلطان، كما في حديث ابن عمر (رضي الله عنهما) مرفوعاً: «ولم ينقصوا المكيال إلا أخذوا بسنين وشدة ومؤنة وجور السلطان»².

وإلى جانب نقص المكيال والميزان وبخس الناس أشياءهم، كانوا يقطعون الطريق ويسلبون أموال الناس، ويقعدون في الطريق لأخذ العُشور من الناس³. ولذلك نهاهم شعيب عن هذه الأعمال الشنيعة وخوفهم عاقبة المفسدين من قبلهم، قال تعالى: ﴿وَأَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: 86].

¹ قصص القرآن قراءة قرآنية، عمرة الشاعر، ص 144.

² صحيح سنن ابن ماجه، الألباني، رقم 3246.

³ المحرر الوجيز، ابن عطية، (7 / 108).

وإن الفساد في الأرض وردت نسبته إلى قوم شعيب (عليه السلام) كما مرّ معنا، وهو أعمُّ من كل ما سبق، فيدخل فيه كل معصية كانوا يعملونها من الكفر وعبادة غير الله، ونقص المكيال، وبخس الناس أشياءهم، وأخذهم المكسب من الناس، والصد عن سبيل الله¹.

وقد سمّى الله عز وجل المعاملات المالية الجائرة فسادًا في الأرض، لأن شيوع هذه الأعمال في أي مجتمع يؤذّن بخرابه، فإن الناس إذا اعتادوا الغش والبخس والخيانة في الأموال حملهم ذلك على الغدر، وعدم الثقة في المجتمع، إذ كل واحد يتوجس خيفة من الآخر أن يخونه أو يغدر به، وكل واحد يترصد بالآخر ليقطع جزءًا من ماله بالحيل والغش أو ليهضم حقًا من حقوقه².

والمجتمعات التي تصل إلى هذه الحالة شأنها شأن قوم شعيب، ينهار بناؤها، وتنهد أركانها، وتحل عليها العقوبات الموعودة. قال تعالى: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: 62]³.

الحادي عشر: إيذاء شعيب (عليه السلام):

حديث القرآن الكريم في قصصه حافل بألوان وصنوف من الإيذاء والاعتداء واجه بها المكذبون رسلهم (عليهم السلام). وهي دروس في الصبر والتحمل في سبيل إعلاء كلمة الله، وتعرض الرسل للأذى سنّة إلهية جرت لكافة الرسل، يرفع الله بها درجاتهم لقاء صبرهم وثباتهم، أمّا الذين تولّوا كبرها فيزدادون شقاءً على شقائهم إلى أن يحقّ بهم بأس الله.

¹ السنن الاجتماعية في القرآن الكريم، (3/ 374).

² أسباب هلاك الأمم، ص 447.

³ السنن الاجتماعية في القرآن، (3/ 375).

وقد ورد في القرآن الكريم ذكر إيذاء الرسل مجملًا، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَنَّهُمْ نَصَرْنَا﴾ [الأنعام: 34].

وكما في قوله تعالى حكايةً عن الرسل: ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا أَدَيْتُمُونَا﴾ [إبراهيم: 12].

وفُصِّلَ هذا الإجمال في آيات أخرى عند الحديث عن صنوف الأذى التي تعرض لها الرسل الكرام¹، ومن بينهم شعيب (عليه السلام).

1- التهديد بالرجم:

قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ [هود: 91].

والرجم في الأصل هو الرمي بالحجارة، وقد يُراد به القتل مطلقًا، ويُستعار الرجم للرمي بالظن والتوهم والشتم ونحوها². وورد في تفسير الرجم في الآيات بالرمي بالحجارة وبالشتم³، وحمله على الرمي بالحجارة هو الأظهر⁴، لأنه الأصل، ولأن المكذبين قد تعرضوا لرسولهم بالسب والشتم فعلاً لا تهديداً، إذ رموهم بالتهم الباطلة كالجنون والسحر، ووصفهم بالأوصاف القبيحة كالكذب والضلال. فلما لم يُشف ذلك غليلهم ولم يُثنِ الرسل عن دعوتهم، هددوهم بالرجم، فلم يبق إلا حمل ذلك على الرمي بالحجارة قصد القتل. إذ السب والشتم قد حدث وسبق، وإنما يكون التهديد بشيء لم يحدث. ويشهد لهذا أن التهديد بالرجم ورد في المواضع المذكورة كلها في خاتمة القصة، مما يدل على أن المكذبين لجأوا إلى التهديد بالرجم كعلاج أخير - في ظنهم - بعد أن استنفدوا ما

¹ أسباب هلاك الأمم السالفة، ص 332.

² أسباب هلاك الأمم السالفة، المصدر السابق، ص 335.

³ لسان العرب، (3/ 1601).

⁴ أسباب هلاك الأمم السالفة، ص 336.

لديهم من وسائل لمنع الرسل من الاستمرار في الدعوة إلى توحيد الله جل وعلا ونبذ عبادة الأصنام والأوثان¹.

2- التهديد بالنفي:

ومما ورد من التهديد من قوم شعيب بالإخراج، قوله تعالى: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ [الاعراف: 88].

وهذا الذي هدد به المستكبرون شعيبًا والذين آمنوا معه ليس بالأمر الهين، فمفارقة الأوطان والاعتراب في البلدان أمر شديد على النفوس، لا سيما إذا كان على وجه الإكراه والإجاء. ويكفي في بيان شدته أن الله تعالى قرنه بالقتل في كتابه العزيز، كما قال عز وجل: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ اخْرَجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾ [النساء: 66]².

واتهموا شعيبًا (عليه السلام) بالكذب والسحر، فكان من أسباب العقاب الإلهي إيذاؤهم له وعدم استجابتهم لدعوته.

الثاني عشر: الخطايا والذنوب:

ومن أسباب العقاب الإلهي لقوم شعيب وقوعهم في المعاصي وارتكابهم الذنوب والخطايا، وهذه تعم جميع ما ذكر من أسباب هلاك الأمم السابقة وغيرها، كالكفر والشرك والظلم والإجرام

¹ أسباب هلاك الأمم السالفة، المصدر السابق، ص 336.

² أسباب هلاك الأمم السالفة، ص 337.

والاستكبار والبطر. فكل مخالفة لأمر الله ذنب يعاقب الله عليه، وإذا تجمعت الخطايا والذنوب على أمة فإن هذه الأمة تُعاقب ويحل بها الهلاك¹.

قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِمَّنْ فَزَرْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ يُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ [الأنعام: 6]. إن الذنوب والمعاصي والخطايا سبب الانتقام وزوال النعم.

الثالث عشر: سُنَّةُ الْإِمْلَاءِ وَالِاسْتِدْرَاجِ

إن إِمْلَاءَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لِلْأُمَّمِ الْكَافِرَةِ وَاسْتِدْرَاجَهُمْ لِأَهْلَاكِهِمْ يَجْرِي وَفَقِ سُنَّةُ إِلَهِيَّةٍ تَتَكَرَّرُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ بَعَثَ اللَّهُ تَعَالَى إِلَيْهَا رَسُولًا فَكَذَّبْتَهُ، بَلْ هِيَ السُّنَّةُ الْجَارِيَةُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ الْأَرْضِ الَّتِي تَكْفُرُ بِأَنْعَمَ اللَّهُ تَعَالَى، وَتُجْحَدُ كِتَابُهُ وَرَسُولُهُ، وَلَمْ تَقْبَلْ شَرْعَهُ وَحُكْمَهُ دَسْتُورًا لِلْحَيَاةِ².

وَالظَّاهِرُ مِنَ الْآيَاتِ الْكَرِيمَةِ أَنَّ الْإِمْلَاءَ يَكُونُ مَبَاشَرَةً بَعْدَ التَّكْذِيبِ، لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ اسْتَهْزَيْتُمْ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَمَلَيْتُمْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ [الرعد: 32]. وَأَمَّا الْأَخْذُ فَيَأْتِي عَلَى الْمَدَى وَالتَّرَاخِي، لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمَلَيْتُمْ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْنَا وَإِلَى الْمَصِيرِ﴾ [الحج: 48].

وَإِذَا عَلِمْنَا أَنَّ مَعْنَى الْإِمْلَاءِ لِلْكَفَارِ هُوَ التَّمَكُّينُ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ - إِذْ إِنْ التَّكْذِيبُ يَصْدُرُ عَادَةً مِنْ الطَّغَاةِ الْمُمْكِنِينَ - فَسَبَبُ ذَلِكَ التَّمَكُّينِ لَا نَعْجَبُ أَنْ يَفْتَحَ اللَّهُ تَعَالَى أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ عَلَى الَّذِينَ نَسُوا مَا دُكِّرُوا بِهِ، فَإِنَّ هَذَا هُوَ عَيْنُ الْإِمْلَاءِ الَّذِي تَحَدَّثَتْ عَنْهُ آيَاتُ كَثِيرَةٌ فِي كِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ³.

¹ رؤية إسلامية لأحوال العالم المعاصر، محمد قطب، ص 56.

² السنن الاجتماعية في القرآن، (3/ 485).

³ رؤية إسلامية لأحوال العالم المعاصر.

وفتح أبواب النعم على الأمم مع إصرارهم على الكفر والتكذيب إنما كان ويكون استدراجاً لهم إلى الهلاك والاضمحلال والسقوط. وهذا ما شهدناه في الأقوام والأمم قديماً وحديثاً، ومن بينهم قوم شعيب (عليه السلام)؛ فقد وقعوا في سنة الإملاء والاستدراج، إذ كانوا في رغد من العيش مع التمكين لهم في الأرض. وقد بين لهم شعيب بعض جوانب هذا التمكين الذي هو في الحقيقة استدراج وإملاء لهم، قال تعالى: ﴿وَانظُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَرْتُمْ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: 86].

وقال تعالى عن سنة الاستدراج والإملاء: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ [44-45].

وإن التعبير القرآني ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ يصور الأرزاق والخيرات والمتاع والسلطان متدفقة كالسيول بلا حواجز ولا قيود، وهي مقبلة عليهم بلا كد ولا عناء. إنه مشهد عجيب يرسم حالة متحركة على طريقة تصوير القرآن المعجب.

• ﴿حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا﴾: غمرتهم الخيرات والأرزاق المتدفقة، واستغرقوا في المتاع والفرح بما بلا شكر ولا ذكر، وخلت قلوبهم من الخفقان بذكر النعم ومن خشية الله وتقواه، وانحصرت اهتماماتهم في لذائذ المتاع، واستسلموا للشهوات، وخلت حياتهم من الاهتمامات الكبيرة، كما هي عادة المستغرقين في اللهو والمتاع. ويتبع ذلك فساد النظم والأوضاع بعد فساد القلوب والأخلاق، ويجرُّ هذا وذاك إلى نتائجه الطبيعية من فساد الحياة كلها، وعندئذ جاء موعد السنة التي لا تتبدل¹.

¹ في ظلال القرآن، (2/ 1091).

- ﴿فَأَخَذْنَا هُمْ بِغَتَّةٍ فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾: كان أخذهم على غرة وهم في لهو وسكرة، فإذا هم حائرون منقطعوا الرجاء في النجاة، عاجزون عن التفكير في أي اتجاه، وإذا هم مهلكون بجملتهم حتى آخر واحد منهم.
- ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾: دابر القوم هو آخر واحد منهم، فإذا قُطِعَ فقد استؤصلوا جميعًا.
- ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾: أي الذين أشركوا بالله، والإشراك من أعظم أنواع الظلم.
- ﴿وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾: تعقيب على استئصال الظالمين بعد هذا الاستدراج الإلهي والكيد المتين. وهل يُحمد الله على نعمة أعظم من نعمة تطهير الأرض من الظالمين؟ وهل رحمة أجلّ من رحمته بعباده بهذا التطهير؟

وقد أخذ الله تعالى قوم نوح، وقوم صالح، وقوم لوط، وقوم شعيب، كما أخذ الفراعنة والإغريق والرومان وغيرهم بهذه السُنَّة: ما وراء ازدهار حضارتهم ثم تدميرها. ذلك سرٌّ مغيب من هذا القدر الظاهر في سُنَّته، وهو التفسير الرباني لهذا الواقع التاريخي المعروف¹.

الرابع عشر: الاشتغال بالدنيا عن الآخرة:

اشتغل قوم شعيب بأمور الدنيا عن الآخرة، وأصابهم الغرور بها، ونسوا الآخرة، وفرحوا بالأموال والأولاد والقصور والبيوت في الجبال والبساتين والزروع، وغاب عنهم فقه القدوم على الله، ولم يستعدوا ليوم الرحيل، وانغمسوا في الترف والإسراف والتطاول على أهل الإيمان.

¹ في ظلال القرآن، المصدر السابق، (2/ 1091).

فمن الأسباب التي أسهمت في عقابهم: الانشغال بالدنيا ونسيان الآخرة، وارتكابهم للموبقات والذنوب والخطايا، لغياب وازع الخوف من الله وحسابه يوم القيامة.

الخامس عشر: نقص المكيال والميزان من أسباب هلاك قوم شعيب:

كان نقص المكيال والميزان من الأسباب التي أدت إلى هلاك قوم شعيب، إذ أصروا على هذا العمل رغم الجهود التي بذلها شعيب (عليه السلام) في دعوتهم لاجتنابه. فلم تنفعهم المواعظ، بل كانوا يزدادون إصرارًا عليه، كما بالغ شعيب في دعوتهم حتى وصل بهم الأمر إلى حد الإنكار عليه والاستهزاء بمحاولاته لثنيهم عمّا اعتادوا عليه من المعاملات المالية الجائرة، ثم انتهى الأمر بهلاكهم. وقد ذكر القرآن الكريم فعلهم هذا ضمن سيئاتهم الأخرى، ثم عَقَّب ذلك بذكر هلاكهم في عدة مواضع، مما يدل على أن هذا العمل كان من جملة الأسباب التي أدت إلى ذلك المصير¹.

وقد نص ابن كثير -رحمه الله- على أن نقص المكيال والميزان كان سبب هلاك قوم شعيب، فقال: "أهلك الله قوم شعيب ودمّرهم على ما كانوا يبخسون الناس في الميزان والمكيال"². ولا يُفهم البتة من كلام ابن كثير أن نقص المكيال والميزان كان السبب الأوحيد لهلاكهم، فقد كانوا أهل شرك وكفر وتكذيب للرسول، إلى جانب نقصهم المكيال والميزان. فالأسباب تتعدد والمسبب واحد، ويترتب بعضها على بعض³. ولو استقل واحد من تلك الأسباب لجاز وقوع المسبب.

ومن هنا يجب ألا يُتساهل في الإقدام على أي عمل يُعدّ من جملة أسباب هلاك الأمم السالفة، بدعوى أن تلك الأمم قد ارتكبت جملة من الأسباب أوجبت بها الهلاك. فهذه من حيل الشيطان

¹ أسباب هلاك الأمم السالفة، ص454.

² تفسير ابن كثير، (4/ 516).

³ أسباب هلاك الأمم السالفة، ص455.

الخادعة يستدرج بها الإنسان ويغرره حتى يقع في المهلكات، ويأمن مكر الله، ولا يدري المغرور إلى أين يسير به الغرور¹.

فقد أسلم زمامه إلى عدوه اللدود إبليس اللعين، فلا يزال به يتخبَّطه ويتلَّله² حتى يحل عليه عذاب عاجل فيكون من الهالكين، أو ينتهي إلى ميتة سوء ينقلب بعدها إلى أشد العذاب، إن لم يتدارك نفسه بتوبة صادقة قبل فوات الأوان. ومن تاب تاب الله عليه³.

السادس عشر: الاستبدال:

قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾ [محمد: 38].

مضت سنَّة الله في الاجتماع البشري: إنَّه ما أهلك الله قوماً إلا أنشأ من بعدهم قوماً آخرين يقومون بعمارة الأرض؛ ذلك أن ذهاب أُمَّةٍ وإنشاء أخرى لا يكون عبثاً ومصادفة، ولكنه سنَّة الله في الأمم والدول والحضارات، لتتجدد خلايا الإنسانية وتتداول الحياة الحضارية بين البشر، ليستمرَّ العالم قائماً على عقيدة سليمة وأسسٍ صحيحةٍ صالحةٍ للبقاء⁴. كما أن الحضارات لها سنن قيام وسقوط، ولها سنن تجديد وانبعاثٍ واستبدال. وقد تحدَّث القرآن الكريم عن الاستبدال الحضاري، وهذا ما حدث لقوم شعيب (عليه السلام) حيث تجمَّعت فيهم أسباب الهلاك، فمضت سنَّة الله فيهم بالاستئصال، ولكن تستأنف الإنسانية رسالتها بشعيب (عليه السلام) والذين آمنوا معه.

¹ أي: الشيطان ينظر للمفردات، ص 359.

² يتلَّله: يسوقه بعنف، لسان العرب، (1/ 442).

³ أسباب هلاك الأمم السالفة، ص 456.

⁴ سنن الله في قيام الحضارات وسقوطها، ص 264.

وكان شعيب (عليه السلام) والذين آمنوا معه قد تميّزوا بتوحيد الله وإفراده بالعبادة، بمحاربة الشرك بأشكاله وألوانه كافة، وانطلقوا في الأرض بشرع الله بعد استئصال قوم شعيب (عليه السلام).

السابع عشر: سنّة الأجل الاجتماعي:

قال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف:

[34].

جعل الله لكل فردٍ أجلاً تنتهي به حياته الدنيا، وجعل سبحانه للأمم والحضارات والدول آجالاً تنتهي إليها، فتسقط في نهايتها ويُسدل الستار عليها. وكذلك لحركة التاريخ الجماعي للأمم سننٌ كثيرةٌ دقيقةٌ تسير عليها، قدرها العليم الحكيم؛ لا تقصر عنها ولا تتجاوزها؛ أوقاتها محدّدة، وأحداثها مُقدّرة ومكتوبة: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾.

ونظراً لارتباط هذه الآجال بمواعيد ثابتة محدّدة في علم الله، كجزءٍ من نظامٍ كونيٍّ متماسك وفق مقاييس زمنية قد تبدو للإنسان ذي القدرات النسبية المحدودة طويلةً؛ ونظراً إلى إرادة الله سبحانه وتعالى وحكمته في خلقه، شاء أن يُمدّد في هذه الآجال كي تُمنح لكل قومٍ أو أمةٍ فرصةً التكفير عن ظلمها وطغيانها بالالتزام الطريق العادل المستقيم. ونظراً لهذا وذاك يتصوّر بعضُ الناس، فيستعجلون المصير قبل تحقّقه على سبيل التحدّي والاستفزاز: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَاباً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: 32].

إلا أن أولئك وهؤلاء لم يدركوا أن كتابهم لم يبلغ أجله، وأنه إذا جاء فليس أمامهم إلا أن يعانقوا مصائرهم التي صاغوها بأيديهم سلفاً، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [النحل: 61]. أي: لكل قومٍ وقت لانقضاء مدتهم وأجلهم في الحياة، فإذا جاء وقت

انقضاء أجلهم وفناء أعمارهم لا يستأخرون ساعة - والإمداد بساعة أقل مدة من الزمن - ولا يستقدمون بالقدر نفسه؛ لأن الله قضى بذلك منذ حين¹. يقول تعالى: ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْنَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ ﴿٥١﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [الحجر: 4-5].

بيّنت الآية أن كل القرى الهالكة كان لها أجلٌ مُقدَّرٌ في أسبابها كلّها؛ وذلك بعد أن أقام الله الحجّة على أهلها بتقدّم النذر وفرض الإمهال وسنن الاستدراج. وتبقى سنّة الله ثابتة، وهي أن هلاك الأمم مرهونٌ بأجلها؛ فاهلاك الذي قدره الله مرتبٌ على سلوكها وأعمالها وعلى اعتقادها وتصوّرها. ومن خلال هذا تنفذ مشيئة الله، فلا يُعزّر المكذّبين تخلفُ بأسِ الله عنهم فترةً من الزمن؛ ومن عدل الله أن يذوق كل واحدٍ جزاء عمله وتصرفه، وسنّة الله في طريقها المعلوم تمضي رويدًا رويدًا نحو الأجل المُقدَّر الذي يمنحه الله لتلك الأمة، وحتى لا تبقى بقيةٌ خير، عند ذلك تبلغ الأمة أجلها وتمضي إلى مصيرها².

وما من أمةٍ عُرفت في الحياة ثم تمرّدت على الحق وتولّت عن العدل، إلّا والله مهلكها قبل يوم القيامة أو معدّها؛ وهذا قدرٌ مُقدَّرٌ في الكتاب المسطور. قال تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ قَرْنَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ۚ كَانَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾ [الإسراء: 58]. وهذا ما حدث لقوم ثمود، حيث بعث الله لهم صالحًا (عليه السلام) رسولًا لهدايتهم، فردّوا دعوته كبرًا وعنادًا وأعرضوا عنها، وطلبوا تعجيل العذاب، فوقع عليهم العقاب الإلهي بسبب ذنوبهم، مع تقدير الله لهم وفق سنّته: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾. فعلم الله لا يتبدّل وسنّته لا تتحول؛ وهي جاريةٌ وحاكمةٌ وفق مشيئته وإرادته وعلمه وحكمته سبحانه وتعالى.

¹ سنن القرآن الكريم في قيام الحضارات وسقوطها، ص 302.

² سنن القرآن الكريم في قيام الحضارات وسقوطها، المصدر السابق، ص 303.

الثامن عشر: سُنَّةُ الهلاك:

إن الله سبحانه وتعالى قد قضى بجعل الحساب والجزاء يومَ القيامة، ولكن جرت سُنَّتُه بالفصل بين أهل الحق وأهل الباطل في الدنيا بحكمةٍ ربانيةٍ عليا، وذلك بإهلاك الظالمين ونجاة المؤمنين في الصراع الدائر بين الرسل (عليهم السلام) وبين أعدائهم. وفي هذا الصراع دارت الدائرةُ -وفق سُنَّةِ الله- على أهل الشقاوة: فمنهم من أغرقه الله بالطوفان، ومنهم من أرسل عليهم الريح العقيم، ومنهم من أخذته الصيحة، ومنهم من أخذته الرجفة فأصبحوا في ديارهم جاثمين، ومنهم من مُسِخُوا فَجَعِلُوا قِرْدَةً وَخَنَازِيرَ. على أن الهلاك الذي حلَّ بأولئك الظالمين إنما هو خزيٌّ لهم في الدنيا، ونصْرٌ للمؤمنين، وعِبْرَةٌ لمن يجيء بعدهم من الأمم؛ ليتعضوا ببصائر الغابرين، ويتعدوا عن سُبُل الشيطان التي كانت سببًا في إهلاك القرون الخالية المحادَّة لله ورسوله. وقد ورد لفظ «الهلاك» في القرآن الكريم بمعانٍ متعددة حسب موقعه في السياق: كالموت مطلقًا، والفساد، والعذاب¹.

وإن المعنى الأخير هو الأكثر استعمالًا في القرآن الكريم، وله صلة بموضوعنا؛ أمَّا «الهلاك» في الاصطلاح القرآني فهو ما يُنزله الله تعالى بأعدائه من العذاب المستأصل المبيد. وقد ورد هذا كثيرًا في قصص القرآن الكريم وفي مصير الأمم الغابرة التي انحرفت عن جادة الصراط المستقيم، وحدث أوامر الله عز وجل، وأذت رُسُلُه. قال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ [الإسراء: 17]. وقومُ شعيب (عليه السلام) من الأمم التي مضت فيهم سُنَّةُ الهلاك. وهذه السُنَّةُ ماضيةٌ في الحضارات والأمم والشعوب والمجتمعات، وهي من سُنن الله القاصمة واسعة الأثر، وهي سببُ الوقوع في الذنوب والفساد والظلم وغير ذلك. قال تعالى:

¹ إصلاح الوجوه والنظائر في القرآن الكريم، الحسين محمد الدمعاني، ص 477.

﴿وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا﴾ [الكهف: 59]. وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا﴾ [يونس: 13].

التاسع عشر: الخسران:

تحققت سنة الخسران في قوم مدين، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾. ومن سنة الله أن الكافرين لا يفلحون وأنهم خاسرون، وهي سنة نافذة لا تتخلف، كما أن الفلاح للمؤمنين¹. لقد مضت في قوم شعيب سنة الخسران عندما خسروا الإدراك والبصيرة، فضاعوا في صحارى الشبهات وبحار الشهوات ووديان الضلال، ومضى فيهم قول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾.

العشرون: الغفلة عن أسباب الهلاك:

من أسباب هلاك قوم مدين ومضي سنة الله فيهم: غفلتهم عن أسباب الهلاك؛ فلم ينتبهوا إلى خطورتها، بل مارسوها على مستوى الأفراد والمجتمع. وهكذا فإن القرآن الكريم - في قصة شعيب (عليه السلام) مع قومه - وجه الأنظار إلى الاعتبار بأحوالهم، وهي مليئة بالدروس والعبر والفوائد والسُنن وقوانين الله في حركة الشعوب وزوال الأمم واضمحلال الحضارات.

الحادي والعشرون: أهم صفات وخصائص شعيب (عليه السلام) ووفاته:

كان شعيب (عليه السلام) من الأنبياء والمرسلين الذين حققوا التوحيد لله عز وجل وإفراده بالعبادة، ودعوا إلى ذلك، وآمن بعضُ الناس برسالته. وقد تميَّز (عليه السلام) بصفات وخصائص حميدة تجسَّدت في شخصيته وأخلاقه: كالإخلاص، والصبر، والتقوى، وحُسن العبادة. وكان ناصحًا

¹ نبي الله صالح، الصلابي، ص 268، في ظلال القرآن، (4/ 483).

لقومه، فدعاهم إلى توحيد الله وعبادته واستغفاره والتوبة إليه. فمن صفاته: أنه مُصْلِح، ورسول، وناصح، ومصلٍ، وحليم، ورشيد، وعلى بيّنة، ومرزوقٌ رزقاً حسناً، ومُوفِّق، ومتوكِّل على الله، ومُنيب، وعاملٌ على مكانته، وناجٍ مرحوم، ومؤمنٌ أمين¹، وغير ذلك من الصفات. وقد كتب الدكتور العزيز عقيل حسن عقيل شرحاً مفصلاً لهذه الصفات؛ فمن أراد التوسُّع فليرجع إلى كتاب «شعيب من وحي القرآن». ومن أهمّ خصائص شعيب (عليه السلام) النبوة والرسالة؛ فهو يدخل في موكب الأنبياء والمرسلين (عليهم السلام)، وما تميّزوا به من صفاتٍ خاصّة بالرسول: كالصدق، والفظانة، والتبليغ، والعصمة، ومكارم الأخلاق، والكمال في الخلق الظاهرة، والسلامة من الأمراض المنقّرة. والحكمة من إرسال الرسل ووظائفهم ممّا تفرّدوا به من أمورٍ سيأتي تفصيلها - بإذن الله - وإليك التفصيل.

1- تعريف الرسل وصفاتهم:

الرسول في اللغة: مشتق من الإرسال وهو التوجيه، فالرسول الذي يُتابع أخبار الذي بعثه، أخذاً من قوله جاءت الإبل رسلاً، أي: متتابعة. ومُنيّ الرسول رسولاً لأنّه ذو رسالة². والرسول: اسم من أرسلت، وكذلك الرسالة، قال تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [الأحزاب: 45].

والنبي: فعيل من النبأ مهموزاً، وأصله النبيء ترك الهمزة تخفيفاً، وهو بمعنى مُفْعِل ومُفْعَل فهو مُنْبِئ ومُنْبَأ، مُنْبِئ أي: مُخْبِرٌ من الله، قال تعالى: ﴿قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِي الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ﴾ [التحریم: 3]، وقال: ﴿نَبِئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْعَفْوَ الرَّحِيمُ﴾ [الحجر: 49].

¹ شعيب عليه السلام من وحي القرآن، د. عقيل حسن عقيل، ص 19 إلى 148.

² موسوعة الأعمال الكاملة، القرضاوي، (367/8).

فالنبي هو الذي يُخبر من الله، وهو الذي يُخبر الناس، أي: يُبلّغهم أمر الله ونهيهِ ووحيه، وقد يكون لفظ (النبي) من التنبؤ غير مهموز، وهو الرفعة والمكانة.

أ- تعريف الرسول اصطلاحاً:

والرسول في الاصطلاح: هو رجل اصطفاه الله من البشر واختصّه بالوحي وأمره بتبليغه. وهذا التعريف يشمل الأنبياء أيضاً، لأنّ لفظيّ النبيّ والرسول إذا اجتمعا افترقا، وإذا افترقا اجتمعا¹.

ب- هل يُنبأ الأنبياء قبل سنّ الأربعين؟:

يقول العلماء: الأنبياء لا يُنبؤون إلّا في سنّ الأربعين لكنّ هذا الغالب، ليس دائماً، لأنّ قوم إبراهيم (عليه السلام) قالوا: ﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾ [الأنبياء: 60]، ومعنى (الفتى): صغير السن.

وقال تعالى في شأن سيّدنا يحيى بن زكريّا (عليهما السلام): ﴿وَأَتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ [مريم: 12]. والحكم هو النبوة، وسيّدنا عيسى ما زاد عمره عن ثلاث وثلاثين سنة².

ج- الرسالة اصطفاً:

الرسالة منحة إلهية يختصّ بها من يشاء من عباده، فضلاً منه ونعمة وليست الرسالة درجة علمية يمكن الحصول عليها بالاجتهاد أو التعبّد أو التعلّم، وإنّما هي اصطفاً واختياراً للرسول من بين سائر الناس. قال تعالى: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ﴾ [الحج: 75] قال تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ ۗ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: 124].

¹ موسوعة الأعمال الكاملة، للقضاوي، (368/8).

² موسوعة الأعمال الكاملة، للقضاوي، المصدر السابق، (372/8).

د- الرسول يوحى إليه:

إنَّ أخصَّ ما يُميِّز الرسول عن سائر البشر، أنَّه يوحى إليه من الله (عزَّ وجل)، فالرسول لا يصدر فيما يُبلِّغه إلى الناس عن نفسه ورأيه، وإمَّا يتلقَّى ذلك بوحي من الله (عز وجل). قال تعالى مخاطباً رسوله ﷺ: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ [الكهف: 110].

والوحي لغة: الإعلام في سرعة وخفاء.

واصطلاحاً: إعلام من الله لنبيّه بطريقة غير معتادة لدى البشر، تفيد الرسول العمل اليقيني القاطع بما أعلمه الله به¹.

ه- طريق الوحي:

إنَّ البشر يحصِّلون علمهم بطريق الحواس أو العقل، أمَّا علم الأنبياء تنقسم إلى أنواع ذكرها الله في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بآذنيه مَا يَشَاءُ﴾ [الشورى: 51].

النوع الأوّل: أن يُلقى الله سبحانه المعنى في قلب النبي مباشرة، وهو المراد بقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا﴾.

ويكون ذلك في اليقظة والمنام وله صور عدّة:

- إلقاء الله معنى يفيضه على قلب رسوله في حالة اليقظة يستيقن معه أنه من عند الله (عزَّ وجل)، بحيث لا يجد فيه شكاً، ولا يستطيع له دفعاً ويُسمَّى هذا النوع من الوحي (النفث في الرُّوع)، والرُّوع: القلب وفي الحديث: إنَّ روح القدس نفث في رُوعي، أنه لن تموت نفس حتّى تستوفي رزقها وأجلها، فاتّقوا الله وأجملوا في الطلب.⁸¹⁵

وروح القدس: جبريل (عليه السلام).

¹ رواه ابن أبي شيبة في الزهد، رقم 35473، وقال الحافظ في المطالب العلية، (927)، فيه انقطاع.

ونفت في روعي: أي ألقى الوحي في قلبي.

- ومنها ما يكون رؤيا صادقة في النوم: ومن ذلك رؤيا إبراهيم (عليه السلام) وأمر الله إياه بذبح ولده، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ﴾ [الصافات: 102]. وفي صحيح البخاري، عن عائشة أم المؤمنين (رضي الله عنها) قالت: أول ما بُدِيَ به رسول الله ﷺ من الوحي: الرؤيا الصادقة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح¹.

والنوع الثاني: ما يكون مكاملة بين الله تعالى وبين رُسله، وهو المراد من قوله تعالى ﴿أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾. كما قال تعالى: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء: 164].

والنوع الثالث: ما يكون بواسطة أمين الوحي جبريل (عليه السلام)، وهو المراد بقوله تعالى: ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ﴾ [الشورى: 51].

وذلك أشهر أنواع الوحي، ويسميه العلماء: الوحي الجليّ ووحى القرآن كلّ من هذا النوع، قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: 97].

وقال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٦﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٧﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾ [الشعراء: 192-195].

2- الفرق بين النبي والرسول:

اختلف العلماء في التفريق بين معنى النبي والرسول، على أقوال: فرأى بعضهم أنّهما سواء، فالنبيّ والرسول لفظان لمعنى واحد، ورأى البعض: أنّهما متفرقان من وجه ويجتمعان من وجه، كما قال القاضي عياض: والصحيح والذي عليه الجمّاء الغفير، أنّ كلّ رسول نبي وليس كلّ نبي رسولاً².

¹ متفق عليه، رواه البخاري في التفسير، (4953).

² الشفا بتعريف حقوق المصطفى، القاضي عياض، دار الحديث، 2010م، (1، 251)، تفسير القرطبي، (80/12).

والراجح في الفرق بين النبي والرسول، أنّ الرسول من بُعث بشرع جديد، وأمر بتبليغه، والنبي من أمر بالتبليغ ولكن بشرع من سبقه من الرسل، كحال أنبياء بني إسرائيل الذين كُلفوا بتبليغ شريعة موسى (عليه السلام) والمراد بالشرع هنا، هو: التشريع الذي يحوي شيئاً جديداً لم يكن له في التشريع السابق، كما في حال عيسى (عليه السلام) فقد قال الله في شأنه: ﴿وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَلَا حِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَحِثُّكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ [آل عمران: 50].

3- أهمّ صفات الرسل ومنهم شعيب (عليه السلام):

الرسل هم سفراء الله تعالى إلى الخلق لهدايتهم إلى الحق، ودعوتهم إلى الخير. وهداية البشر مهمة عظيمة، لا يصلح لها إلا من توفرت فيهم صفات رفيعة من الكمالات الإنسانيّة، فالرسول رجل اصطفاه الله من البشر واختصّه بالوحي، وأمره بتبليغه، فهو مصطفى، وموحي إليه، ومُبلّغ عن الله ومن أهمّ صفاتهم المتعلقة بالرسالة:

أ- الصدق:

فالرسل صادقون في أقوالهم وأعمالهم، قال تعالى: على لسان الكافرين حين يُبعثون من قبورهم يوم القيامة: ﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا ۗ هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ [يس: 52]. والرسالة لا يصلح لها كذاب والرسل مُبلّغون عن الله تعالى، وداعون إلى الحق قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَاذِبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ [النحل: 105]. فيستحيل على النبي الكذب، وذلك بنقل وحي الله تعالى إلى الناس، فلو صدر منه الكذب لتسرّب شكّ الناس

إلى الوحي الذي ينقله إليهم¹. ولذلك قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الحاقة: 44-47].

ب- الفطنة:

وهي أن يكون الرسول ذكياً عميق الفهم، حاضر البديهة، قويّ الحجّة، سديد الرأي، ليس غيبياً ولا بليداً، لأنّ الرسول يُرَبِّي أُمَّتَهُ، ويجادل خصومه، ويقيم البراهين على صحّة ما جاء به².

ج- التبليغ:

لا بد لهذا الصادق الفطن أن يُبلِّغ ما أُوحي إليه من الأحكام والشرائع، وهذا مقتضى الرسالة، فقد قام شعيب (عليه السلام) بتبليغ الرسالة حقّ التبليغ.

د- العصمة:

وهي حفظ الله تعالى رسله من المعاصي والذنوب، ليكونوا أسوة حسنة للناس، ولهذا نؤمن نحن المسلمين بعقيدة (عصمة الأنبياء) من الخطايا والذائل التي تنافي تكليفهم هداية البشر، وتنقّر الناس منهم، وتجعلهم عرضة للانتقاد.

ومعنى العصمة: أنّهم لا يتركون واجباً، ولا يفعلون محرّماً، ولا يقتفون ما يتنافى مع الخلق الكريم، فأفعالهم وأقوالهم وأحوالهم دائرة بين الواجب والمندوب، فهم معصومون عن الكبائر وعن المنقّرات، ورسّل الله (صلوات الله وسلامه عليهم) معصومون في تبليغ الوحي عن الكذب والنسيان

¹ موسوعة الأعمال الكاملة، (378/8).

² موسوعة الأعمال الكاملة، المصدر السابق، (379/8).

والغفلة ومعصومون عن الزيادة فيه أو إخفاء بعضه. وهم معصومون أيضاً من الوقوع في كبائر الذنوب، وعن الصغائر التي تدلّ على خساسة الطبع، صيانة لعلّو مكانتهم¹.

هـ - مكارم الأخلاق:

الرسول متّصفون بأرفع الكمالات الإنسانيّة، ويتحلّون بأسمى الأخلاق الفاضلة: كالكرم، والعدل، والشجاعة، والصبر، والعفة، والأمانة، والحلم، والحياء، وسائر مكارم الأخلاق، ولذا فقد وصف الله تعالى نبيّنا الكريم بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: 4]. فالرسالة لا يصلح لها بخيل، ولا حقود، ولا حسود، وإتّما يصلح لها من اتّصف بكرم النفس وطهارتها، وتحلّى بالأخلاق الفاضلة، وإتّما خصّ الله رسله بهذه الصفات ليصحّ الاقتداء بهم، ولو لم يكونوا متميّزين بهذه الفضائل، معصومين من النقائص، لما كانوا أهلاً لاختصاص الله إياهم بوحيه، ولضعف ثقة الناس بهم ولضاعت الحكمة من رسالتهم².

هـ - الكمال في الخلقة الظاهرة والسلامة من الأمراض المنقّرة:

وكما يجب الإيمان بصدق الرسل وأمانتهم، وتبليغهم وفطانتهم وعصمتهم، فكذلك يجب الإيمان بكمال خلقتهم، فهم يتميّزون بسلامة أبدانهم ممّا تنفر منه الطباع السليمة، فلا يمرضون مرضاً منقّراً أو مُقعداً عمّ تبليغ رسالاتهم، كالجدري، والجذام، والبرص، والصرع، والحُمى، فإنّها قد تصيبهم؛ لأنّها لا تمنعهم من أداء رسالتهم، وقد كان النبي ﷺ يمرض، وتُصدّع رأسه، ومن ذلك ما

¹ موسوعة الأعمال الكاملة، (381-382)، وللتوسع: العصمة في عقيدة أهل السنّة، منصور بن رشد التميمي، ص15، دراسات في التفسير الموضوعي، د. زاهر الألعوي، ص250، العصمة في الفكر الإسلامي، حسن حميد، ص44-46.

² موسوعة الأعمال الكاملة، (390/8).

رواه ابن مسعود: "دخلت على رسول الله ﷺ وهو يوعك وعكاً شديداً، فمسسته بيدي، وقلت: يا رسول الله إنك توعك وعكاً شديداً، فقال ﷺ: أجل، كما يوعك رجلان منكم"¹.
وما يُحكى عن سيدنا أيوب (عليه السلام) من أنه اشتد به المرض، وصار الدود يخرج من بدنه، كذب وافتراء وتشويهات إسرائيلية يتنزه منصب النبوة عنها².

4- الإيمان بالأنبياء والمرسلين:

الإيمان بأنبياء الله ورسله ركن من أركان الإيمان، فلا يتحقق إيمان العبد حتى يؤمن بجميع الأنبياء والمرسلين، ويصدق بأن الله تعالى أرسلهم لهداية البشر وإرشاد الخلق، وإخراج الناس من الظلمات إلى النور، وأهم بلّغوا ما أنزل إليهم من ربهم البلاغ المبين، فبلّغوا الرسالة وأدوا الأمانة، ونصحوا الأمم، وجاهدوا في الله حق جهاده.

قال تعالى: ﴿أَمِنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة: 285]. وقال تعالى: ﴿وَلَكِنَّ الْإِبْرَءَانَ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾ [البقرة: 177]. ومن السنة قول النبي ﷺ: الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه، وبلقائه ورسله وتؤمن بالبعث³.

والإيمان بأنبياء الله تعالى ورسله لا يتم حتى يؤمن العبد بجميعهم من غير حصر، ومن قصصهم الله علينا ومن لم يقصصهم، فقد أخبرنا جلّ وعلا أنّ هناك أنبياء لم يقصصهم علينا. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ [غافر: 78]. فنؤمن بما سمى الله في كتابه من رسله، ونؤمن بأن الله سواهم رسلاً وأنبياء لا يعلم أسماءهم إلا الذي أرسلهم، ونؤمن بمحمد ﷺ، وإيمانك به غير إيمانك بسائر الرسل، إيمانك بسائر الرسل: إقرارك بهم

¹ رواه البخاري، رقم (5660).

² موسوعة الأعمال الكاملة، (391/8).

³ البخاري، رقم (48).

وإيمانك بمحمد إقرارك به وتصديقك إياه دائماً على ما جاء به، فإذا اتبعت ما جاء به أدت الفرائض وأحللت الحلال، وحرّمت الحرام، ووقفت عند الشبهات وسارعت في الخيرات¹.
ومن أطاع رسولاً واحداً فقد أطاع جميع الرسل، ومن آمن بواحد منهم فقد آمن بالجميع، ومن عصى واحد منهم فقد عصى الجميع، لأنّ كلّ رسول يصدّق الأجر ويقول: إنّه رسول صادق، ويأمر بطاعته، فمن كذب الذي صدّقه، ومن عصاه فقد عصى من أمر بطاعته².

5- عدد الرسل:

أرسل الله سبحانه رسلاً إلى جميع الأمم، لا يعلم عددهم إلا الله سبحانه، وقد قصّ القرآن الكريم علينا بعضاً منهم، كما قال تعالى: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ [النساء: 164].

والآيات القرآنيّة تشير إلى أنّ الأنبياء والرسل أعدادهم وفيرة ومن دلائل ذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَى﴾ [المؤمنون: 44]. أي: متتابعين، ودلّت الآية على أنّ الرسل (عليهم السلام) تتابعوا واحداً تلو الآخر، ممّا يدلّ على كثرتهم، قال تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: 24]، وقال: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا﴾ [النحل: 36]، وقال سبحانه: ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيِّ فِي الْأَوَّلِينَ﴾ [الزخرف: 6]، و(وكم): هنا خبريّة، معناها التكرير، والمعنى: ما أكثر ما أرسلنا من الأنبياء في الأمم السابقة. وقد ورد ذكر خمسة وعشرين من الأنبياء والمرسلين في القرآن الكريم، وهم: آدم أبو البشر، ونوح شيخ المرسلين، وإدريس، وهود، وصالح، وإبراهيم، ولوط، وإسماعيل بن إبراهيم، وإسحاق بن إبراهيم، ويعقوب بن إسحاق، ويوسف بن يعقوب، وشعيب، وموسى،

¹ مجموع الفتاوى، (313/7).

² مجموع الفتاوى، المصدر السابق، (180/19).

وهارون، وداود، وسليمان بن داود، وأيوب، ويونس، واليسع، وذو الكفل، وإلياس، وزكريّا، ويحيى بن زكريّا، وعيسى، ومحمد (صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين).

ومن هؤلاء الخمسة والعشرين أربعة من العرب وهم: هود، وصالح، وشعيب، ومحمد (صلّى الله عليهم أجمعين)، وقد وردت في بعض الأحاديث الضعيفة أعداد المرسلين، وهي أحاديث لا تقوم بما حجة، ولا ينبغي لأهل العلم والإيمان أن يشغلوا الناس ويضيعوا أوقاتهم بها.

وقد اختلف في (ذو القرنين، وتبّع، والخضر) هل هم أنبياء أم لا؟

فذهب طائفة من أهل العلم إلى أنّ ذا القرنين نبي من الأنبياء وكذلك تبّع، والأولى أن يتوقف في إثبات النبوة لهما، لما صحّ عن رسول الله ﷺ أنه قال: ما أدري تبّع أنبياء أم لا؟ وما أدري ذا القرنين أنبياء كان أم لا¹.

وأما الخضر فقد رجّح الشيخ الدكتور يوسف القرضاوي (رحمه الله) أنّه نبي، لقوله تعالى في آخر قصته: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي﴾ [الكهف: 82] أي: أنّه قد أوحى إليه فيه².

6- التفاضل بين الأنبياء والرسل:

وقد أخبر القرآن الكريم أنّ الله فضّل بعض الرسل على بعض، فقال: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ [البقرة: 253]. والتفضيل راجع إلى اختيار الله تعالى، بمزايا وهبها الله لنبّيه أو لأمتّه أو لرسالته.

وأفضل الرسل على الإطلاق هم أولو العزم، وأفضل أولو العزم هو رسولنا محمد ﷺ، إذ أنّه جمع كلّ ما تفرّق في الرسل السابقين ورسالاتهم من مزايا ومحاسن وكمالات، فهو أفضل المرسلين

¹ رواه الحاكم في الإيمان، (36/1)، وصحّحه على شرط الشيخين.

² موسوعة الأعمال الكاملة، (402/8).

وسيدهم، ورسالته أكمل الرسالات وأعمّها وأشملها وأمتّه خير أمة أُخرجت للناس، ودينه هو الذي ارتضاه الله لعباده إلى أن تقوم الساعة.

وأفضل أولي العزم بعد رسولنا محمد ﷺ، هو أبونا إبراهيم (عليه السلام) واختلف في ترتيب الثلاثة الباقين بعدهما¹.

7- أولو العزم من الرسل:

العزم: القوّة في الدين، والإمامة في الصّبر، والتقوى، قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَصَبَرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [آل عمران: 186].

والراجح إنّ أولي العزم من الرسل خمسة وهم: نبيّنا محمد ﷺ، ونوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى (عليهم السلام). وقد خصّهم الله بالذكر في كتابه في بعض المواضع:

- كقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ ۗ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾ [الأحزاب: 7].

- وقال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى: 13].

وفي الآيتين دليل على أنّ هؤلاء الخمسة هم أولو العزم؛ لأنّ الله تعالى ذكر الأنبياء ثمّ عطف عليهم هذه المجموعة، وعطف الخاصّ على العام يفيد أنّ للخاص زيادة في الفضل.

وخاطب الله تعالى نبيّه محمداً بقوله: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: 35]. أمّا سبب تسميتهم بذلك، فلما تميّزوا به من الهمة العظيمة في الدعوة إلى الله، والصبر على ما نالهم من الأذى الشديد في سبيل الله، والثبات في مواجهة الباطل، والقوّة في الحقّ.

¹ موسوعة الأعمال الكاملة، المصدر السابق، (402/8).

قال ابن عباس في تفسير قوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: 35]:
"ذوو الحزم والصبر"، وقال الضحّاك: "ذوو الجِدِّ والصبر"¹.

وقد أثنى الله على أولي العزم من الرسل لما فيهم من جميل الخلال، وعِظَم الصفات، كما قال
تعالى عن نبيّه نوح (عليه السلام): ﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء: 3].

وقال: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَمِمَّنْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (١٢٠) شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ ۚ اجْتَبَاهُ
وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ [النحل: 120-121]. وقال: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: 125].
والخُلَّة: هي كمال المحبّة.

وقال عن نبيّه عيسى (عليه السلام): ﴿وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾
[آل عمران: 45]. وخاطب خاتم رسله محمداً ﷺ، بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القم: 4].
وقال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ
اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: 21]².

8- حكمة إرسال الرسل عامّة:

من حكمة الله تعالى في إرسال الرسل، أنّ الخلق بحاجة إلى الرسل ليبلّغهم ما يُحبّه الله ويرضاه،
وما يغضب منه ويأباه، وكثير من العصاة والمنحرفين ضلّوا في متاهات الشقاوة، هذا مع وجود
الأنبياء (عليهم السلام)، فكيف يكون الحال لو لم يُرسل الله تعالى رُسُلًا مبشّرين ومنذرين.
فالرسل بُعثوا يُهدّبون العباد ويُخرجونهم من عبادة العباد إلى عبادة ربّ العباد، ويُحرّرونهم من
رقّ عبوديّة المخلوق، إلى حرّية عبادة ربّ العالمين الذي أوجدهم من العدم وسيفنيهم بعد الوجود،
وبعثهم بعد الفناء، ليكونوا إمّا أشقياء وإمّا سعداء.

¹ تفسير البغوي (معالم التنزيل)، الحسين بن مسعود البغوي، دار طيبة، 2007م، (207/4).

² موسوعة الأعمال الكاملة، (404/8).

ولو ترك الناس هملاً دون إنذار وتخويف، لعاشوا عيشة ضنكاً في جاهليّة جهلاء، وضلالة عمياء، وعادات منحرفة، وأخلاق فاسدة، وأصبحت الحياة مجتمع غاب، القويّ فيهم يأكل الضعيف، والشريف فيهم يذلّ الوضيع، وهكذا فاقتضت حكمته (جلّ وعلا) ألاّ يخلق عباده سُدى ولا يتركهم هملاً، قال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدىً﴾ [القيامة: 36].
ومن رحمته (جلّ وعلا) بهم، أن منّ عليهم فبعث رُسلًا مبشّرين ومنذرين يتلون عليهم آيات ربّهم، ويعلمونهم ما يصلحهم، ويرشدونهم إلى مصدر سعادتهم في الدنيا والآخرة، وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين¹.

أ- قطع المعاذير في الدنيا والآخرة:

قال تعالى: ﴿رُسلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: 165].

ب- إزاحة الغفلة والإعداد للهداية:

قال تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [البقرة: 119].
وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴿٤٦﴾﴾ [الأحزاب: 45-46].

وقال تعالى: ﴿مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ [يونس: 2].

ج- رفع الاختلاف وردّ الناس إلى أصول يتفقون عليها:

قال تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ [البقرة: 213].

¹ نوح والطوفان العظيم، ص 81.

د- إقامة القسط بين الناس:

قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾¹
[الحديد: 25].

فهدف الرسل والرسالات السماوية كلها: إقامة العدل بين الناس، وليس المراد إقامة التعادل والتوازن بين بعضهم البعض فقط، بل بين القيم بعضها وبعض، والفضائل بعضها وبعض، والحقوق بعضها وبعض، فلا ينبغي أن يطغى حق على واجب، ولا أن يطغى رجل على امرأة، ولا أن يطغى حاكم على محكوم، ولا أن يطغى الفرد على المجتمع، والمجتمع على الفرد، أو أن تطغى المعاني الروحية على المعاني المادية، أو المادية على الروحية، إنه التوازن، إنه العدل الذي جاء به الرسل جميعاً: ﴿أَلَا تَطَعُوا فِي الْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴿٩﴾﴾ [الرحمن: 8-9].
لا طغيان، ولا إفساد، ولا تطفيف، ولا إفراط، ولا تفريط¹.

ه- الأسوة الحسنة:

إن مهمة الرسل (صلوات الله وسلامه عليهم) هي الدعوة إلى الله، وإلى الحق والخير، وتحويل هذه الدعوة إلى عمل وسلوك وتطبيق ليقبلي الناس بهم.

قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمْ أَقْتَدِهِ﴾ [الأنعام: 90].

- وقال سبحانه: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: 21].

هذه أهم المهتمات التي يقوم بها الرسل (عليهم السلام) في هداية الناس إلى الحق والخير، وتحذيرهم من الباطل والشر، قال تعالى: ﴿وَمَا تُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [الكهف: 56]².

¹ موسوعة الأعمال الكاملة، (409/8).

² موسوعة الأعمال الكاملة، (409/8).

9- وظائف الرسل:

إنّ الرسل (عليهم الصلاة والسلام) غايات عظمى، ووظائف كبرى، وأهدافاً سامية، أجمل

بعضها في النقاط التالية:

- تبليغ الشريعة الربّانية إلى الناس.
 - تبيين ما أنزل من الدين.
 - دلالة الأمم على الخير، وتبشيرهم بالثواب المعدّ إلى ما فعلوه وتحذيرهم من الشرّ وإنذارهم بالعقاب المعدّ إن اقترفوه.
 - إصلاح الناس بالقدوة الطيبة، والأسوة الحسنة في الأقوال والأعمال.
 - إقامة شرع الله بين العباد وتطبيقه.
 - شهادة الرسل على أممهم يوم القيامة قد بلغوهم البلاغ المبين.
- فهذه بعض وظائف المرسلين التي تزيدهم شرفاً إلى شرفهم، وفضلاً إلى فضلهم، ويكفيهم فخراً أنّهم يُبلِّغون عن ربّ العالمين، فسبحان من خصّهم بهذه الرتبة العلية، ومنحهم هذه الوظيفة السنية، واصطفاهم واختارهم من بين سائر عباده، ليقوموا بهذه الخدمة المرضية¹، ويمكن التوسّع في وظائف الرسل بالرجوع إلى كتابي (نوح عليه السلام والطوفان العظيم).

10- أمور تفرّد بها الأنبياء:

أ- الوحي:

خصّ الله الأنبياء دون سائر البشر بوحيه إليهم، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ

إِلَيَّ إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ﴾ [الكهف: 110].

¹ النبوات، ابن تيمية، مكتبة أضواء السلف، الرياض، 2006م، (29-28/1).

وهذا الوحي يقتضي عدّة أمور، يقارفون بها الناس، فمن ذلك تكليم الله بعضهم، واتصالهم ببعض الملائكة، وتعريف الله لهم شيئاً من الغيب، يقول الله تعالى: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَن ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْأَلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ﴿٢٧﴾﴾ [الجن: 26-27].

ومن ذلك الإسراء بالرسول ﷺ إلى البيت المقدس، والعروج به إلى السماوات العُلا، ورؤيته الملائكة والأنبياء، وإطلاعه على الجنة والنار، ومن ذلك رؤيته للمعدّين في قبورهم، وسماعه تعذيبهم، وفي الحديث: "لولا ألّه تدافنوا لدعوت الله أن يُسمعكم عذاب القبر"¹.

ب- الأنبياء تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم:

ومّا اختصّهم الله به أنّ أعينهم تنام وقلوبهم لا تنام، فعن أنس (رضي الله عنه) في حديث الإسراء: "والنبيّ نائمة عينه، ولا ينام قلبه، وكذلك الأنبياء تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم"². وهذا وإن كان من قول أنس إلا أنّ مثله لا يُقال من قبل الرأي، كما يقول ابن حجر³، وقال ﷺ: "تنام عيني ولا ينام قلبي"⁴.

ج- الأنبياء لا يورثون:

مّمّا اختصّ الله به الأنبياء أنّهم لا يورثون، بل ما تركوه من الأموال يكون صدقة من بعدهم، فعن عائشة (رضي الله عنها): أنّ رسول الله ﷺ قال: "لا نُورث، ما تركناه صدقة"⁵.

¹ صحيح مسلم، ك الجنة (200/4)، رقم (2868).

² صحيح البخاري، رقم (3570).

³ فتح الباري، (670/6).

⁴ فتح الباري، (670/)، رقم (3569).

⁵ صحيح البخاري، رقم (6730).

والحكمة من ذلك: أنّ الله تعالى صان الأنبياء عن أن يورثوا ديناً، لئلا يكون ذلك شبهة لمن يقدح في نبوتهم بأنهم طلبوا الدنيا وخلفوها لورثتهم¹.

وأما قوله تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ﴾ [النمل: 16]، فالمراد بهذا الإرث: العلم والنبوة والملك، وليس المراد وراثته المالك، لأنّه قد كان له بنون غيره، فما كان ليُخصَّ بالمال دونهم، ولأنه قد ثبت في (الصحيح) من غير وجه، عن جماعة من الصحابة أنّ رسول الله ﷺ قال: "لا نُورث، ما تركناه فهو صدقة".

وفي لفظ: "إنّا معاشر الأنبياء لا نورث"، فأخبر الصادق المصدوق أنّ الأنبياء لا تورث أموالهم عنهم كما يورث غيرهم، بل تكون أموالهم صدقة من بعدهم على الفقراء والمحاويج، لا يخصّون بها أقرباءهم، لأن الدنيا كانت أهون عليهم وأحقر عندهم من ذلك، كما هي عند الذي أرسلهم واصطفاهم وفضلهم².

وكذلك قوله تعالى: ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾ [مريم: 6]، ليس المراد به إرث المال، إنّما إرث العلم والنبوة، وفي الحديث: "وإنّ الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً، وإنّما ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظّ وافر"³.

د- تخيير الإنسان عند الموت:

مما تفرّد به الأنبياء أنّهم يُخيرون بين الدنيا والآخرة، فعن عائشة (رضي الله عنها) قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "ما من نبي يمرض إلاّ حُيّر بين الدنيا والآخرة، وكان في شكواه الذي قبض فيه

¹ منهاج السنة، ابن تيمية، 2019م، (4/195).

² البداية والنهاية، (2/17).

³ العصمة في عقيدة أهل السنة، ص42.

أخذته بحجة شديدة، فسمعتة يقول: ﴿مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ
وَالصَّالِحِينَ﴾ [النساء: 69]، فعلمت أنه خَيْرٌ¹.

هـ - لا تأكل الأرض أجسادهم:

ومن إكرام الله لأنبيائه ورسله، أنّ الأرض لا تأكل أجسادهم، فمهما طال الزمان وتقدم
العهد تبقى أجسادهم محفوظة من البلى، وفي الحديث: "إنّ الله حرّم على الأرض أن تأكل أجساد
الأنبياء"².

و - العصمة:

العصمة من الأمور التي خصّ الله تعالى بها أنبياءه ورسله (عليهم السلام) دون سائر البشر،
وقد عرفها الراغب الأصفهاني في المفردات فقال: حفظه إياهم أولاً بما خصّهم به من صفاء الجوهر،
ثمّ بما أولاهم من الفضائل الجسميّة والنفسيّة، ثمّ بالنصرة وتثبيت أقدامهم، ثمّ بإنزال السكينة عليهم،
وحفظ قلوبهم، وبالتوفيق³.

وقد أخذ الحافظ بن حجر تعريف الراغب بشيء من التصرف فقال في الفتح: وعصمة الأنبياء
(على نبينا وعليهم الصلاة والسلام) حفظهم من النقائص، وتخصيصهم بالكمالات النفسيّة،
والنصرة والثبات في الأمور، وإنزال السكينة⁴.

¹ صحيح البخاري، ك التفسير، رقم (4586).

² سنن أبي داود، سليمان بن الأشعث السجستاني، عزة الدعاس، دار الحديث، حمص، سوريا، ط1، 1388هـ، رقم
(1047).

³ مفردات ألفاظ القرآن، ص337.

⁴ فتح الباري، (51/11).

ومن خلال معرفة الرسالة، والنبوة، وصفات الأنبياء والمرسلين، والحكمة من إرسالهم، ووظائفهم، وما تفرّدوا به، نتعرّف على صفات شعيب (عليه السلام) أكثر، والحكمة من إرساله، والوظائف التي قام بها، وما تفرّد به.

11- وفاة شعيب (عليه السلام):

ذكر ابن كثير -رحمه الله- وفاة شعيب (عليه السلام) فقال: "وعن وهب بن منبه أن شعيباً (عليه السلام) مات بمكة، ومن معه من المؤمنين، وقبورهم غربي الكعبة بين دار الندوة ودار بني سهم"¹. وقالت الدكتورة نائلة هاشم صبري: "وتوفي شعيب (عليه السلام) في مكة ودُفن فيها مقابل الحجر الأسود"². وأخرج ابن عساكر عن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: "في المسجد الحرام قبران ليس فيه غيرهما: قبر إسماعيل وقبر شعيب (عليهما السلام)، فقبر إسماعيل في مكة، وقبر شعيب في مكة"³.

والعلم عند الله في مكان وفاة شعيب (عليه السلام) وقبره، إذ لا يوجد دليل صحيح عن رسول الله ﷺ نعتد عليه، وإنما ما ذكرناه هو ما اشتهر عن المؤرخين. فسلام على شعيب (عليه السلام) في الأولين والآخرين، واجمعنا اللهم مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين.

﴿وَأَخِرُ دَعْوَانَا أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾

¹ البداية والنهاية، (1/ 277).

² أحسن القصص في القرآن الكريم، ص 238.

³ احسن القصص، المصدر السابق، ص 283.

الخلاصة:

بعد الانتهاء من عرض قصة نبي الله شعيب (عليه السلام) بكامل تفاصيلها كما جاءت في كتاب الله العزيز، وبعد الوقوف على أهم التفاسير والمصادر التي تناولت دراسة قصته (عليه السلام) مع قومه، ووقفت على أهم دروسها وعبرها وفوائدها، يمكن أن نخلص إلى النتائج الآتية:

1. نسب شعيب (عليه السلام) وقع فيه اضطراب كبير عند الإخباريين؛ نُقلت أقوال متعارضة بلا أسانيد مُحكّمة، بل تعدّى الخلاف إلى اسمه نفسه، ما يرجح التوقّف وعدم الجزم بنسب مخصوص.
2. كثيرٌ من روايات النَّسَب استندت إلى مرويات مسلمة اليهود وغيرهم، فدخل الغثّ والسمين؛ لذا فالأولى ردّ ما لا دليل عليه، وترك ما لم يثبت بسندٍ صحيح.
3. اسم «شُعَيْب» عربيٌّ قديمٌ يُومئى إلى الانشقاق عن الباطل والنهضة بالحقّ، وصاحب الطريق المميّز الذي يُفرّق بين الحق والباطل ويجمع الناس على الخير.
4. لَقِبَ «خطيب الأنبياء» اشتهر في السّلف لبلاغته وحُسن محاورته، لكن الأثر المرفوع فيه ضعيف جدًّا؛ والمعتمد أنّ بلاغته ظاهرة من محاوراته لقومه وحُجّته عليهم.
5. مدين تُطلق على القبيلة والبلاد/المدينة معًا؛ والأشهر نسبتها إلى مدين بن إبراهيم (عليه السلام)، وقد نشأت قبيلةً عربيةً جنوب الشام وشمال الحجاز.
6. ديار مدين امتدّت تاريخيًا على ساحل خليج العقبة إلى شمال الحجاز، وتبدّلت حدودها قوّةً وضعفًا؛ وشملت في أطوارٍ تيماء وأطرافًا من سيناء وفلسطين.

7. الموقع الاستراتيجي لمدين جعلها عقدة ربطٍ تجاري بين جنوب الجزيرة وشمالها ومصر والشام؛ فاشتهرت قوافلها بالبخور واللُّبان و سلع العطور.
8. كانت «البدع/مغائر شعيب» محطة رئيسة على طريقي الحجّ الشامي والمصري، وتفرّعت عنها مسارات إلى المدينة ومكة، فازدادت البلاد عمراناً وعبوراً.
9. ذُكر مدين قرآنيًا جاء لصلتها بشعيب (عليه السلام) ولا تصالها بقصة موسى (عليه السلام)؛ غير أنّ القرآن لم يصرّح بلقاء موسى بشعيب، ولا بزواجه ابنته.
10. قصة ورود موسى ماءً مدين تُظهر حُلق المروءة وإغاثة الملهوف، وقوّة نفسه وجسده؛ سقى للمرأتين ثم آوى إلى الظلّ من غير مَنْ ولا طول مُكاثرة.
11. تتجلّى في موسى (عليه السلام) فضيلتنا القوّة والأمانة: مبادرة شجاعة للسقي، ثم انصرافٌ عن مواطن الريبة؛ ولذلك جاء الترشيح: «إنّ خير من استأجرت القويّ الأمين».
12. قصة مدين ترسم ملامح البيئة الاجتماعية: عملٌ بأجرة، وزواجٌ بالعقد والشروط، وتعاونٌ يُكافأ عليه، مع مساحة تقديرٍ للحياء والشيخوخة والحاجة.
13. إشارات التاريخ والأدب (كأشعار جرير ومن بعده) تدلّ على حضور مدين في الذاكرة العربية طريقًا ومعلّمًا وعبرة؛ فبقيت بين الحجاز وفلسطين ومصر رمزًا للعبرة والسير.
14. يبرز في قوله تعالى: ﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ﴾ قيمة الحياء كحُلقٍ أصيل، فهو هيئةٌ حاضرةٌ في الخطاب والمشى، يختصر الغرضَ من غير خوضٍ في ما لا حاجةً إليه، ويُجسّد أدبَ اللقاء بين الجنسين بما يحفظ الكرامة ويصون المقصد.

15. لقاء الشيخ الكبير بموسى مثل أول محطة للأمن بعد الخوف، فجاءه مطمئناً بعبارة: ﴿لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾، وقدم له السكينة قبل الطعام والزاد، لأن النفس المرهقة أحوج ما تكون إلى الأمان الذي يفتح لها باب الاطمئنان والاستقرار.

16. اختلف المفسرون في هوية الشيخ الذي استضاف موسى، والأقرب أنه رجلٌ صالحٌ من أهل مَدْيَنَ لا نبيُّ الله شعيب، إذ تفصل قرون بين زمن موسى وزمن شعيب، وإبھامُ القرآن لاسمه مقصودٌ لحصر العبرة في الموقف لا في تحديد الأشخاص.

17. عرض الشيخ تزويج موسى إحدى ابنتيه جاء صريحاً واضحاً، مقترناً بعقد عمل معلوم المدة، فارتبط الزواج بالمسؤولية والعمل لا بالمظاهر، وكان في وضوح العقد وضمأن الحقوق ما يشيد الثقة، ويجعل المصاهرة أساساً للتكافؤ والكرامة.

18. دعاء موسى: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ يوجز معنى الافتقار إلى الله وطلب الخير منه، فهو اعترافٌ بالفاقة وفتحٌ لباب العطاء بلا تحديد، فجاء الفرج بعده مباشرة، ليبقى الدعاء الجامع أبلغ في تحصيل المقصود من الأدعية المطوّلة.

19. مَدْيَنَ وأصحاب الأيكة هما في الراجح أُمَّةٌ واحدة، واختلاف العذاب بين ﴿الرَّجْفَةَ﴾ و﴿الصَّيْحَةَ﴾ و﴿الظُّلَّةَ﴾ ليس اختلاف أقوام بل تنويعٌ في عرض العقوبة بحسب سياق السور، والجامع بينهم فسادُ المكيال والميزان الذي جرّ عليهم سخطُ الله.

20. قوله تعالى: ﴿وَمَا قَوْمٌ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ﴾ يدل على قرب مَدِينٍ من قُرى لوطٍ مكانياً وزمانياً، وهذا القرب يجعل العبرة أوضح والحجّة أبلغ، إذ إن مشاهد الهلاك لم تنزل حاضرةً في الأذهان، وكان الأولى بهم أن يعتبروا بها ولا يعيدوا مسالكها.

21. إقامة موسى عشر سنين في مَدِينٍ كانت إعداداً إلهياً له قبل الرسالة، نقلته من حياة القصر إلى حياة الرعي والخدمة، فذاق مرارة الغربة والتعب، وتدرّب على الصبر ومخالطة الناس، ليتهيأ بعدها لمواجهة فرعون وحمل تكليف النبوة الثقيل.

22. وردت قصة شعيب وأهل مَدِينٍ في مواضع متعددة من القرآن، مرةً بذكر الاسم، وأخرى بذكر القبيلة أو الأيكة، وفي هذا تنويحٌ يراد به تركيز العبرة على معاني الدعوة والفساد والجزاء، لا على تفاصيل الأشخاص والمواضع بعينها.

23. تقرّر الآياتُ بدءَ دعوة شعيبٍ بالتوحيد الخالص: ﴿وَإِلَى مَدِينٍ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾. جاءت دعوته من داخل القبيلة «أخاهم»، فالحجّة أبلغ والقبول أقرب. والمقصودُ الأوّل تصحيحُ العبودية، إذ عليها تُبنى سائرُ الأوامر والنواهي.

24. جمعت رسالة شعيب (عليه السلام) بين العقيدة والميزان: ﴿فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾. فالتوحيدُ بلا عدلٍ اقتصاديّ ناقصٌ، فالإيمانُ الحقّ يظهر في الأسواق قبل المحارِب. ومقياسُ الصلاح: حقوقُ الناس، لا الشعاراتُ المجردة.

25. نهي شعيب (عليه السلام) عن الإفساد بعد الإصلاح: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾. والإصلاح سُنَّةُ رَبَّانِيَّةٍ، والإفسادُ نقضٌ لنعمةِ النظامِ والقيم. ومن دلائل الإيمان: صيانة العمران والضمير معًا.

26. حذر شعيب (عليه السلام) من قطع الطريق المعنوي: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ...﴾.

27. فالترويغُ وصرفُ المؤمنين عن سبيل الله لونهُ من الحراية الفكرية. ومحاولةُ ليِّ الطريقِ ﴿تَبَعُوهَا عِوَجًا﴾ فسادٌ منهجٍ قبل أن يكون طيشَ سلوك.

28. قرّر شعيب عليه السلام أدبَ الخلاف والصبر، الخلافُ لا يُحسَمُ بالقهر بل بحكم الله وسننه في المداولة، والداعيةُ يثبتُ على الأناة حتى يفصل الحقُّ بين الصّفين.

29. واجه المستكبرون الدعوةَ بالتهديد: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ... أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾، فأجابهم شعيبُ بإيمانٍ صريحٍ: ﴿قَدْ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا...﴾، ثم أسس الموقفَ على التوكّل والدعاء: ﴿عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا... رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ﴾.

30. بيّن شعيب عليه السلام أنّ الرجوعَ للكفر محالٌ بعد النجاة: ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا﴾. العقيدةُ عهدٌ مولويّ، لا تُفكُّه تهديداتُ القوى ولا إغراءاتُ المصالح، ومن ذاق العافية من الشرك لا يحنُّ إلى رِقِّه.

31. صدّق التاريخُ وعيدَ الله: ﴿فَأَخَذْتَهُمُ الرَّجْفَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾، الاستكبارُ يُسقطُ العمرانَ وأهله في لحظةٍ عدلٍ قاهرة، كان الخاسرُ الحقيقيُّ من كذبِ الرسالة: ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ﴾.

32. ختم شعيبٌ بلاغَهُ بنزاهةِ المبلِّغِ: ﴿لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾. وظيفَةُ النبيِّ أداءُ الأمانةِ لا التحسُّرُ على من اختار الكفر، ﴿فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾، يقطع العلائقَ بعد تمامِ إقامةِ الحجَّةِ.

33. توالي القصصُ في الأعرافِ يربط الفسادَ الأخلاقيَّ باقتصادِ الظلم، فجوارُ قومِ لوطٍ شفعَ للعبرة: فسادُ الشهوةِ هناك، وفسادُ الكيلِ هنا، والجامعُ العتوّ. والسورةُ ترسمُ سنَّةَ الله: التوحيدُ أساس، والعدلُ برهائنه، والعاقبةُ للمتقين.

34. الفسادُ المنهِيُّ عنه عند شعيبٍ شاملٌ لكلِّ صورِ الإخلال: في الاعتقادِ والتشريعِ والسلوكِ والاقتصادِ والإدارةِ والبيئة. وهو خروجُ الأشياءِ عن حدِّ الاعتدالِ والصلاحِ قليلاً كان أو كثيراً، وهو أخطرُ في معانيه من حِسِّنه. ولأنَّه فعلٌ جماعيٌّ غالباً، جاء النهيُّ بصيغةٍ تُخاطبُ الأمةَ كلّها لتحملُ مسؤوليةَ الكفِّ عنه.

35. القرآنُ يوسِّعُ مفهومَ الفسادِ ليعطي البرَّ والبحرَ والقرى والبلاذ، ويُقابله بالصلاحِ تنظيمًا وعدلاً وأمنًا. وتكاثُرُ ذكره في المرحلةِ المكيَّةِ يكشفُ خطأَ المعالجةِ من الجذورِ القيميَّةِ قبل قيامِ الدولة. فالمعركةُ معه تبدأ من الفكرةِ والضميرِ ثم تنضبطُ بالقانونِ والمؤسَّسةِ.

36. الأصلُ في الأرضِ الصلاخُ إعدادًا وتقديرًا وتشريعًا. فالرسلُ أقاموا نظمَ الرشد، ومن ثمَّ فكلُّ عبثٍ يُزيلُ صلاحًا قائمًا ويهدمُ بنيانًا معمورًا.

37. يدخلُ في الفسادِ: إفسادُ العقولِ بالشُّبهاتِ، واستعبادُ الناسِ، ونشرُ الفواحشِ، والربا والرشوةِ وبيعُ الأحكامِ. وكذلك الإضرارُ بالبيئةِ والمواردِ وتكوينُ الميليشياتِ وإشعالُ الأهليةِ وبخسُ الحقوقِ. وكلُّ ذلكِ يجرُّ إلى اضطرابِ اقتصاديٍّ واجتماعيٍّ وأمنيٍّ ينسفُ العمرانَ.

38. إن التوحيدَ والعدلَ والوفاءَ والامتناعَ عن الفسادِ أصلُ الخيرِ الدنيويِّ والأخرويِّ. خيرٌ في رغدِ المعاشِ واستقرارِ المجتمعِ وحُسنِ الذِّكرِ بين الأممِ. وتماثُ ثمرته على قدرِ صدقِ الإيمانِ واتباعِ موجباته.

39. الصّدُّ عن سبيلِ الله يتجلّى في ترهيبٍ وترغيبٍ وتشويهٍ وبناءٍ حواجزِ نفسيّةٍ واجتماعيّةٍ وهو منعُ الناسِ من السماعِ والهدايةِ إمّا بالوعيدِ والعقوباتِ أو بالإغراءِ والمناصبِ والمكاسبِ.

40. القعودُ "بكلِّ صراطٍ" تصويرٌ لملازمةِ أهلِ الإفسادِ طرقَ الخيرِ كلّها ترصّدًا وانقضاءً.

فالصراطُ واحدٌ تتشعبُ منه شعائرٌ وحدودٌ وأحكامٌ، وهم يصدّون عن كلّ فرعٍ منه. فهو قطعُ طريقٍ معنويٍّ لا يقلُّ خطرًا عن قطعِ الطريقِ الحسيِّ.

41. تكشِفُ مناهجُ الابتزازِ سجنًا وتعذيبًا ومصادرةَ أرزاقٍ وإيذاءً جسديًا ونفسيًا وهو نهجٌ لإرهابِ الداخلين في الإيمانِ والمتردّدين حولَه والزائرين لدارِ الدعوة.

42. التذكيرُ بنعمِ التكثيرِ بعد القلّةِ دواءٌ للغلوِّ والطغيانِ ومنعٌ للنكوصِ ووعيُّ التاريخِ ونعمِ التحوُّلِ يُلزِمُ الشكرَ العمليَّ ويضعُ حدودًا للاعتداء.

43. الإيمانُ يورثُ في القلبِ تعظيمَ الله وإجلاله، ويعين على التخلصِ من الآفاتِ القلبيةِ الخفيةِ، كالرياءِ، والحسدِ، والكبرِ، والعجبِ، وسائرِ الوسواسِ؛ لأنه يعلم أن الله يطّلع على كل شيءٍ.

44. يشوّه المترفون سبيلَ الحقِّ بتخطيطٍ ودعايةٍ مُضلّلةٍ تصنع الشُّبهه وتُصدّ الناسَ عنه فيستعملون الترغيبَ والترهيبَ لتصويرِ الطريقِ القويمِ معوجًّا، حتى يغدو في أعين العامة منقّرًا.

45. يُذَكِّرُ شعيبُ قومهَ بنعمةِ التكثيرِ بعدِ القلّةِ في العددِ والمالِ والقوةِ. والشُّكْرُ لها يكونُ بتركِ البُخسِ والظلمِ والإصلاحِ في المعاملاتِ لا بنقضها. والكثرةُ موردٌ اعتزازٍ إن أحسنَ تدبيرها، لا شتمًا لعجزِ الإداراتِ الفاشلةِ.

46. أمرُ شعيبِ قومهَ بالاعتبارِ بسُنَنِ التاريخِ فأمرهم أن ينظروا خواتيمَ المفسدين لا بداياتهمِ المعجزةِ.

47. الهلاكُ مصيرٌ مَنْ أصرَّ على الإفسادِ؛ تتنوعُ الوسائلُ وتثبتُ العاقبةُ، فلا يُعزِّزُكمِ الاستقرارُ المؤقتُ ولا كثرةُ العُدَدِ والعُدَدِ.

48. انقسمَ القومُ طائفتين: مؤمنون ومكذِّبون، والتكليفُ للجميعِ بالصبرِ حتى الفصلِ الإلهي.

49. هدّدَ الملأُ المستكبرونَ بينَ النفيِ القسريِّ أو الارتدادِ إلى ملَّتِهم، فجاءَ ردُّ شعيبِ استنكارياً حكيماً يرفضُ الإكراهَ ويُظهرُ فسادَ منطقهم.

50. والتوكلُ عبادةٌ من أفضلِ العباداتِ القلبيةِ، وخلقٌ من أعظمِ الأخلاقِ الإيمانيةِ، وهو منزلٌ من منازلِ الدينِ، ومقامٌ من مقاماتِ الموقنينِ، بل هو من معاني درجاتِ المقرَّبينِ.

51. من ثمارِ التوكلِ: حصولُ القوةِ للمتوكلِ. ويورثُ الرضا والصبرِ. والاستسلامُ لأحكامِ الله عز وجل

52. التوكلُ على الله سبحانه وتعالى لا يعني التواكلَ، ولا التغافلَ، ولا تجاهلَ ما يحيطُ بالإنسانِ من الظروفِ المتغيرةِ الحوَالِكِ، والأخطارِ الهوَالِكِ. والتوكلُ لا يعني أن يتركِ الصالحونَ الأخذَ بالأسبابِ الماديةِ والمعنويةِ، ويرموا أنفسهم في المتاهاتِ الرديّةِ، بل من شروطِ التوكلِ أن يقومَ المتوكلُ بكلِ الأسبابِ والخططِ المشروعةِ التي تُسهِمُ في تحقيقِ أهدافه، والوصولِ إلى غايته، وتحميه من الأخطاءِ والأخطارِ المتوقعةِ.

53. التوكل على الله لا يمنع من الأخذ بالأسباب، فالمؤمن يتخذ الأسباب من باب الإيمان بالله وطاعته، فيما يأمر به من اتخاذها. ولكنه لا يجعل الأسباب هي التي تُنشئ النتائج فيتوكل عليها، بل يقطع النظر عنها بعد تهيئتها.

54. بعدما أعلن شعيب (عليه السلام) ومن معه من المؤمنين التوكل الكامل على الله، والتبرؤ من حولهم وقوتهم، والبراءة من أعدائهم ومما يعبدون، وقد صبروا على الأذى، وثبتوا في وجه العناد، ولم يلينوا في الحق، ولم يسايروا في الباطل، لجؤوا إلى باب الله، وسألوه أن يحكم بينهم وبين قومهم بالحق، وألا يُبقي الباطل مرفوع الرأس في مواجهة الحق، ولا الظلم ظاهرًا على العدل.

55. النصيحة هي الدعاء إلى ما به الصلاح، والنهي عما فيه الفساد. ومن أبلغ ما وجهه شعيب (عليه السلام) إلى قومه: النصيحة الصادقة لتوحيد الله، وإفراده بالعبادة، وترك الشرك، والوفاء بالكيل والميزان، وعدم بخس الناس أشياءهم، والابتعاد عن القرصنة المحلية والإقليمية على حقوق الناس، وصدّهم عن سبيل الله، وابتغاؤها عوجًا.

56. سورة هود هي السورة الحادية عشرة في ترتيب سور المصحف الكريم، وهي مكية بإجماع العلماء. ابتدأت السورة ببيان أحكام آيات الله، بينما كانت السورة السابقة، سورة يونس، قد افتتحت بالحكمة أيضًا. غير أن الفرق بينهما أن سورة يونس ركزت على حكمة الله في قضائه وقدره، أما سورة هود فتحدثت عن حكمة الله في كتابه وآياته، لتركز على دور المؤمن في التعامل مع الواقع مستعينًا بآيات الله الحكيم.

57. إن هدف سورة هود هو التوازن في مواجهة الأزمات، وذلك بالاستقامة على الحق، والاستمرار في طريق الدعوة والإصلاح، دون طغيان وتهور، ودون الركون لأهل الباطل، أو تقليد هم، أو الارتقاء في أحضانهم، أو الاستسلام لهم.

58. سميت سورة هود باسم نبي الله هود (عليه السلام)، لتجسد قصة دعوته مبدأ الاستقامة والتوازن. كما بينت السورة الكريمة للمؤمنين أن الآخرة هي دار تحقق العدل الإلهي، وأن مما يعين على الاستقامة: العبادة (خصوصًا الصلاة)، والصبر، والعمل، والإصلاح، والدعوة إلى الله.

59. تبدأ دعوة كل نبي ورسول بمناداة قومه بالتحبب إليهم في النسب والانتماء القبلي والقرابة الدموية، ثم يدعوهم إلى جوهر الدين، وهو: إفراد الله وحده بالعبادة.

60. إن شعبيًا عليه السلام خوّف قومه من عذاب الآخرة، وهذا التخويف أقام توازنًا بين الدنيا والآخرة. وبعبارة أخرى، ذكّر قومه بأن يأخذوا في الاعتبار الآخرة، ولا يكون همهم الدنيا وحدها.

61. نهى شعيب (عليه السلام) قومه عن نقص المكيال والميزان في الآية السابقة، وفي هذه الآية يأمرهم بالسلوك السوي، والبديل المرضي عما هم فيه من نقص، وذلك بالإيفاء في المكيال والموازين. ولم يكتف بالنفي، بل أضاف إليه الإيجاب بلزوم الوفاء.

62. إن المتدبر في القرآن الكريم يجد أن الله نهى عن الفساد، وحدّر منه، وبين أنه - سبحانه وتعالى - لا يحب الفساد ولا المفسدين، قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ﴾، وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾.

63. ونهى الأنبياء في القرآن عن الفساد في الأرض بعد أن كانت صالحة، وأوضح القرآن أن الإفساد صفة من صفات المنافقين، وحثّ الله هذه الأمة أن يكون فيها مصلحون لما أفسد الناس، قائمون بدين الله، يدعون من ضلّ إلى الهدى، ويصبرون على أذاهم، ويبصرونهم من العمى.

64. لقد تصدّى شعيب (عليه السلام) لصور وأشكال الفساد وأنواعه المختلفة التي كانت في عصره؛ كالفساد العقدي، والأخلاقي، والاجتماعي، والاقتصادي، والسياسي، والإعلامي، وقام بمواجهته بالحكمة والعقل والمنطق، على منهج الله وشرعه ووحيه سبحانه وتعالى.

65. انغمس قوم شعيب (عليه السلام) في الشرك وعبادة غير الله، فدعاهم إلى التوحيد، وأصيبوا بعزل اجتماعية خطيرة انعكست على حياتهم الاقتصادية، كنقص المكيال والميزان، وبخس الناس أشياءهم، والإفساد في بلادهم؛ فسار شعيب على منهج الأنبياء والمرسلين، الذي هو في حقيقته المنهج الإلهي في إحقاق الحقوق، ومحاربة الظلم والفساد والبخس.

66. إنّ الرسل الكرام (عليهم السلام)، ومن بعدهم من الدعاة والمصلحين، لا يملكون سلطاناً على من يدعوهم، إلا سلطان الحجّة والإقناع، فالإنسان يختار ما يشاء ويتحمّل نتيجة هذا الاختيار.

67. لقد بيّن شعيب (عليه السلام) لقومه الواقع الفاسد الذي هم فيه، ثم بيّن لهم الواقع السليم الذي يجب أن ينتقل إليه المجتمع، لكنه أكد لهم أنه لا يملك إجبارهم، وأن عليهم تحمّل مسؤولية هذا الاختيار.

68. غاية الصلاة أن تحقق التقوى والعفاف، وتزكي النفس وتنهي عن الرذائل. وأي صلاة لا تنهى صاحبها عن المنكرات فهي صلاة ناقصة.

69. الصلاة هي الفريضة الوحيدة التي فرضت على النبي ﷺ مباشرة دون واسطة، في السماء، عند سدرة المنتهى، بخلاف بقية الشرائع التي جاء بها جبريل -عليه السلام-. وهذا لفرط أهميتها.

70. الصلاة تكرر يوميًا لخضوع العبد لله، وركن جامع لأركان الإسلام: فالشهادة تتكرر فيها، والقبلة تُستقبل، والوقت يُضحى به، والجوارح تمتنع عن الشهوات. فهي لبّ الدين وعموده.

71. أعلن شعيبٌ - عليه السلام - وضوح دعوته، وكونه على بينة من ربه، فدعاهم - عليه السلام - إلى النظر في مؤيّدات دعوته، والبراهين الدالة على صدقه، ليقف القوم على خطئهم وفساد حجّتهم، عساهم أن يعدلوا عمّا كانوا عليه من التعامي عن البينات والهدى، إلى التسليم بالرسالة والإذعان لها بالقبول. وساق حجّته - عليه السلام - على سبيل الفرض والتقدير، مجارةً لهم في أسلوبهم، وليقضي على ما في قلوبهم من شكٍّ وريبة.

72. لقد تجردت نفس شعيب (عليه السلام) عن الأهواء والمطامع، فلم يكن لاهنًا وراء جمع المال من كلّ طريق وسبيل، ولم يكن فقيرًا معدّمًا يخترع الآراء النظرية فيما ليس له به خبرة، ولا مطمع له فيما ينهاهم عنه من البخس في الكيل والوزن، ليتأثر به دونهم، فقد أغناه الله عنه وعن كسبهم.

73. إن شعيبًا (عليه السلام) بيّن لقومه أنّه إذا نهاهم عن شيء، انتهى هو عنه، وأنّ فعله لا يخالف قوله. وفعل المسلم أن يكون منتهيًا عمّا ينهى عنه غيره، مؤتمرًا بما يأمر به غيره.

74. إن خطاب شعيب (عليه السلام) لقومه قد جمع شعب الإيمان كلها؛ فالمؤمن هو الذي يريد الإصلاح ويدعو إليه، ويعتمد على حول الله وقوته في تحقيق ما يريد، وليس هناك أعظم من التوكل على الله تعالى والثقة بفضله والإنابة إليه.

75. لقد كانت إرادة شعيب (عليه السلام) في الإصلاح عظيمة، وقد ظهر ذلك في صدق إيمانه، وفعاليته، وجدّيته في التعامل مع أمور الدعوة، وصبره وجهاده، وسمو هدفه، ورغبته في هداية الناس، ونشر الخير بينهم، والسعي في تنوير عقولهم، وتطهير نفوسهم، وإصلاح قلوبهم. فمن أراد شيئًا أخذ بأسبابه.

76. كان شعيب (عليه السلام) يملك رؤية، وإرادة، وأدوات تنفيذ تستمدّها من وحي الله له. ففي هذه الآية الكريمة: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ﴾، بيّن (عليه السلام) هدفه من دعوته، في أمره ونهيّه، وهو إصلاحهم وإصلاح أمرهم، واضعاً لذلك حدّاً وهو ما بلغته استطاعته، وتمكنت منه طاقته. فهو سيبدل غاية جهده وطاقته لحملهم على الأرشد والأقوم في دينهم وديناهم.

77. الإصلاح التشريعي يقتضي أن تتجه الأحكام إلى علاج واقع الناس المختل، ومدّهم بالنظم والتشريعات التي تلبي حاجاتهم، وترسم لهم طريق الخير، بحيث تقوم هذه الأحكام على جلب المصالح الحقيقية المشروعة، ودرء المفاسد، والموازنة بينها عند التعارض.

78. كان شعيب (عليه السلام) يرد على شبهات قومه بلين ورفق، فلم يلتفت إلى استهزائهم، بل مضى في بيان ما هو عليه من الهدى والاستقامة، ودحض حججهم وإبطال دعاويهم، مستخدماً القول الحسن والحوار الهادئ، وكان مقصده هداية الناس لا الانتصار للنفس.

79. اعتمد علم شعيب (عليه السلام) على الوحي، كونه رسولاً من رب العالمين، وجاء بأحكام الله وتشريعاته في شؤون الحياة. وقامت دعوته الإصلاحية على علمٍ مستمدٍّ من وحي الله، وعلى استخدام العقل والمنطق في تبليغ الرسالة والوصول إلى قلوب الناس بالمواعظ والحكم. فدعا إلى العقيدة الصحيحة بعلم، وأصلح المعاملات الاقتصادية والاجتماعية بعلم، وأجاب عن الأسئلة التي يحتاجها الناس في عصره، فأمن به بعضهم.

80. إن العلم هو أهم مقومات الإصلاح في قصة شعيب (عليه السلام)، وكذلك في كل دعوة إصلاحية ربانية، ولهذا أمر الله به، بل أوجبه قبل القول والعمل، فقال تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [محمد: 19].

81. من مقومات الإصلاح في قصة شعيب (عليه السلام) العمل الصالح؛ فقد التزم بالصلاة والعبادات والشرائع والأحكام المتعلقة بشرع الله، وكان قدوةً في العمل، كما في قوله تعالى: ﴿وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه﴾.

82. تبين قصة شعيب (عليه السلام) أن الإصلاح الإسلامي الشامل من مقوماته أن يتولى قيادته أولو الألباب، وأصحاب الإرادات والعزائم العظيمة. ومن صفاتهم التي تؤهلهم لقيادة مشروع إصلاح كبير.

83. من مقومات المشروع الإصلاحي لشُعيب (عليه السلام): اليقين الراسخ في دعوته الإصلاحية، فلم يكن لديه أدنى شك في صلاحها واستقامتها وصفاتها وعظمتها.

84. التوكل من أعظم ثمرات الإيمان ومطالبه، وهو عبادة من أعظم العبادات القلبية، ومن أعظم الأخلاق الإيمانية، ومقام من مقامات الموقنين، بل هو من معالي درجات المقرّبين.

85. أضاف شعيب (عليه السلام) إلى وعظه ودعوته قومه تهديدهم بعذاب الله، مع إظهار شفقتهم عليهم، وحرصه على نجاتهم، وألا يُصيبهم ما أصاب الأمم الهالكة من حولهم، فجمع بين التحذير والشفقة في أسلوب بالغ التأثير. فهو بحقّ: خطيب الأنبياء.

86. أن شُعيب (عليه السلام) لمس قلوب قومه لمسةً تاريخية، فذكّرهم بمن كان قبلهم من الأقوام الكافرة، ودعاهم إلى التفكير بما جرى لهم، لعل ذلك يدعوهم إلى تغيير موقفهم.

87. الاستغفار طلب المغفرة من الذنب، أي: طلب عدم المؤاخذة بما مضى من الشرك، وهو هنا كناية عن ترك عقيدة الشرك؛ لأن استغفار الله يستلزم الاعتراف بوجوده، ويستلزم اعتراف المستغفر بذنب من جانبه، وذنب الإشراك متقرّر في جميع الشرائع.

88. التوبة هي الإقلاع عن الذنب في المستقبل، والندم على ما سلف، والعزم على عدم العودة إليه، فيكون الأمر دعوة إلى الدوام على التوحيد، ونفي الشرك.

89. كثيراً ما يقرن الله تعالى الاستغفار بذكر التوبة، فيكون الاستغفار حينئذٍ طلب المغفرة باللسان، والتوبة هي الإقلاع بالقلب والجوارح؛ لأن دواء الذنوب الاستغفار.

90. إن شعيب (عليه السلام) دعا قومه إلى التوبة، والله عز وجل من أسمائه التواب، والتوبة من شرع الله الخالدة، وهي من الأحكام الشرعية للإنسان طوال الزمان والعصور، وقد دعا إليها الأنبياء والرسل.

91. إن الرحمة تتجلى في الكون، وما وضع الله تبارك وتعالى فيه من السنن والقوانين التي بموجبها أصبح مناسباً للحياة فيه، وأصبح من مظاهر الجمال والرحمة والسعادة للبشر الشيء العظيم.

92. إن رحمة الله تعالى حين تُفتح فلا تُمسك لها، فهي تتمثل في عطاء سخّي كريم لا يعد ولا يحد، مما نعلمه ومما لا نعلم، مما نحصي ومما لا نحصي.

93. إن شعيباً (عليه السلام) عاش مع أسماء الله الحسنى وآمن بها، وتذوّق مرها وآثارها وظلالها في حياته، وتعرّف على ربه، ودعا الناس إلى الإيمان بالله عز وجل، وبين لهم أنه عظيم الرحمة كثير المودة للمستغفرين التائبين.

94. التقوى هي الالتزام بشرع الله واجتناب نواهيه، وهي الترفع عن الدنيا وأغراضها، والسعي لنيل رضوان الله تعالى وتجنّب غضبه وعذابه.

95. ومن طرق اكتساب التقوى: معرفة حقيقتها، واستشعار نظر الله ومراقبته، ومحاسبة النفس، والتفكير في خلق الله وآياته، والاجتهاد في الطاعة، وقراءة القرآن وتدبر آيات الوعيد.

96. من علامات التحقّق بالتقوى: شدة التعلّق بالآخرة، واتباع الرسول صلى الله عليه وسلم والتسليم لأمره، وتعظيم شعائر الله، وكظم الغيظ والعفو عند الإساءة، وسرعة التوبة، وقيام الليل، والاستغفار بالأسحار، والإنفاق في سبيل الله، وتحري العدل حتى مع الأعداء، وترك بعض الحلال خشية الوقوع في الحرام.

97. من آفات ترك التقوى: التهاون بالصغائر، والانشغال بالمفضول عن الفاضل، والتعرّض لغضب الله وعقابه.

98. إن الظلم متجذر في الأقوام، ومن أعظمه ظلم الإنسان نفسه، وأشدّه أن يُشرك بالله.

99. يُعد الكفر بالله من أعظم أسباب هلاك الأمم، وهو الأصل في انحلالهم الديني والأخلاقي.

100. لقد كفر قوم شعيب (عليه السلام) بالله وبرسالته، ورفضوا دعوته للتوحيد، بل وصفهم الله بالكفر صراحة.

101. من أعظم أسباب هلاك الأمم أيضاً: الشرك بالله عز وجل، وهو الذي جرّ على أمم كثيرة الهلاك في الدنيا قبل الآخرة. وقد كان قوم شعيب (عليه السلام) مشركين، يعبدون الأصنام، ويتمسكون بعقائد آبائهم الباطلة.

102. من أعظم أسباب هلاك قوم شعيب: الاستكبار، فقد بطروا الحق، واحتقروا المؤمنين، وتكبروا على الله وشرعه.

103. لقد واجه شعيب (عليه السلام) مكرّاً شديداً من قومه، استخدموا فيه وسائل المنكر وأساليب التضليل، لإعاقة دعوته وصدّ الناس عنها، من خلال الشبهات، والافتراءات، والعراقيل، وظلّم الناس في مكائيلهم وموازينهم، وترصد من يستمع لدعوته.

104. إن الفساد في الأرض لا يقع إلا من أفعال البشر، ولا تحلّ البلياء إلا بسبب هذا الانحراف.

105. لقد ارتكب قوم شعيب (عليه السلام) صورًا عديدة من الفساد العقدي والأخلاقي والاجتماعي والتعبدي... إلخ، فمضت سنة الله فيهم، إذ تغلغل الفساد في الملام المترفين وتابعتهم العامة، فنزل عليهم العذاب الرباني.

106. من أسباب العقاب الإلهي لقوم شعيب وقوعهم في المعاصي وارتكابهم الذنوب والخطايا، وهذه نعم جميع ما ذكر من أسباب هلاك الأمم السابقة وغيرها، كالكفر والشرك والظلم والإجرام والاستكبار والبطر.

107. إن كل مخالفة لأمر الله ذنب يعاقب الله عليه، وإذا تجمعت الخطايا والذنوب على أمة فإن هذه الأمة تُعاقب ويحل بها الهلاك.

108. فمن الأسباب التي أسهمت في عقاب قوم شعيب: الانشغال بالدنيا ونسيان الآخرة، وارتكابهم للموبقات والذنوب والخطايا، لغياب وازع الخوف من الله وحسابه يوم القيامة.

109. لقد مضت في قوم شعيب سنة الحسران عندما خسروا الإدراك والبصيرة، فضاعوا في صحارى الشبهات وبحار الشهوات ووديان الضلال.

110. كان شعيب (عليه السلام) من الأنبياء والمرسلين الذين حققوا التوحيد لله عز وجل وإفراده بالعبادة، ودعوا إلى ذلك، وآمن بعض الناس برسالته.

111. من صفات شعيب (عليه السلام): أنه مُصلِح، ورسول، وناصح، ومصلٍ، وحليم، ورشيد، وعلى بينة، ومرزوقٌ رزقًا حسنًا، ومُوفِّقٌ، ومتوكِّل على الله، ومُنيب، وعاملٌ على مكانته، وناجٍ مرحوم، ومؤمنٌ أمين.

112. إنّ أخصّ ما يُميّز الرسول عن سائر البشر، أنّه يوحى إليه من الله (عزّ وجل).

113. الفطنة: هي أن يكون الرسول ذكياً عميق الفهم، حاضر البديهة، قويّ الحجّة، سديد الرأي، ليس غيبياً ولا بليداً، لأنّ الرسول يُرَبِّي أُمَّتَهُ، ويجادل خصومه، ويقوم البراهين على صحّة ما جاء به.

114. من حكمة الله تعالى في إرسال الرسل، أنّ الخلق بحاجة إلى الرسل ليُلغّوهم ما يُحبّه الله ويرضاه، وما يغضب منه ويأباه، وكثير من العصاة والمنحرفين ضلّوا في متاهات الشقاوة، هذا مع وجود الأنبياء (عليهم السلام)، فكيف يكون الحال لو لم يُرسل الله تعالى رُسلاً مبشّرين ومنذرين.

115. الرسل بُعثوا يُهدّبون العباد ويُخرجونهم من عبادة العباد إلى عبادة ربّ العباد، ويُحرّرونهم من رقّ عبوديّة المخلوق، إلى حرّية عبادة ربّ العالمين الذي أوجدهم من العدم وسيفنيهم بعد الوجود، وبعثهم بعد الفناء، ليكونوا إمّا أشقياء وإمّا سُعداء.

116. ذكر ابن كثير -رحمه الله- وفاة شعيب (عليه السلام) فقال: "وعن وهب بن منبّه أن شعيباً (عليه السلام) مات بمكة، ومن معه من المؤمنين، وقبورهم غربي الكعبة بين دار الندوة ودار بني سهم".

117. وأخرج ابن عساكر عن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: "في المسجد الحرام قبران ليس فيه غيرهما: قبر إسماعيل وقبر شعيب (عليهما السلام)، فقبر إسماعيل في مكة، وقبر شعيب في مكة".

المراجع:

1. قصص الأنبياء، ابن كثير، مكتبة الطالب الجامعي، مكة المكرمة، 1408هـ.
2. تفسير الطبري "جامع البيان في تأويل القرآن"، الطبري، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1992م.
3. تاريخ دمشق، ابن عساكر، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، 1995م.
4. دراسات تاريخية من القرآن، محمد بيومي، دار النهضة العربية، بيروت، ط2، 1988م.
5. أسماء الأنبياء دلالاتها ومعانيها، خالد محمد خالد، نور حوران للدراسات والنشر والتراث، ط1، 2016م.
6. نماذج من بلاغة القرآن، د. علي محمد البهجي.
7. في رحاب قصص الأنبياء، عبود الراضي، دار الكتب العلمية، 2017م.
8. قصص الأنبياء، عبد الوهاب النجار، مطبعة النصر، 1998م.
9. المهمة في ضوء القرآن الكريم، عبد العزيز سالم الرويلي، دار الصميعي، الرياض، 1436هـ.
10. البداية والنهاية، ابن كثير، دار الريان للتراث، مصر، ط1، 1408هـ-1990م، بعناية عبد الرحمن اللاذقي ومحمد غازي، دار المعرفة، لبنان، ط4، 1419هـ-1998م.
11. قصص الأنبياء في رحاب الكون، د. عبد الحلیم محمود، دار الرشاد للنشر، القاهرة، ط1، 2010م.

12. المعجم الكبير، الطبراني، مكتبة ابن تيمية القاهرة، ط2، 1994م.
13. صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، علاء الدين علي بن بلبان الفارسي، تحقيق شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، 1414هـ.
14. القصص القرآني، الخالدي، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى، 1419هـ - 1998م.
15. التاريخ ورسالته في القرآن، سعدي أبو حبيب، دار الفكر المعاصر، 2022م.
16. تاريخ أرض القرآن، سليمان الندوي، دار القلم للطباعة والنشر، دمشق، ط1، 2016م.
17. تفسير البغوي "معالم التنزيل"، البغوي، تح: محمد عبد الله النمر، دار طيبة، الرياض، ط3، 1416هـ.
18. مدين بلد نبي الله شعيب، تركي إبراهيم، مكتبة الرشد، ط1، 1432هـ- 2011م.
19. المواعظ والاعتبار بذكر القصص والآثار، المقرئ، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1998م.
20. المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية، حمد الجاسر، دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، 1998م.

21. وقفة تأمل مع موسى عليه السلام في مدين (أكثر من 200 فائدة)، السعودية، إبراهيم بن فهد بن إبراهيم الودعان، مراجعة: عبد الرحمن بن فهد الودعان، 1438هـ/2017م.
22. الجانب الخلقى في قصة موسى عليه السلام والمرأتين، نورة بنت عبد الله الورثان، السعودية، مجلة جامعة أم القرى لعلوم الشريعة واللغة العربية وآدابها، مج17/ع33، 1426هـ/2005م.
23. تفسير سورة القصص، أحمد نوفل، عمان، جمعية المحافظة على القرآن الكريم، ط1، 2015م.
24. في ظلال القرآن، سيد إبراهيم قطب، القاهرة، دار الشروق، ط32، 1423هـ/2003م.
25. علمني موسى، سلمان العودة، إستانبول، مكتبة وسم، ط1، 2021م.
26. دروس في الحوار وأدبه من قصة موسى، طاهر أحمد محمد الريامي، اليمن، جامعة الأندلس للعلوم والتقنية، مجلة الأندلس للعلوم الإنسانية والاجتماعية، مج4، ع14، حزيران/يونيو 2017م.
27. الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي)، أبو عبد الله محمد الأنصاري شمس الدين القرطبي (ت: 671هـ)، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، القاهرة، دار الكتب المصرية، ط2، 1964م.
28. دعاء موسى في القرآن الكريم: دراسة تحليلية موضوعية، سلمى داود إبراهيم ابن داود، مجلة تبيان للدراسات القرآنية، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، تموز/يوليو 2016م، ص327.

29. صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، دمشق، دار ابن كثير، ط1، 1423هـ / 2002م.
30. التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، عبد الحميد محمود طهماز، دمشق، دار القلم، ط2، 1435هـ / 2014م.
31. تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، القاهرة، مكتبة الأسرة، ط1، 1992م.
32. تفسير الطبري (جامع البيان في تأويل القرآن)، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب أبو جعفر الطبري (ت: 310هـ)، بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، 1992م.
33. سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها، أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف، 1415هـ / 1995م.
34. المرأة في القصص القرآني، أحمد محمد الشرقاوي، حلب، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، 2011م.
35. معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز بن محمد البكري الأندلسي، عالم الكتب، بيروت، ط3، 1403هـ.
36. أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين بن محمد المختار الجكني الشنقيطي (ت، 1393هـ)، جدة، السعودية، مجمع الفقه الإسلامي، دار علم الفوائد، (د. ت).
37. الكامل في التاريخ، عز الدين أبي الحسن ابن الأثير الجزري (ت: 630هـ)، تحقيق: أبي الفداء عبد الله القاضي، بيروت، دار الكتاب العلمية، 2006م.
38. مقاصد سور القرآن الكريم، منذر محمد، المكتب الإسلامي للطباعة والنشر، 2021.

39. الخارطة القرآنية، مشعل الفلاحي، دار القلم، دمشق، 2022م.
40. مقاصد القرآن الكريم ومحتوياته، عبد الله التليدي، دار الأمان، الرباط.
41. التحرير والتنوير، تفسير التحرير والتنوير، الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور، دار سحنون، تونس، 1983م.
42. شرعة الله للأنبياء، محمد مصطفى الزحيلي، دار ابن كثير، دمشق، الطبعة الأولى، 2018م.
43. أنبياء في القرآن تركوا أثراً، هدى الطويل، بيروت، دار المعرفة للطباعة والنشر، ط1، 2006م.
44. نوح عليه السلام والطوفان العظيم، علي محمد الصّلابي، بيروت، دار ابن كثير، ط1، 2020م.
45. والله الأسماء الحسنى فادعوه بها "سورة الأعراف: 180": دراسة تربوية للأثار الإيمانية والسلوكية لأسماء الله الحسنى، عبد العزيز بن ناصر الجليل، دار القسطنطاوي للطباعة والنشر، ط1، 1439هـ / 2018م.
46. شرح أسماء الله الحسنى في ضوء الكتاب والسنة، سعيد بن وهف القحطاني، مطبعة السفير، الرياض، 2017م.
47. تفسير النابلسي، محمد راتب النابلسي، بيروت، دار ابن حزم، ط1، 2016م.
48. اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم، ابن تيمية، مكتبة الرشد، 2016م.

49. طريق الوصول إلى العلم المأمول بمعرفة القواعد والضوابط والأصول، عبد الرحمن السعدي، دار البصيرة، 2009م.
50. ضوابط المعرفة وأصول الاستدلال والمناظرة، عبد الرحمن حبنكة الميداني، دار القلم، ط4، 1993م.
51. تحقيق العبودية بمعرفة الأسماء والصفات، فوز بنت عبد اللطيف، دار طيبة، الرياض، ط1، 1421هـ.
52. تفسير القرآن الثري الجامع في الإعجاز البياني واللغوي والعلمي، د. محمد هلال، دار المعراج، دمشق، سوريا، ط1، 2022م.
53. واحة التفسير، أحمد أحمد الطويل، دار المعالي للنشر، 2016م.
54. التيسير في التفسير، نجم الدين عمر بن محمد بن أحمد النسفي الحنفي (ت: 537هـ)، تحقيق: ماهر أديب حبوش وآخرون، إستانبول، دار اللباب للدراسات وتحقيق التراث، ط1، 1440هـ / 2019م.
55. قصص القرآن الكريم، فضل حسن عباس، الأردن، دار النفائس، ط3، 2010م.
56. صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط2، 1972م.
57. الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي النيسابوري، دار القلم، دمشق، سوريا، ط1، 1415هـ.
58. التفسير المحرر للقرآن الكريم، مؤسسة الدرر السنية، تحقيق: خالد بن عثمان السبت، 2017م.

59. تفسير السعدي (تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان)، عبد الرحمن بن ناصر السعدي، السعودية، الدمام، دار ابن الجوزي، ط4، 1435هـ.
60. فقه الميزان معياراً لفهم السنة ورفعاً لمواطن الخلل والفرقة، د. علي محيي الدين القره داغي، دار ابن كثير، ط1، 2025.
61. معجم لسان العرب، أبو الفضل جمال الدين محمد ابن منظور (ت: 711هـ)، بيروت، دار صادر، ط11، 2021م.
62. القاموس المحيط، محمد بن يعقوب الفيروز آبادي مجد الدين، مؤسسة الرسالة، ط8، 2005م، "قبس"، (2/238).
63. سنن ابن ماجه، محمد بن يزيد بن ماجه، دار التأصيل، 2006م.
64. الاستراتيجية التضامنية في قصة شعيب عليه السلام في القرآن الكريم، إيهاب سعد شفطر، مجلة كلية الآداب، 2022م.
65. السنن الكبرى، أحمد بن شعيب النسائي (303هـ)، بيروت، مؤسسة الرسالة، 1421هـ / 2001م.
66. تفسير الزمخشري: الكشف عن حقائق غوامض التنزيل، أبو القاسم محمود بن أحمد الزمخشري جار الله (ت: 538هـ)، بيروت، دار الكتاب العربي، ط3، 1407م.
67. مفاتيح الغيب، فخر الدين الرازي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط3، 1420هـ.
68. الدعوة إلى الله في سورة هود، عبد الرحمن العوفي، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، 1992م.

69. تفسير المنار، محمد رشيد رضا، دار النوادر للنشر والتوزيع، 2013م.
70. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم السبع المثاني، أبي الفضل شهاب الدين محمود الألوسي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الرابعة، 1405هـ.
71. قانون الشريعة في مكافحة الفساد، رجب بخيت، دار الجديد للنشر والتوزيع، 2023م.
72. تاج العروس من جواهر القاموس، محمد الزبيدي، طبعة الكويت، ط2، 2006م.
73. نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، برهان الدين أبي الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1415هـ - 1995م.
74. جوانب الفساد في قصة شعيب، إيمان تميم العدناني، دار الإديسي، 2024م.
75. تفسير حدائق الروح والريحان، محمد الأمين بن عبد الله الأرمي العلوي الهري الشافعي، دار طوق النجاة، 2007م.
76. لباب التفسير، أبو القاسم الكرمانلي، دار اللباب، ط1، 2021م.
77. المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، تحقيق: صفوان عدنان الداودي، دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت، ط1، 1412هـ، 1992م.
78. مسند أحمد، الإمام أحمد بن حنبل، تح: شعيب أرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط2، 2008م.
79. الشخصيات القرآنية، د. نزيه محمد اعلاوي، دار الصفاء للطباعة والنشر والتوزيع، 2019م.

80. وقفات تربوية في ضوء القرآن الكريم، عبد العزيز ناصر الجليل، دار طيبة، الرياض، السعودية، ط2، 1419هـ، 1998م.
81. منهج الدعوة إلى العقيدة في ضوء القصص القرآني، منى عبد الله بن داود، دار ابن حزم، بيروت، 1998م.
82. نبي الله صالح عليه السلام وأسباب هلاك قوم ثمود، د. علي محمد الصلابي، دار ابن كثير، 2025.
83. زهرة التفاسير، الإمام محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي للطباعة والنشر، القاهرة، مصر، 2008م.
84. طريق المهجرتين وباب السعادتين، ابن قيم الجوزية، دار عالم الفوائد، 1993م.
85. نبي الله هود وأسباب زوال حضارة قوم عاد، دار ابن كثير، 2025م.
86. تفسير سورة هود، أحمد نوفل، جمعية المحافظة على القرآن الكريم، ط1، 2019م.
87. السنن الإلهية ودورها في البناء الحضاري للأمة، جمال نصار، دار الأصول العلمية، 2022م.
88. منازل السائرين، أبو إسماعيل الهروي، دار الكتب العلمية، بيروت، 2012م.
89. الخريطة الإيمانية، إعداد فريق من الباحثين إشراف د. مصطفى مخدوم.
90. جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، مكتبة الإيمان، 1995م.
91. سنن الترمذي، أبو جعفر الترمذي، دار التأصيل، 2014م.
92. سنة الله في الأخذ بالأسباب، د. علي محمد الصلابي، دار ابن كثير، 2016م.
93. صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، علاء الدين علي بن بلبان الفارسي، تحقيق شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، 1414هـ.

94. شأن الدعاء، حمد محمد الخطابي، دار الثقافة العربية، 2008م.
95. الحق الواضح تفسير ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، الحافظ أبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير، حققه يوسف علي بديوي، حسن سويدان، دار ابن كثير، 1434هـ-2013م، دمشق، بيروت، الطبعة الأولى، 1434هـ-2013م.
96. سير أعلام النبلاء، شمس الدين الذهبي، بيت الأفكار الدولية، 2009م.
97. الطبقات، لابن سعد، دار الكتب العلمية، بيروت، 1990م.
98. فضائل الصحابة، الإمام أحمد بن حنبل، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 1983م.
99. تاريخ دمشق، ابن عساكر، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، 1995م.
100. فتح القدير، الشوكاني، دار ابن كثير، دمشق، ط1، 1414هـ.
101. موسوعة التفسير بالمأثور، المشرف العلمي مساعد الطيار، مركز الدراسات والمعلومات القرآنية بمعهد الإمام الشاطبي، دار ابن حزم، بيروت، الطبعة الأولى، 2017م.
102. التعريفات، علي بن محمد بن علي زين الشريف الجرجاني، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1983م.
103. موسوعة الأخلاق الإسلامية، مجموعة من الباحثين بإشراف الشيخ علوي بن عبد القادر السقاف، موقع الدرر السنية، 1433هـ.
104. ديوان العجاج، رواية عبد الملك الأصمعي حققه الدكتور عزة حسن، دار الشرق العربي، سوريا، ط1، 1995م.
105. ديوان البحري، البحري، دار المعارف المصرية، 2009م.

106. مجالس النور في تدبر القرآن الكريم، دار نشر جامعة قطر، 2023م.
107. التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، وهبة الزحيلي، دار الفكر المعاصر، بيروت، دار الفكر، دمشق، الطبعة الأولى، 1411هـ - 1991م.
108. الأمة في الرؤية الإسلامية، عمر إسماعيل، دار الكتب القانونية، 2013م.
109. على طريق التفسير البياني، فاضل السامرائي، دار ابن كثير، ط1، 2017م.
110. أنوار التنزيل وأسرار التأويل، عبد الله بن عمر البيضاوي، دار إحياء التراث العلمي، بيروت، ط1، 1418هـ.
111. إعجاز القرآن الكريم في مجالات العلوم الاجتماعية، رفعت السيد العوضي، المؤتمر العالمي الأول للباحثين في القرآن وعلومه، 2011م.
112. تفسير أبي السعود (إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، أبي السعود محمد بن محمد العمادي، مكتبة الرياض الحديثة، 2009م.
113. شعيب عليه السلام من وحي القرآن، عقيل حسين عقيل، دار ابن كثير، 2011م.
114. التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، نخبة من كبار علماء القرآن وتفسيره بإشراف الأستاذ الدكتور مصطفى مسلم، كلية الدراسات العليا والبحث العلمي، جامعة الشارقة، الإمارات العربية، 2010م.
115. الإصلاح والإفساد في ضوء القرآن الكريم، توفيق زبادي، دار المقاصد للنشر، 2016م.
116. البحر المحيط في التفسير، محمد يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي الغرناطي، دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى، 1420هـ.

117. تفسير أبي السعود "إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم"، أبو السعود محمد العمادي الحنفي، تحقيق: عبد القادر أحمد عطا، دار المصحف ومكتبة ومطبعة عبد الرحمن محمد، القاهرة، 2008م.
118. منهج الأنبياء في الدعوة إلى الله، محمد سرور بن نايف زين العابدين، دار الأرقم، الكويت، ط3، 1409هـ، 1988م.
119. منظومة القيم في الإسلام، مأمون أحمد الوردى، دار طيبة الدمشقية، 2018م.
120. مع الأنبياء في الدعوة إلى الله، محمد عبد القادر أبو فارس، دار المأمون للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 2013م.
121. أحسن القصص، د. زاهية الدجاني، دار التقريب بين المذاهب الإسلامية، 2008م.
122. الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان، ابن قيم الجوزية، دار الكتب العلمية، 2007م.
123. تفسير القرطبي "الجامع لأحكام القرآن"، محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، مؤسسة الرسالة، بيروت. لبنان، ط1، 1427هـ، 2006م.
124. التدبر والبيان في تفسير القرآن بصحيح السنن، محمد بن عبد الرحمن المغراوي، مكتبة مشكاة الإسلامية، لبنان، 1435هـ، 2014م.
125. السنن الكبرى، أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط3، 1424هـ.
126. فبهدهم اقتده، قراءة تأصيلية في سير وقصص الأنبياء عليهم السلام، عثمان الخميس، دار إيلاف الدولية، الكويت، الطبعة الأولى، 1431هـ - 2010م.

127. قصص القرآن الكريم، فضل حسن عباس، دار النفائس، الطبعة الثالثة، 2010م.
128. السنن الاجتماعية في القرآن الكريم، محمد أمخزون، دار طيبة، 2008م.
129. المستفاد من قصص القرآن، عبد الكريم زيدان، مؤسسة الرسالة، 2008م.
130. الحق الواضح تفسيرا ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، الحافظ أبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير، حققه يوسف علي بدوي، حسن سويدان، دار ابن كثير، 1434هـ - 2013م، دمشق، بيروت، الطبعة الأولى، 1434هـ - 2013م.
131. ديوان الشافعي، محمد بن إدريس الشافعي، مكتبة الكليات الأزهرية، 2015م.
132. تفسير الخطيب الشربيني المسمى "السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير"، الخطيب الشربيني، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2004م.
133. مؤمن آل فرعون، بشير الخياط، كلية الدعوة الإسلامية في جامعة أم القرى، السودان، 2011م.
134. حاشية الصّاوي على تفسير الجلالين، أحمد الصّاوي المالكي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1995م.
135. موسوعة نضرة النعيم، مجموعة من الباحثين، 2018م.
136. مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، ابن قيم الجوزية، تحقيق محمد حامد الفضلي، دار الفكر، بيروت، لبنان، 1412هـ.
137. التوبة في ضوء القرآن الكريم آمال بنت صالح، دار الزمان للنشر والتوزيع، 2012م.
138. إحياء علوم الدين لحجة الإسلام، أبو حامد محمد محمد الغزالي، دار الكتب

العلمية، بيروت، دون تاريخ.

139. النهج الأسمى في شرح أسماء الله الحسنى، محمد الحمود الجندي، مكتبة الإمام الذهبي، 2009م.
140. الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام ومعه السيرة النبوية، ابن هشام، تحقيق: مجدي بن منصور بن سيد الشورى، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2009م.
141. حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، أحمد بن عبد الله الأصفهاني أبو نعيم، دار السعادة، مصر، 2007م.
142. جلاء الأفهام في فضائل الصلاة والسلام على خير الأنام، ابن قيم الجوزية، دار عطاءات العلم للنشر، 2021م.
143. أنبياء الله، أحمد بهجت، دار الشروق، 1905م.
144. المختصر في تفسير القرآن، عدنان زرزور، دار المعارف، ط4، 2022م.
145. دعوة الرسل، محمد أحمد العدوي، 2020م.
146. النظم القرآني في قصة صالح، سعد عبد الرحمن، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، 2023م.
147. البرهان في علوم القرآن، بدر الدين الزركشي، دار المعرفة، بيروت، 1957م.
148. تفسير سورة الحجر، أحمد نوفل، جمعية المحافظة على القرآن الكريم، 2019م.
149. حكمة تشابه قصص الأنبياء في القرآن، الصديق علي أوهيبة، جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، طرابلس، 2006م.

150. الارتباط الزمني والعقائدي بين الأنبياء والرسل، محمد وصفي، دار ابن حزم، بيروت، ط1، 1997م.
151. العقوبات الإلهية في القرآن الكريم، عبد الهادي الشهراني، دار كنوز المعرفة للنشر، 2024م.
152. أسباب هلاك الأمم السالفة كما وردت في القرآن الكريم، سعيد محمد بابا سيلا، دار الحكمة، ط1، 2000م.
153. فقه السنن الإلهية دراسة تطبيقية على سورة الأعراف، وفاء محمد طيب، دار الأمة العربية، ط1، 2016م.
154. أسباب هلاك الأمم، عادل الشوربجي، دار الوعظ والإرشاد، ط1، 2016م.
155. السنن الإلهية في الحياة الإنسانية، شريف الخطيب، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، 1987م.
156. التداول الحضاري في القرآن الكريم، فرج علام، دار الشقري للنشر، 2018م.
157. بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، الفيروز آبادي، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، 1996م.
158. علم القرآن التنموي، جمال حسن الحمصي، جمعية المحافظة على القرآن الكريم، 2019م.
159. نظرات في القرآن، محمد الغزالي، دار نهضة مصر، ط1، 2006م.
160. الفساد في الأرض وموقف الإسلام منه، أسامة كبارة، دار النهضة العربية، ط1، 2009م.
161. قصص القرآن قراءة قرآنية، عمرو الشاعر، مكتبة النافذة.

162. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (تفسير ابن عطية)، ابن عطية الأندلسي، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1422هـ، 2001م.
163. رؤية إسلامية للنهضة بواقع الأمة، محمد مسعد ياقوت، دار السلام للطباعة، القاهرة، ط1، 2013م.
164. إصلاح الوجوه والنظائر في القرآن الكريم، الحسين محمد الدمغاني، دار الكتب العلمية، 2007م.
165. موسوعة الأعمال الكاملة، يوسف القرضاوي.
166. الشفاء في التعريف بحقوق المصطفى، القاضي عياض، دار الحديث، 2010م.
167. العصمة في ضوء عقيدة أهل السنة، منصور راشد، مكتبة الرشد، 2015م.
168. مجموع الفتاوى، ابن تيمية، دار الوفاء، 2006م.
169. مستدرك على الصحيحين، الحاكم النيسابوري، دار الكتب العلمية، بيروت، 1990م.
170. النبوات، ابن تيمية، مكتبة أضواء السلف، الرياض، 2006م.
171. منهاج السنة، ابن تيمية، جامعة الإمام محمد بن سعود، الطبعة الأولى، 1996م.
172. سنن أبي داود، سليمان بن الأشعث السجستاني، عزة الدعاس، دار الحديث، حمص، سوريا، ط1، 1388هـ.
173. أحسن القصص في القرآن الكريم، نائلة هاشم صبري، دار النفائس، ط1، 2020م.

174. قصص الأنبياء، ابن كثير، مكتبة الطالب الجامعي، مكة المكرمة، 1408هـ.
175. تفسير الطبري "جامع البيان في تأويل القرآن"، الطبري، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1992م.
176. تاريخ دمشق، ابن عساكر، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، 1995م.
177. دراسات تاريخية من القرآن، محمد بيومي، دار النهضة العربية، بيروت، ط2، 1988م.
178. أسماء الأنبياء دلالاتها ومعانيها، خالد محمد خالد، نور حوران للدراسات والنشر والتراث، ط1، 2016م.
179. نماذج من بلاغة القرآن، د. علي محمد البهجي.
180. في رحاب قصص الأنبياء، عبود الراضي، دار الكتب العلمية، 2017م.
181. قصص الأنبياء، عبد الوهاب النجار، مطبعة النصر، 1998م.
182. الهمة في ضوء القرآن الكريم، عبد العزيز سالم الرويلي، دار الصميعة، الرياض، 1436هـ.
183. البداية والنهاية، ابن كثير، دار الريان للتراث، مصر، ط1، 1408هـ-1990م، بعناية عبد الرحمن اللاذقي ومحمد غازي، دار المعرفة، لبنان، ط4، 1419هـ-1998م.
184. قصص الأنبياء في رحاب الكون، د. عبد الحلیم محمود، دار الرشاد للنشر، القاهرة، ط1، 2010م.

185. المعجم الكبير، الطبراني، مكتبة ابن تيمية القاهرة، ط2، 1994م.
186. صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، علاء الدين علي بن بلبان الفارسي، تحقيق شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، 1414هـ.
187. القصص القرآني، الخالدي، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى، 1419هـ - 1998م.
188. التاريخ ورسالته في القرآن، سعدي أبو حبيب، دار الفكر المعاصر، 2022م.
189. تاريخ أرض القرآن، سليمان الندوي، دار القلم للطباعة والنشر، دمشق، ط1، 2016م.
190. تفسير البغوي "معالم التنزيل"، البغوي، تح: محمد عبد الله النمر، دار طيبة، الرياض، ط3، 1416هـ.
191. مدين بلد نبي الله شعيب، تركي إبراهيم، مكتبة الرشد، ط1، 1432هـ- 2011م.
192. المواعظ والاعتبار بذكر القصص والآثار، المقريزي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1998م.
193. المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية، حمد الجاسر، دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، 1998م.

194. وقفة تأمل مع موسى عليه السلام في مدين (أكثر من 200 فائدة)، السعودية، إبراهيم بن فهد بن إبراهيم الودعان، مراجعة: عبد الرحمن بن فهد الودعان، 1438هـ/2017م.
195. الجانب الخلقى في قصة موسى عليه السلام والمرأتين، نورة بنت عبد الله الورثان، السعودية، مجلة جامعة أم القرى لعلوم الشريعة واللغة العربية وآدابها، مج17/ع33، 1426هـ/2005م.
196. تفسير سورة القصص، أحمد نوفل، عمان، جمعية المحافظة على القرآن الكريم، ط1، 2015م.
197. في ظلال القرآن، سيد إبراهيم قطب، القاهرة، دار الشروق، ط32، 1423هـ/2003م.
198. علمني موسى، سلمان العودة، إستانبول، مكتبة وسم، ط1، 2021م.
199. دروس في الحوار وأدبه من قصة موسى، طاهر أحمد محمد الريامي، اليمن، جامعة الأندلس للعلوم والتقنية، مجلة الأندلس للعلوم الإنسانية والاجتماعية، مج4، ع14، حزيران/يونيو 2017م.
200. الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي)، أبو عبد الله محمد الأنصاري شمس الدين القرطبي (ت: 671هـ)، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، القاهرة، دار الكتب المصرية، ط2، 1964م.
201. دعاء موسى في القرآن الكريم: دراسة تحليلية موضوعية، سلمى داود إبراهيم ابن داود، مجلة تبيان للدراسات القرآنية، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، تموز/يوليو 2016م، ص327.

202. صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، دمشق، دار ابن كثير، ط1، 1423هـ / 2002م.
203. التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، عبد الحميد محمود طهماز، دمشق، دار القلم، ط2، 1435هـ / 2014م.
204. تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، القاهرة، مكتبة الأسرة، ط1، 1992م.
205. تفسير الطبري (جامع البيان في تأويل القرآن)، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب أبو جعفر الطبري (ت: 310هـ)، بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، 1992م.
206. سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها، أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف، 1415هـ / 1995م.
207. المرأة في القصص القرآني، أحمد محمد الشرقاوي، حلب، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، 2011م.
208. معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز بن محمد البكري الأندلسي، عالم الكتب، بيروت، ط3، 1403هـ.
209. أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين بن محمد المختار الجكني الشنقيطي (ت، 1393هـ)، جدة، السعودية، مجمع الفقه الإسلامي، دار علم الفوائد، (د. ت).
210. الكامل في التاريخ، عز الدين أبي الحسن ابن الأثير الجزري (ت: 630هـ)، تحقيق: أبي الفداء عبد الله القاضي، بيروت، دار الكتاب العلمية، 2006م.
211. مقاصد سور القرآن الكريم، منذر محمد، المكتب الإسلامي للطباعة والنشر، 2021.

212. الخارطة القرآنية، مشعل الفلاحي، دار القلم، دمشق، 2022م.
213. مقاصد القرآن الكريم ومحتوياته، عبد الله التليدي، دار الأمان، الرباط.
214. التحرير والتنوير، تفسير التحرير والتنوير، الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور، دار سحنون، تونس، 1983م.
215. شرعة الله للأنبياء، محمد مصطفى الزحيلي، دار ابن كثير، دمشق، الطبعة الأولى، 2018م.
216. أنبياء في القرآن تركوا أثراً، هدى الطويل، بيروت، دار المعرفة للطباعة والنشر، ط1، 2006م.
217. نوح عليه السلام والطوفان العظيم، علي محمد الصّلابي، بيروت، دار ابن كثير، ط1، 2020م.
218. والله الأسماء الحسنى فادعوه بها "سورة الأعراف: 180": دراسة تربوية للأثار الإيمانية والسلوكية لأسماء الله الحسنى، عبد العزيز بن ناصر الجليل، دار القسطنطاوي للطباعة والنشر، ط1، 1439هـ / 2018م.
219. شرح أسماء الله الحسنى في ضوء الكتاب والسنة، سعيد بن وهف القحطاني، مطبعة السفير، الرياض، 2017م.
220. تفسير النابلسي، محمد راتب النابلسي، بيروت، دار ابن حزم، ط1، 2016م.
221. اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم، ابن تيمية، مكتبة الرشد، 2016م.

222. طريق الوصول إلى العلم المأمول بمعرفة القواعد والضوابط والأصول، عبد الرحمن السعدي، دار البصيرة، 2009م.
223. ضوابط المعرفة وأصول الاستدلال والمناظرة، عبد الرحمن حبنكة الميداني، دار القلم، ط4، 1993م.
224. تحقيق العبودية بمعرفة الأسماء والصفات، فوز بنت عبد اللطيف، دار طيبة، الرياض، ط1، 1421هـ.
225. تفسير القرآن الثري الجامع في الإعجاز البياني واللغوي والعلمي، د. محمد هلال، دار المعراج، دمشق، سوريا، ط1، 2022م.
226. واحة التفسير، أحمد أحمد الطويل، دار المعالي للنشر، 2016م.
227. التيسير في التفسير، نجم الدين عمر بن محمد بن أحمد النسفي الحنفي (ت: 537هـ)، تحقيق: ماهر أديب حبوش وآخرون، إستانبول، دار اللباب للدراسات وتحقيق التراث، ط1، 1440هـ / 2019م.
228. قصص القرآن الكريم، فضل حسن عباس، الأردن، دار النفائس، ط3، 2010م.
229. صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط2، 1972م.
230. الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي النيسابوري، دار القلم، دمشق، سوريا، ط1، 1415هـ.
231. التفسير المحرر للقرآن الكريم، مؤسسة الدرر السنية، تحقيق: خالد بن عثمان السبت، 2017م.

232. تفسير السعدي (تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان)، عبد الرحمن بن ناصر السعدي، السعودية، الدمام، دار ابن الجوزي، ط4، 1435هـ.
233. فقه الميزان معياراً لفهم السنة ورفعاً لمواطن الخلل والفرقة، د. علي محيي الدين القره داغي، دار ابن كثير، ط1، 2025.
234. معجم لسان العرب، أبو الفضل جمال الدين محمد ابن منظور (ت: 711هـ)، بيروت، دار صادر، ط11، 2021م.
235. القاموس المحيط، محمد بن يعقوب الفيروز آبادي مجد الدين، مؤسسة الرسالة، ط8، 2005م، "قبس"، (2/238).
236. سنن ابن ماجه، محمد بن يزيد بن ماجه، دار التأصيل، 2006م.
237. الاستراتيجية التضامنية في قصة شعيب عليه السلام في القرآن الكريم، إيهاب سعد شفطر، مجلة كلية الآداب، 2022م.
238. السنن الكبرى، أحمد بن شعيب النسائي (303هـ)، بيروت، مؤسسة الرسالة، 1421هـ / 2001م.
239. تفسير الزمخشري: الكشف عن حقائق غوامض التنزيل، أبو القاسم محمود بن أحمد الزمخشري جار الله (ت: 538هـ)، بيروت، دار الكتاب العربي، ط3، 1407م.
240. مفاتيح الغيب، فخر الدين الرازي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط3، 1420هـ.
241. الدعوة إلى الله في سورة هود، عبد الرحمن العوفي، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، 1992م.

242. تفسير المنار، محمد رشيد رضا، دار النوادر للنشر والتوزيع، 2013م.
243. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم السبع المثاني، أبي الفضل شهاب الدين محمود الألويسي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الرابعة، 1405هـ.
244. قانون الشريعة في مكافحة الفساد، رجب بخيت، دار الجديد للنشر والتوزيع، 2023م.
245. تاج العروس من جواهر القاموس، محمد الزبيدي، طبعة الكويت، ط2، 2006م.
246. نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، برهان الدين أبي الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1415هـ - 1995م.
247. جوانب الفساد في قصة شعيب، إيمان تميم العدناني، دار الإديسي، 2024م.
248. تفسير حدائق الروح والريحان، محمد الأمين بن عبد الله الأرمي العلوي الهجري الشافعي، دار طوق النجاة، 2007م.
249. لباب التفسير، أبو القاسم الكرمانلي، دار اللباب، ط1، 2021م.
250. المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، تحقيق: صفوان عدنان الداودي، دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت، ط1، 1412هـ، 1992م.
251. مسند أحمد، الإمام أحمد بن حنبل، تح: شعيب أرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط2، 2008م.
252. الشخصيات القرآنية، د. نزيه محمد اعلاوي، دار الصفاء للطباعة والنشر والتوزيع، 2019م.

253. وقفات تربوية في ضوء القرآن الكريم، عبد العزيز ناصر الجليل، دار طيبة، الرياض، السعودية، ط2، 1419هـ، 1998م.
254. منهج الدعوة إلى العقيدة في ضوء القصص القرآني، منى عبد الله بن داود، دار ابن حزم، بيروت، 1998م.
255. نبي الله صالح عليه السلام وأسباب هلاك قوم ثمود، د. علي محمد الصلابي، دار ابن كثير، 2025.
256. زهرة التفاسير، الإمام محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي للطباعة والنشر، القاهرة، مصر، 2008م.
257. طريق المهجرتين وباب السعادتين، ابن قيم الجوزية، دار عالم الفوائد، 1993م.
258. نبي الله هود وأسباب زوال حضارة قوم عاد، دار ابن كثير، 2025م.
259. تفسير سورة هود، أحمد نوفل، جمعية المحافظة على القرآن الكريم، ط1، 2019م.
260. السنن الإلهية ودورها في البناء الحضاري للأمة، جمال نصار، دار الأصول العلمية، 2022م.
261. منازل السائرين، أبو إسماعيل الهروي، دار الكتب العلمية، بيروت، 2012م.
262. الخريطة الإيمانية، إعداد فريق من الباحثين إشراف د. مصطفى مخدوم.
263. جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، مكتبة الإيمان، 1995م.
264. سنن الترمذي، أبو جعفر الترمذي، دار التأصيل، 2014م.
265. سنة الله في الأخذ بالأسباب، د. علي محمد الصلابي، دار ابن كثير، 2016م.
266. صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، علاء الدين علي بن بلبان الفارسي، تحقيق شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، 1414هـ.

267. شأن الدعاء، حمد محمد الخطابي، دار الثقافة العربية، 2008م.
268. الحق الواضح تفسير ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، الحافظ أبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير، حققه يوسف علي بديوي، حسن سويدان، دار ابن كثير، 1434هـ-2013م، دمشق، بيروت، الطبعة الأولى، 1434هـ-2013م.
269. سير أعلام النبلاء، شمس الدين الذهبي، بيت الأفكار الدولية، 2009م.
270. الطبقات، لابن سعد، دار الكتب العلمية، بيروت، 1990م.
271. فضائل الصحابة، الإمام أحمد بن حنبل، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 1983م.
272. تاريخ دمشق، ابن عساكر، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، 1995م.
273. فتح القدير، الشوكاني، دار ابن كثير، دمشق، ط1، 1414هـ.
274. موسوعة التفسير بالمأثور، المشرف العلمي مساعد الطيار، مركز الدراسات والمعلومات القرآنية بمعهد الإمام الشاطبي، دار ابن حزم، بيروت، الطبعة الأولى، 2017م.
275. التعريفات، علي بن محمد بن علي زين الشريف الجرجاني، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1983م.
276. موسوعة الأخلاق الإسلامية، مجموعة من الباحثين بإشراف الشيخ علوي بن عبد القادر السقاف، موقع الدرر السنية، 1433هـ.
277. ديوان العجاج، رواية عبد الملك الأصمعي حققه الدكتور عزة حسن، دار الشرق العربي، سوريا، ط1، 1995م.
278. ديوان البحري، البحري، دار المعارف المصرية، 2009م.

279. مجالس النور في تدبر القرآن الكريم، دار نشر جامعة قطر، 2023م.
280. التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، وهبة الزحيلي، دار الفكر المعاصر، بيروت، دار الفكر، دمشق، الطبعة الأولى، 1411هـ - 1991م.
281. الأمة في الرؤية الإسلامية، عمر إسماعيل، دار الكتب القانونية، 2013م.
282. على طريق التفسير البياني، فاضل السامرائي، دار ابن كثير، ط1، 2017م.
283. أنوار التنزيل وأسرار التأويل، عبد الله بن عمر البيضاوي، دار إحياء التراث العلمي، بيروت، ط1، 1418هـ.
284. إعجاز القرآن الكريم في مجالات العلوم الاجتماعية، رفعت السيد العوضي، المؤتمر العالمي الأول للباحثين في القرآن وعلومه، 2011م.
285. تفسير أبي السعود (إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، أبي السعود محمد بن محمد العمادي، مكتبة الرياض الحديثة، 2009م.
286. شعيب عليه السلام من وحي القرآن، عقيل حسين عقيل، دار ابن كثير، 2011م.
287. التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، نخبة من كبار علماء القرآن وتفسيره بإشراف الأستاذ الدكتور مصطفى مسلم، كلية الدراسات العليا والبحث العلمي، جامعة الشارقة، الإمارات العربية، 2010م.
288. الإصلاح والإفساد في ضوء القرآن الكريم، توفيق زبادي، دار المقاصد للنشر، 2016م.
289. البحر المحيط في التفسير، محمد يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي الغرناطي، دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى، 1420 هـ.

290. تفسير أبي السعود "إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم"، أبو السعود محمد العمادي الحنفي، تحقيق: عبد القادر أحمد عطا، دار المصحف ومكتبة ومطبعة عبد الرحمن محمد، القاهرة، 2008م.
291. منهج الأنبياء في الدعوة إلى الله، محمد سرور بن نايف زين العابدين، دار الأرقم، الكويت، ط3، 1409هـ، 1988م.
292. منظومة القيم في الإسلام، مأمون أحمد الوردى، دار طيبة الدمشقية، 2018م.
293. مع الأنبياء في الدعوة إلى الله، محمد عبد القادر أبو فارس، دار المأمون للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 2013م.
294. أحسن القصص، د. زاهية الدجاني، دار التقريب بين المذاهب الإسلامية، 2008م.
295. الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان، ابن قيم الجوزية، دار الكتب العلمية، 2007م.
296. تفسير القرطبي "الجامع لأحكام القرآن"، محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، مؤسسة الرسالة، بيروت. لبنان، ط1، 1427هـ، 2006م.
297. التدبر والبيان في تفسير القرآن بصحيح السنن، محمد بن عبد الرحمن المغراوي، مكتبة مشكاة الإسلامية، لبنان، 1435هـ، 2014م.
298. السنن الكبرى، أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط3، 1424هـ.
299. فبهدهم اقتده، قراءة تأصيلية في سير وقصص الأنبياء عليهم السلام، عثمان الخميس، دار إيلاف الدولية، الكويت، الطبعة الأولى، 1431هـ - 2010م.

300. قصص القرآن الكريم، فضل حسن عباس، دار النفائس، الطبعة الثالثة، 2010م.
301. السنن الاجتماعية في القرآن الكريم، محمد أمخزون، دار طيبة، 2008م.
302. المستفاد من قصص القرآن، عبد الكريم زيدان، مؤسسة الرسالة، 2008م.
303. الحق الواضح تفسير ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، الحافظ أبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير، حققه يوسف علي بدوي، حسن سويدان، دار ابن كثير، 1434هـ - 2013م، دمشق، بيروت، الطبعة الأولى، 1434هـ - 2013م.
304. ديوان الشافعي، محمد بن إدريس الشافعي، مكتبة الكليات الأزهرية، 2015م.
305. تفسير الخطيب الشربيني المسمى "السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير"، الخطيب الشربيني، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2004م.
306. مؤمن آل فرعون، بشير الخياط، كلية الدعوة الإسلامية في جامعة أم القرى، السودان، 2011م.
307. حاشية الصّاوي على تفسير الجلالين، أحمد الصّاوي المالكي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1995م.
308. موسوعة نضرة النعيم، مجموعة من الباحثين، 2018م.
309. مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، ابن قيم الجوزية، تحقيق محمد حامد الفضلي، دار الفكر، بيروت، لبنان، 1412هـ.
310. التوبة في ضوء القرآن الكريم آمال بنت صالح، دار الزمان للنشر والتوزيع، 2012م.
311. إحياء علوم الدين لحجة الإسلام، أبو حامد محمد محمد الغزالي، دار الكتب

العلمية، بيروت، دون تاريخ.

312. النهج الأسمى في شرح أسماء الله الحسنى، محمد الحمود الجندي، مكتبة الإمام الذهبي، 2009م.
313. الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام ومعه السيرة النبوية، ابن هشام، تحقيق: مجدي بن منصور بن سيد الشورى، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2009م.
314. حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، أحمد بن عبد الله الأصفهاني أبو نعيم، دار السعادة، مصر، 2007م.
315. جلاء الأفهام في فضائل الصلاة والسلام على خير الأنام، ابن قيم الجوزية، دار عطاءات العلم للنشر، 2021م.
316. أنبياء الله، أحمد بهجت، دار الشروق، 1905م.
317. المختصر في تفسير القرآن، عدنان زرزور، دار المعارف، ط4، 2022م.
318. دعوة الرسل، محمد أحمد العدوي، 2020م.
319. النظم القرآني في قصة صالح، سعد عبد الرحمن، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، 2023م.
320. البرهان في علوم القرآن، بدر الدين الزركشي، دار المعرفة، بيروت، 1957م.
321. تفسير سورة الحجر، أحمد نوفل، جمعية المحافظة على القرآن الكريم، 2019م.
322. حكمة تشابه قصص الأنبياء في القرآن، الصديق علي أوهيبة، جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، طرابلس، 2006م.

323. الارتباط الزمني والعقائدي بين الأنبياء والرسل، محمد وصفي، دار ابن حزم، بيروت، ط1، 1997م.
324. العقوبات الإلهية في القرآن الكريم، عبد الهادي الشهراني، دار كنوز المعرفة للنشر، 2024م.
325. أسباب هلاك الأمم السالفة كما وردت في القرآن الكريم، سعيد محمد بابا سيلا، دار الحكمة، ط1، 2000م.
326. فقه السنن الإلهية دراسة تطبيقية على سورة الأعراف، وفاء محمد طيب، دار الأمة العربية، ط1، 2016م.
327. أسباب هلاك الأمم، عادل الشوربجي، دار الوعظ والإرشاد، ط1، 2016م.
328. السنن الإلهية في الحياة الإنسانية، شريف الخطيب، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، 1987م.
329. التداول الحضاري في القرآن الكريم، فرج علام، دار الشقري للنشر، 2018م.
330. بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، الفيروز آبادي، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، 1996م.
331. علم القرآن التنموي، جمال حسن الحمصي، جمعية المحافظة على القرآن الكريم، 2019م.
332. نظرات في القرآن، محمد الغزالي، دار نهضة مصر، ط1، 2006م.
333. الفساد في الأرض وموقف الإسلام منه، أسامة كبارة، دار النهضة العربية، ط1، 2009م.
334. قصص القرآن قراءة قرآنية، عمرو الشاعر، مكتبة النافذة.

335. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (تفسير ابن عطية)، ابن عطية الأندلسي، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1422هـ، 2001م.
336. رؤية إسلامية للنهضة بواقع الأمة، محمد مسعد ياقوت، دار السلام للطباعة، القاهرة، ط1، 2013م.
337. إصلاح الوجوه والنظائر في القرآن الكريم، الحسين محمد الدمغاني، دار الكتب العلمية، 2007م.
338. موسوعة الأعمال الكاملة، يوسف القرضاوي.
339. الشفاء في التعريف بحقوق المصطفى، القاضي عياض، دار الحديث، 2010م.
340. العصمة في ضوء عقيدة أهل السنة، منصور راشد، مكتبة الرشد، 2015م.
341. مجموع الفتاوى، ابن تيمية، دار الوفاء، 2006م.
342. مستدرك على الصحيحين، الحاكم النيسابوري، دار الكتب العلمية، بيروت، 1990م.
343. النبوات، ابن تيمية، مكتبة أضواء السلف، الرياض، 2006م.
344. منهاج السنة، ابن تيمية، جامعة الإمام محمد بن سعود، الطبعة الأولى، 1996م.
345. سنن أبي داود، سليمان بن الأشعث السجستاني، عزة الدعاس، دار الحديث، حمص، سوريا، ط1، 1388هـ.
346. أحسن القصص في القرآن الكريم، نائلة هاشم صبري، دار النفائس، ط1، 2020م.

فهرس المحتويات

الإهداء: 4

مقدمة الكتاب 5

المبحث الأول:

نبي الله شعيب (عليه السلام) اسمه ونسبه ولقبه، وهل مدين قبيلة أم مدينة، وأين مكانها، وهل تزوج موسى ابنة شعيب، ومن هم أصحاب الأيكة؟ 22

أولاً: اسمه ونسبه ولقبه: 23

1. اسمه 23

2. معنى (شعيب) 24

3. لقب نبي الله شعيب (عليه السلام) بـ خطيب الأنبياء: 25

4. أحد الأنبياء العرب الأربعة: 26

ثانياً: هل مدين قبيلة أم مدينة؟ 26

ثالثاً: مكان مدين: 27

1. تاريخ مدين: 27

2. حدود مدين: 28

3. الموقع الاستراتيجي لمدين: 30

4. مدين في عيون الشعراء: 31

رابعاً: موسى (عليه السلام) وهجرته إلى مدين ولقاء الشيخ الصالح الذي زوجه إحدى ابنتيه 32

1. قال تعالى: ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تَلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ 33

2. قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ ... وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ 35

3. قال تعالى: ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ .. 39

4. قال تعالى: ﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي .. مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ 43

5. قال تعالى: ﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ ... وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ 49

- 54..... من تدابير الله لموسى (عليه السلام) في السنين العشر: .6
- 57..... خامساً: ما علاقة مدين بأصحاب الأيكة؟
- 63..... سادساً: قُرب مدين من قوم لوطٍ زماناً ومكاناً:
- 65..... سابعاً: مواضع قصة النبي شعيب في القرآن الكريم:

المبحث الثاني:

- 67..... قصة شعيب (عليه السلام) في سورة الأعراف
- 69..... أولاً: قوله تعالى: ﴿وإلى مدين آحاهم شعيباً ... إن كنتم مؤمنين﴾
- 69..... 1. قوله: ﴿وإلى مدين آحاهم شعيباً﴾:
- 71..... 2. قوله تعالى: ﴿قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيرهُ﴾:
- 78..... 3. قوله تعالى: ﴿قد جاءكم بينة من ربكم﴾:
- 81..... 4. قوله تعالى: ﴿فأوفوا الكيل والميزان﴾:
- 85..... 5. قوله تعالى: ﴿ولا تبخسوا الناس أشياءهم﴾:
- 88..... 6. قوله تعالى: ﴿ولا تُفسدوا في الأرض بعد إصلاحها﴾:
- 92..... 7. قوله تعالى: ﴿ذلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين﴾ []
- 94..... ثانياً: قوله تعالى ﴿ولا تفعدوا بكل صراطٍ تُوعدون... كان عاقبة المفسدين﴾
- 94..... 1. عند قوله تعالى: ﴿ولا تفعدوا بكل صراطٍ تُوعدون﴾:
- 96..... 2. قوله تعالى: ﴿وتصدون عن سبيل الله من آمن به﴾:
- 99..... 3. قوله تعالى: ﴿وتبغونها عوجاً﴾:
- 99..... 4. قوله تعالى: ﴿واذكروا إذ كنتم قليلاً فكثركم﴾:
- 102..... 5. قوله تعالى: ﴿وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين﴾:
- 104..... ثالثاً: قوله تعالى: ﴿وإن كان طائفة منكم آمنوا بالذي أرسلت به... وهو خير الحكيمين﴾
- 105..... 1- قوله تعالى: ﴿وإن كان طائفة منكم آمنوا بالذي أرسلت به... وطائفة لم يؤمنوا﴾
- 106..... 2- قوله تعالى: ﴿فأصبروا حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحكيمين﴾:
- 110..... رابعاً: قوله تعالى: ﴿قال ألمأ الذين استكبروا من قومِهِ... كانوا هم الحسرين﴾

- 1- قوله تعالى: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ﴾ 110
- 2- قوله تعالى: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَشْعِيبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودَنَّ فِي مِلَّتِنَا...﴾ . 112
- 3- قوله تعالى: ﴿قَالَ أَوْلَوْ كُنَّا كَرِهِينَ﴾: 115
- 4- قوله تعالى: ﴿قَدْ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا﴾ 118
- 5- قوله تعالى: ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا﴾ 121
- 6- قوله تعالى: ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ 125
- 7- قوله تعالى: ﴿عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ 128
- 8- قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ 133
- 9- قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَحَاسِرُونَ﴾ 134
- 10- قوله تعالى: ﴿فَأَخَذْتُمُ الرَّجْفَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ 135
- 11- قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا... كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ﴾ 136
- خامساً: قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ... آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ 137

المبحث الثالث:

- 144..... قصة شعيب (عليه السلام) في سورة هود.....
- أولاً: قوله تعالى: ﴿وَأِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا... عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾ 146
- 1- ﴿وَأِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ 146
- 2- ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ 147
- 3- ﴿وَلَا تَنْفُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ﴾ 149
- ثانياً: قوله تعالى: ﴿وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ... وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُّفْسِدِينَ﴾ 152
- 1- ﴿وَيَا قَوْمِ﴾: 152
- 2- ﴿أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾: 153
- 3- ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾: 154
- 4- ﴿وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُّفْسِدِينَ﴾: 157
- ثالثاً: قوله تعالى: ﴿بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِخَفِيضٍ﴾ 159

- 160 1- ﴿تَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾:
- 163 2- ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾:
- 165 رابعاً: قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصْلَاتُكَ تَأْمُرُكَ ... إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾
- 166 1- ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصْلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾:
- 167 2- ﴿أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ﴾:
- 169 3- ﴿إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾:
- 172 خامساً: قوله تعالى: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾
- 172 1- ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾:
- 174 2- ﴿وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾:
- 175 3- ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنهَأَكُم عَنْهُ﴾:
- 177 4- ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ﴾:
- 188 5- ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾:
- 191 سادساً: قوله تعالى: ﴿وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي ... مَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُمْ بِبَعِيدٍ﴾
- 191 1- ﴿وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي﴾:
- 192 2- ﴿أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ﴾:
- 192 3- ﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُمْ بِبَعِيدٍ﴾:
- 194 سابعاً: قوله تعالى: ﴿وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾
- 194 1- ﴿وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ﴾:
- 197 2- ﴿ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾:
- 201 3- ﴿إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾:
- 211 ثامناً: قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ ... وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾
- 211 1- ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ﴾:
- 211 2- ﴿مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ﴾:
- 214 3- ﴿وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا﴾:

- 215 ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ﴾: 4-
- 217 ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بَعِزٌّ﴾: 5-
- 218 ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ ... بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾: 18-تاسعاً: قوله تعالى:
- 218 ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ﴾: 1-
- 220 ﴿وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظَهْرِيًّا﴾: 2-
- 220 ﴿إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾: 3-
- 221 ﴿وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ ... وَارْتَقِبُوا إِلَيَّ مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾: 18-عاشراً: قوله تعالى:
- 221 ﴿وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِلَيَّ عَامِلٌ﴾: 1-
- 222 ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ﴾: 2-
- 223 ﴿وَارْتَقِبُوا إِلَيَّ مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾: 3-
- 224 ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا ... أَلَّا بُعْدًا لِمَدْيَنَ كَمَا بَعَدَتْ ثَمُودُ﴾: 18-الحادي عشر: قال تعالى:
- 224 ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾: 1-
- 225 ﴿نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا﴾: 2-
- 225 ﴿وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ﴾: 3-
- 225 ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾: 4-
- 226 ﴿كَأَنَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾: 5-
- 227 ﴿أَلَّا بُعْدًا لِمَدْيَنَ كَمَا بَعَدَتْ ثَمُودُ﴾: 6-

المبحث الرابع:

- 228 شعيب (عليه السلام) في سورة الشعراء
- 229 ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ ... إِنَّ أَجْرِي إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾: 18-أولاً: قوله تعالى:
- 229 ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ﴾: 1-
- 231 ﴿إِذْ قَالَ لَهُمُ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾: 2-
- 235 ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾: 3-
- 235 ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾: 4-

- 235 ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۚ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾: 5-
 ثانيًا: قوله تعالى: ﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ... وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ 236
 1- ﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ﴾: 236
 2- ﴿وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ﴾: 236
 3- ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾: 237
 4- ﴿وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾: 237
 ثالثًا: قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِيلَ الْأَوَّلِينَ ... إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ 238
 1- ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِيلَ الْأَوَّلِينَ﴾: 238
 2- ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾: 240
 3- ﴿وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَطُّنكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ﴾: 240
 4- ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾: 242
 رابعًا: قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ... إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ 242
 1- ﴿قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾: 242
 2- ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾: 242
 3- ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابٌ يَوْمَ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾: 243
 خامسًا: قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً ... وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ 244
 1- ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾: 244
 2- ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾: 244
 سادسًا: ذِكْرُ قِصَّةِ شُعَيْبٍ (عَلَيْهِ السَّلَام) فِي سُورَةِ الْحَجْرِ وَالْعَنْكَبُوتِ: 246
 1- قصة شعيب (عليه السلام) في سورة الحجر: 246
 2- قصة شعيب (عليه السلام) في سورة العنكبوت: 248
 سابعًا: ذِكْرُ قَوْمِ شُعَيْبٍ مَعَ الْأُمَّمِ الْهَالِكَةِ: 249
 1- سورة التوبة: 249
 2- سورة الحج: 250

- 250 3- سورة ص: ص
- 251 4- سورة ق: ق
- 252 المبحث الخامس: أسباب هلاك قوم شعيب (عليه السلام)
- 252 أولاً: الكفر بالله عز وجل:
- 252 ثانياً: الشرك بالله:
- 253 ثالثاً: التكذيب:
- 257 خامساً: استعجال العذاب:
- 257 سادساً: الإسراف والترف:
- 257 سابعاً: الاستكبار:
- 258 ثامناً: الإجرام:
- 259 تاسعاً: المكر الإلهي بأهل مدين ومن سبقهم من الأمم المتمردة على توحيد الله وشرعه
- 259 1- قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ ... لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ﴾
- 260 2- قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ ... فَأَخَذْنَاهُمْ بَعْتَهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾
- 260 3- قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا ... فَلَا يَأْمُرُ مَكَرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾
- 261 عاشرًا: الفساد:
- 264 الحادي عشر: إيذاء شعيب (عليه السلام):
- 265 1- التهديد بالرحم:
- 266 2- التهديد بالنفي:
- 266 الثاني عشر: الخطايا والذنوب:
- 267 الثالث عشر: سنة الإملاء والاستدراج
- 269 الرابع عشر: الاشتغال بالدنيا عن الآخرة:
- 270 الخامس عشر: نقص المكيا والميزان من أسباب هلاك قوم شعيب:
- 271 السادس عشر: الاستبدال:
- 272 السابع عشر: سنة الأجل الاجتماعي:

274	الثامن عشر: سنّة الهلاك:
275	التاسع عشر: الخسران:
275	العشرون: الغفلة عن أسباب الهلاك:
275	الحادي والعشرون: أهم صفات وخصائص شعيب (عليه السلام) ووفاته:
276	1- تعريف الرسل وصفاتهم:
279	2- الفرق بين النبي والرسول:
280	3- أهم صفات الرسل ومنهم شعيب (عليه السلام):
283	4- الإيمان بالأنبياء والمرسلين:
284	5- عدد الرسل:
285	6- التفاضل بين الأنبياء والرسل:
286	7- أولو العزم من الرسل:
287	8- حكمة إرسال الرسل عامة:
290	9- وظائف الرسل:
290	10- أمور تفرّد بها الأنبياء:
294	11- وفاة شعيب (عليه السلام):
295	الخلاصة:
313	المراجع:
345	فهرس المحتويات
353	السيرة الذاتية للمؤلف
354	كتب صدرت للمؤلف



السيرة الذاتية للمؤلف

د. علي محمد محمد الصّلابي
مفكر ومؤرخ و فقيه



- ولد في مدينة بنغازي بليبيا عام 1383 هـ - 1963م.
- نال درجة الإجازة العالمية (الليسانس) من كلية الدعوة وأصول الدين من جامعة المدينة المنورة عام 1993م، وبالترتيب الأول.
- حصل على درجة الماجستير من كلية أصول الدين في جامعة أم درمان الإسلامية عام 1996م.
- نال درجة الدكتوراه في الدراسات الإسلامية بأطروحته فقه التمكين في القرآن الكريم من جامعة أم درمان الإسلامية بالسودان عام 1999م.
- اشتهر بمؤلفاته واهتماماته في علوم القرآن الكريم، والفقه، والتاريخ، والفكر الإسلامي.
- زادت مؤلفات الدكتور الصلابي على التسعين مؤلفاً.

كتب صدرت للمؤلف

1. السيرة النبوية: عرض وقائع وتحليل أحداث.
2. سيرة الخليفة الأول أبو بكر الصديق رضي الله عنه: شخصيته وعصره.
3. سيرة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه: شخصيته وعصره.
4. سيرة أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه: شخصيته وعصره.
5. سيرة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه: شخصيته وعصره.
6. سيرة أمير المؤمنين الحسن بن علي بن أبي طالب: شخصيته وعصره.
7. الدولة العثمانية: عوامل النهوض والسقوط.
8. فقه النصر والتمكين في القرآن الكريم.
9. تاريخ الحركة السنوسية في إفريقيا.
10. تاريخ دولتي المرابطين والموحدين في الشمال الإفريقي.
11. عقيدة المسلمين في صفات رب العالمين.
12. الوسطية في القرآن الكريم.
13. الدولة الأموية، عوامل الازدهار وتداعيات الانهيار.
14. معاوية بن أبي سفيان، شخصيته وعصره.
15. عمر بن عبد العزيز، شخصيته وعصره.
16. خلافة عبد الله بن الزبير.
17. عصر الدولة الزنكية.
18. عماد الدين زنكي.

19. نور الدين زنكي.
20. دولة السلاجقة.
21. الإمام الغزالي وجهوده في الإصلاح والتجديد.
22. الشيخ عبد القادر الجيلاني.
23. الشيخ عمر المختار.
24. عبد الملك بن مروان وبنوه.
25. فكر الخوارج والشيعة في ميزان أهل السنة والجماعة.
26. حقيقة الخلاف بين الصحابة.
27. وسطية القرآن في العقائد.
28. السلطان عبد الحميد الثاني.
29. دولة المرابطين.
30. دولة الموحدين.
31. عصر الدولتين الأموية والعباسية وظهور فكر الخوارج.
32. الدولة الفاطمية.
33. حركة الفتح الإسلامي في الشمال الأفريقي.
34. صلاح الدين الأيوبي وجهوده في القضاء على الدولة الفاطمية وتحرير البيت المقدس.
35. استراتيجية شاملة لمناصرة الرسول ﷺ، دروس مستفادة من الحروب الصليبية.
36. الشيخ عز الدين بن عبد السلام سلطان العلماء.
37. الحملات الصليبية (الرابعة والخامسة والسادسة والسابعة) والأيوبيون بعد صلاح الدين.
38. المشروع المغولي: عوامل الانتشار وتداعيات الانكسار.

39. سيف الدين قطز ومعركة عين جالوت في عهد المماليك.
40. الشورى في الإسلام.
41. الإيمان بالله جل جلاله.
42. الإيمان باليوم الآخر.
43. الإيمان بالقدر.
44. الإيمان بالرسول والرسالات.
45. الإيمان بالملائكة.
46. الإيمان بالقرآن والكتب السماوية.
47. السلطان محمد الفاتح.
48. المعجزة الخالدة.
49. الدولة الحديثة المسلمة: دعائمها ووظائفها.
50. البرلمان في الدولة الحديثة المسلمة.
51. التداول على السلطة التنفيذية.
52. الشورى فريضة إسلامية.
53. الحريات من القرآن الكريم: حرية التفكير وحرية التعبير، والاعتقاد والحريات الشخصية.
54. العدالة والمصالحة الوطنية: ضرورة دينية وإنسانية.
55. المواطنة والوطن في الدولة الحديثة.
56. العدل في التصور الإسلامي.
57. كفاح الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي.
58. الأمير عبد القادر الجزائري.

59. كفاح الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي، سيرة الزعيم عبد الحميد بن باديس، الجزء الثاني.
60. سنة الله في الأخذ بالأسباب.
61. كفاح الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي، وسيرة الإمام محمد البشير الإبراهيمي.
62. أعلام التصوف السني: "ثمانية أجزاء".
63. المشروع الوطني للسلام والمصالحة.
64. الجمهورية الطرابلسية (1918 - 1922) أول جمهورية في تاريخ المسلمين المعاصر.
65. الإباضية: مدرسة إسلامية بعيدة عن الخوارج.
66. المسيح عيسى ابن مريم (عليه السلام): الحقيقة الكاملة.
67. قصة بدء الخلق وخلق آدم (عليه السلام)
68. نوح (عليه السلام) والطوفان العظيم.. ميلاد الحضارة الإنسانية الثانية.
69. إبراهيم خليل الله (عليه السلام): "داعية التوحيد ودين الإسلام والأسوة الحسنة".
70. موسى (عليه السلام) كلم الله.
71. موسى (عليه السلام) والخضر.
72. موسى (عليه السلام) في سورة طه.
73. موسى (عليه السلام) في سورة القصص.
74. موسى (عليه السلام) في سورة الشعراء.
75. مؤمن آل فرعون في سورة غافر.
76. لا إله إلا الله (أدلة وجود الله وأول المخلوقات)
77. سقوط الدولة العثمانية (الأسباب - التداعيات).
78. سقوط الدولة الأموية (الأسباب - التداعيات).

79. مختصر نشأة الحضارة الإنسانية وقادتها العظام.
80. النبي الوزير يوسف الصديق (عليه السلام) من الابتلاء إلى التمكين.
81. ذكريات لا تنسى.
82. الأنبياء الملوك داوود وسليمان (عليهما السلام)، وهيكل سليمان المزعوم.
83. لوط (عليه السلام) ودعوته في مواجهة الفساد والشذوذ الجنسي وعقاب الله للظالمين.
84. تحديد بناء المسجد الأقصى في عهد سليمان (عليه السلام) وقصة الهيكل المزعوم.
85. نبي الله هود (عليه السلام) وأسباب زوال حضارة قوم عاد.
86. نبي الله صالح (عليه السلام) وأسباب هلاك قوم ثمود.
87. الأبعاد الإنسانية والحضارية في شخصية النبي ﷺ.
88. نبي الله أيوب (عليه السلام) "طريق الشفاء ﴿وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾".
89. أنبياء الله إسحاق ويعقوب (عليهما السلام)
90. إسماعيل (عليه السلام)
91. أنبياء الله إدريس وإلياس وذو الكفل واليسع (عليهم السلام)